
الجمهورية العربية المتحدة
إخترنا لك ٩٧
حول العالم العربى
COMMON SENSE ABOUT...
The ARAB WORLD
Erskine B. Childers
بقلم
ارسكين تشيلدرز

اخترنا لك – ٩٧

حول العالم العربي

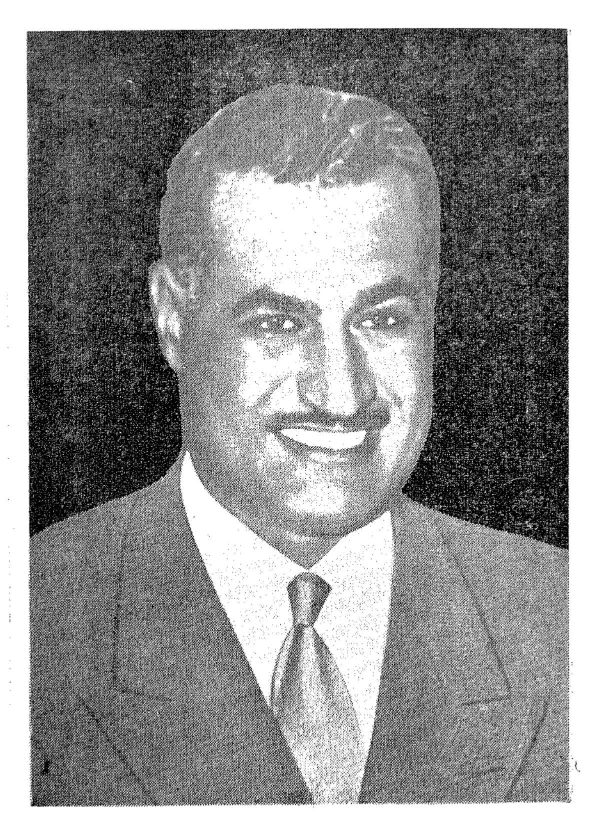
بقلم

ارسكين تشيلدرز

Erskine Chielders.

ترجمة

محمد عبد الله الشفقي



الرئيس جمال عبد الناصر

مقـــــدمة

لن يستفيد الكثير ، فى عرض موجز كهذا ، إذا نحن أسهبنا فى سرد التاريخ القديم للعالم العـــربى برمته ـــ من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ـــ وإذا كان معظم اهتمامنا منصباً فى هذا الكتاب على منطقة الشرق الأوسط إلا أننا لا نهدف بذلك إلى التقليل من شأن المغرب ، ذلك البلد العربى البالغ الأهمية ، الذى كان يعرف من قبل باسم شمالى إفريقية الفرنسى .

لقد تركز اهتمام دول العالم على الشرق الأوسط العربى ، وبلغت الحاجة إلى فهم هذه المنطقة ذروتها ، كما انبعثت منها أيضاً أعظم الأخطار التى تهدد السلم الدولى ، والتى نجمت عن عدم وجود التفاهم المشار إليه ، وإزاء هذه الأسباب أهيب بمواطنى المغرب العربى ودارسيه أن يحتملوا اهتمامنا بالشرق الأوسط ، هذا الاهتمام الذى يغمط حق منطقتهم . .

وبالرغم من الاهتمام المشار إليه إلا أن علينا أن نبادر بالقول إلى أن الصفحات التالية مليئة بتلخيصات عابرة ، وهذا أمر لا مفر منه فى تاريخ يستوعب حوالى ١٣٥٠ عاماً . أما بالنسبة للذين يريدون الغوص إلى أعمق من هذا ، فقد ضمنت الكتاب قائمة بأسماء مراجع متوفرة فى المكتبات ، أو مراجع يستطيع الشخص العادى شراءها .

ولقد استرشدت فى كتابى بالمبدأ التالى : إن دراسة العالم العربى تتطلب قبل كل شىء تحديد تراث الماضى ، والأحداث الراهنة والظروف البيئية ، والآراء والاتجاهات التى تحرك العرب بالذات ، من أجل ذلك لا يعتبر هذا الكتاب — بأى حال من الأحوال — عرضاً لسياسة الغرب وميوله فى العالم العربى ، والكتاب يفترض أن هذه الأشياء معروفة أكثر من معرفتنا للأفكار والحركات التى يقوم بها أولئك الذين يوجه الغرب إليهم سياسته وميوله ، فمما لا شك فيه أن من أهم مستلزمات العلاقات الدولية أن ندرس كل موقف أو مشكلة لا من وجهة « نظرنا » فحسب ، وإنما من وجهة نظر الشخص الآخر أيضاً ، وأن نحكم - فى أناة — بما إذا كان هناك صراع جوهرى بين وجهتى النظر ، فإذا ثبت أن هناك صراعاً بعد هذا الاختيار الدقيق ، فعلينا أن نسعى وراء حل يوفق بين وجهتى النظر المشار إليهما.

قد يبدو أن هـــذه ملاحظة سطحية صارخة تبرز على صفحات كتاب ، ولكنى أومن بأن الصفحات التالية ستثبت لنا أن موقفنا من العالم العربى فى عشرات السنين الأخيرة كثيراً ما تجاهل هذه السطحية ، وكانت النتائج جد ضارة بمصالحنا المشروعة فى العالم العربى مثلما هى ضارة بالعرب غير أن هذا الكتاب لم يكتب بمرارة من يذكر نكبات الماضى ، وإنما هو يتطلع إلى المستقبل فى تعقل ، ويتناول عالماً يضم حوالى ٨٥ مليوناً من البشر الذى يتحتم على الغرب ، فى النهاية ، أن يتفاهم معهم .

ومن المستحيل أن أفى بحق كل الذين عاونونى فى العالم العربى ، لسنوات عديدة ، فى البحث والترحال ، ومن بينهم الرئيس ناصر ، وكثيرون غيره ، والقائمة تمتد لتشمل عدداً كبيراً من العرب المجهولين الذين يبلغون فى الأهمية مبلغ زعمائهم المشهورين .

أما بالنسبة لكافة الآراء ، التى وردت على هذه الصفحات ، فإن مسئوليتها تقع على عاتقى أنا وحدى بطبيعة الحال .

« ا . ب . ت »

الفصل الاول

طبيعة العالم العربى وأهميته

« العالم العربى » عبارة وصفية ، ومفهوم لم يألفه العالم الخارجى إلا فى السنوات الأخيرة ، فما علة هذا ؟

إن الكتاب الحالى يتحمل عبء الرد على هذا السؤال ، من بين الأسباب ظهور « عروبة » أكثر صراحة فى المجال الدولى ، وظهور منقطة كاملة من العالم العربى كانت تسمى بـ « شمال افريقية الفرنسى » فى الماضى ـ لتؤكد شخصيتها المستقلة ، وقيام مصر من جديد بلعب دور حيوى فى العالم الغربى .

والناس الذين يطلق عليهم اسم العرب يمتدون من شواطىء شمالى غربى افريقية المطلة على المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى المطل على المحيط الهندى ، ومن داخل افريقية الشمالية إلى الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط بأكمله ، وإلى الحدود الجنوبية لتركيا .ويضم العالم العربى حوالى خمسة ملايين ميل مربع (١/١١ من مساحة رقعة الأرض) كما يحتضن حوالى ٨٥ مليون نسمة ١/٢٠ من مجموع الجنس البشرى) .

وأكثر من نصف هذه المنطقة الضخمة عبارة عن صحراء ، تخلو من الماء تماما . أما الأجزاء المكتظة بالسكان فتتفاوت بين مناطق ساحلية

غنية وسلاسل جبال شاهقة ، مثل جبال أطلس وسلاسل جبال لبنان فى الغرب والشرق ، كما تتراوح بين سهول واسعة تغذيها مياه الفيضان ، إلى وديان محصورة وأشرطة ضيقة مزروعة على حافة الصحراء والسهول الجرداء ، فاذا حدث وسقط مطر فانه لايسقط الا فى الشتاء ،باستثناء جزيره ترتوى من مياه الصيف استقرت فى الصحراء ،وحزام صيفى مماثل فى اليمن. والجزء الأكبر من المنطقة العربية يدخل فى تعريف عالم المناخ للجفاف الدائم ، إلا فيما يتعلق بمصادر الماء فهناك ثلاث مناطق كبرى . ففى شمالى مراكش والجزائر وتونس ، وعلى ساحل ليبيا ، يصل معدل المطر السنوى إلى أكثر من ٢٥ بوصة ، وهناك منطقة مماثلة تحتضن ما يسمى كثيراً بـ « الهلال الخصيب » ـ تلك المنطقة التى تشبه الهلال فى تكوينها، والتى تشمل اسرائيل ، وجزءاً من الأردن ولبنان ، وسورية ، وجزءاً من العراق ، والبلد الأخير ذو طابع مزدوج فقممه الجبلية تنعم بالمطر الذى يميز « الهلال » ، غير أن سهله المتخلف عن الفيضانات ينتمى إلى المنطقة الثالثة ، ذلك لأنه يعتمد فى الرى على النهرين التوأمين: الفرات ودجله اللذين يتغذيان من الأمطار والثلوج الساقطة ، وخارج العالم العربى ، فى تركيا وغربى ايران . غير أن المنطقة الثالثة لا تتمثل حق تمثيل إلا فى مصر والسودان ، حيث يعتمد الإنسان والحيوان على نهر النيل الذى ينبع من الجبال الشاهقة فى داخل افريقية ، اى من خارج العالم العربى أيضاً .

وقد تخدعك مساحة العالم العربى إذا ما قستها إلى عدد سكانه، فقد يتراءى لك أن كل ميل مربع لا يستوعب سرى عدد قليل من السكان.

والواقع أن الصور التاريخية والطابع الصحراوى للقسم الأكبر من المنطقة قد أدى إلى ظهور صورة «للعرب» باعتبارهم رحلا يتجولون عبر الرمال الشاسعة وقد امتطوا جمالهم ، ليحطوا الرحال هناك ، ويعيشوا فى خيام ، بينما ترعى قطعانهم العشب ، جالبين الماء من الواحات المألوفة التى تحف بها أشجار النخيل . لقد كانت صورة هؤلاء الرحل صحيحة بصفة عامه فى فترة من الفترات ، غير أنها لم تعد كذلك . إن الرحل ، أو شبه الرحل ، يشغلون اليوم حيزاً صغيراً جداً من بين الـ ٨٥ مليون عربى ، ومن المؤكد أنهم لا يتعدون ١٠٪ من مجموع السكان ، ويحتمل أن تقل هـذه النسبة (مازالت الاحصائيات تحبو فى كثير من البلدان العربية) ومن بين الأربعين مليون عربى فى الشرق الأوسط لا نجد إلا ٣ر٥ مليون عربى رحل أو شبه رحل .

أما الغالبية العظمى فعبارة عن زراع مستقرين أو سكان مدن . أضف إلى ذلك أن هذه الغالبية العظمى تتركز فى مناطق يكتظ فيها الميل المربع بالسكان . وهذا يتناسب ، بالضرورة ، مع المناطق المحدودة التى يمكن زراعتها من مياه الأمطار أو عن طريق الرى بالأنهار . ومثل هذه المناطق صغيرة إلى حد بالغ ، وفى معظم أقطار العالم العربى تزيد نسبة السكان الريفيين على سكان المدينة بصورة ضخمة ، وهذان العاملان مسئولان عن بعض المشاكل الاقتصادية الخطيرة التى تواجه العرب ، وبخاصة إذا لاحظنا بالإضافة إلى ذلك ، أن السكان يتزايدون بسرعة فى الواقع .

والحلقة المفرغة المألوفة فى المناطق المتخلفة انما تتمثل بصورة كاملة

فى العالم العربى . فهناك كثرة هائلة من السكان الريفيين الاميين ، وهم فى معظم الحالات يفتقرون إلى المهارة والتنظيم اللازمين لإستغلال الأرض الموجودة ، وهناك جمهور يتكاثر بسرعة، وبذا يطلب المزيد من الطعام وغيره من السلع الاستهلاكية ،وهو يزحف إلى المدن،وينتج عن هذا كله تعطل لا يمكن تخفيف حدته الا بالتصنيع ، وهناك رؤوس أموال تافهة ، يضاعف من تفاهتها تزايدعدد السكان،مما يعرقل التصنيع، والتصنيع بدوره لايوفر لنا علاجا شاملا للعمال المتعطلين،إذأن التصنيع يعتمد بطبيعته على الآلة .

وقد نستطيع تصوير المشكلة بالانتقال إلى بلدين يعانيان من هذه المشاكل أكبر العناء ، وهما الجزائر ومصر ، إن سكان الجزائر يبلغون اليوم ١٠ ملايين نسمة ، والعرب يمثلون تسعة أعشار هذا العدد ، وهم يتكاثرون بسرعة ، وبحلول عام ١٩٨٠ سيبلغ عددهم ١٨ مليون نسمة ، واليوم نرى أن ٥٠ ٪ من الجزائريين لم يتخطوا عامهم العشرين . ونجد أن ٧٥ ٪ من مجموع السكان يكتظون فى الشمال، وهى المنطقة التى أسماها الفرنسيون بـ « الجزائر النافعة » ، وهى تسمية لها دلالتها . غيرأن الجزائر لاتستطيع أن تطعم من أرضها ثلاثة ملايين نسمة مالم تقدم على اصلاحات جوهرية فى ملكية الأرض . ومالم تأخذ بأسباب التصنيع الضخم .

وفى مصر تتخذ المشكلة أبعادا ضخمة وإذا نظرنا إلى الخريطة وجدنا أن مصر تحتضن ٣٦٣٫٠٠٠ ميلا مربعا، غيرأن الأرض الصالحة للزراعة من هذه المساحة ، لاتتعدى ١٤٫٠٠٠ ميل ، فى داخل هذه الأرض ، وعلى هذا الجزء الضئيل يعيش ٢٥ مليون مصرى فى وادى النيل الضيق

الممتد جنوبا ، وفى المثلث المسطح الذى تتألف منه الدلتا فى الشمال حيث يمكن توزيع مياه نهر النيل على أرض لاتغذيها الأمطار على الاطلاق (إذا عقدنا مقارنة بين مصر واسكتلنده وجدنا أن شعب اسكتلندة يتألف من ٥ مليون نسمة ومع ذلك يشغل ضعف هذه المساحة) والأرض فى هذه المنطقة المزروعة الآهلة بالسكان ، هى من أكثر أراضى العالم كله تعرضا للاجهاد . أضف إلى هذا أن الشعب المصرى يتزايد كل عام بمعدل ٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ولابد أن هذه الزيادة نفسها ستتضاعف، ذلك لأن البرامج الطبية والصحية الضخمة بدأت تقلل من نسبة الوفيات فى المواليد .

وهناك حالات مشابهة فى معظم البلدان العربية الأخرى ، . وان كانت أقل حدة من الحالتين السابقتين، وان وطأة الفقر هذه لتفسر كثيراً من الاضطرابات السياسية فى هذه المنطقة . وقد ننظر الى ارتفاع نسبة الجهل فى معظم البلدان (حوالى ٧٥٪) والى الطابع الريفى للسكان فنظن أن هذه القلاقل قاصرة على اضطرابات تثور فى صفوف قلة من سكان المدن ، ولكن ، لا الجهل ولا البعد المكانى يحولان دون تأثر المناطق الريفية بالآراء الواردة من العالم الخارجى ، وبالأحداث السياسية التى تقع فى مناطق بعيدة ،وتلعب الاذاعة دوراً حيوياً فى السياسية العربية . حاملة آمالا ضخمة وآفاقا رحبة من الرخاء للملايين التى تعيش فى القرى النائية ولا حاجة بنا إلى أن نقول أن معظم الأسر الريفية لاتستطيع شراء جهاز الاذاعة، ولكن إذا كان هناك مذياع واحد فى القرية(وهذا مايحدث اليوم عموما) فان رسائله تصل إلى الجميع ، وبخاصة لأن الدول العربية

هى قبل كل شىء لغة مشافهة ، وأن الكلمة المنطوقة تكاد تكون سمة طبيعية للذين يتحدثون بها .

وهناك عامل آخر يؤثر فى نمو الحركات السياسية العنيفة والقلاقل الشعبية ، ألا وهو الهجرة الضخمة إلى المدن ، وهى التى ذكرناها آنفا وقد لا نستطيع أن نتصور ـ بشكل كامل ـ العدد الهائل من العرب الذين يقطنون المدن الكبرى . وهناك يتصلون مباشرة، بتيار الأفكار الحديثة القادمة من الخارج ، ومن كل جانب تواجههم تلك المقارنة الصارخة التى تثيرهم : فقر يحل بمعظم مواطنيهم، مع مستويات عالية فى الداخل والخارج أضف إلى هذا وخزات وضربات النفوذ الأجنبى أو الاحتلال أو كليهما معاً ، وهناك عامل آخر يجب أن يدخل فى اعتبارنا . ونقصد به طبيعة الأسرة العربية ، وطبيعة الهجرة الى المدن ، فالجزء الأكبر من هذا التيار المستمر المتدفق إلى المدن (كما هو الحال فى مناطق أخرى بآسيا وافريقية) لا يعتبر هجرة مستديمة إلى المدن بالمعنى المفهوم لدى الغرب ، بمعنى أن الأسرة تنتقل بأكلها إلى المدينة وتصبح متمدينة تماما من حيث جذورها وعلاقاتها الاجتماعية ومستوياتها . ان القسط الأكبر من هذه الهجرة إنما يتم عن طريق أفراد من الأسر الريفية يبحثون عن عمل ، انهم رجال ونساء يحتفظون على الدوام بالروابط التى تربطهم بأسرهم التى بقيت فى فى الأرض ، وهم يرسلون إلى هـــذه الأسر نقوداً ويسافرون بين الحين والحين إلى قريتهم ، وعلينا ونحن تدرس الجدول الصغير التالى ـ المبين فيه أسماء المدن العربية الكبرى ـ أن نذكر هذا التدفق المستمر لا للبشر فحسب ، وانما للأفكار ، والأحزان ، والمطامع ، ذلك لأن هذا يصور لنا، بشكل واضح ، مصطراً آخر من مصادر الاضطرابات السياسية .

الدول العربية الكبرى

من الشرق الى الغرب

	مدن رئيسية		مدن أخرى	
الدار البيضاء	٧٠٠٠٠٠	١٤٦٠٠٠٠:١٩٣٦	مراكش	٣٢٠٠٠٠
الجزائر	٧٠٠٠٠٠		حوران	٣٠٠٠٠
تونس	٥٦٠٠٠٠	٣١٣٠٠٠:١٩٣١	فاس	٦٥٠٠٠
طرابلس	١٤٠٠٠٠		بنغازى	٧٠٠٠٠
القاهرة	٢٥٥٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠:١٩٢٢	بورسعيد	١٩٠ ٠٠
الاسكندرية	١١٥٧٠٠٠		بورسودان	٦٥٠٠٠
الخرطوم	٣٠٠٠٠٠		حلب	٤٠٠٠٠٠
عمان	٢٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠:١٩٢١	حمص	١٣٠٠٠٠
بيروت	٢٥٠٠٠٠	٩٥٠٠٠:١٩٢٢	طرابلس	١٤٠٠٠٠
دمشق	٣١٠٠٠٠	١٨٨٠٠٠:١٩٢٢	الموصل	١٤٥٠٠٠
بغداد	٥٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠:١٩٢٢	البصرة	١١٠٠٠٠
مكة	١٢٠٠٠٠		عدن	٣٧٠٠٠
الرياض	١٠٠٠٠٠		الكويت	٢٠٠٠٠٠
صنعاء	٥٠٠٠٠		المنامة	٤٥٠٠٠
اجمالى	٧٥٠٧٠٠٠		اجمالى	٢٠٩٧٠٠٠

اجمالى عام : ٩٦٠٤٠٠٠

قد تعطى لنا الأرقام السابقة صورة للعرب تختلف قليلا عن الصورة التى عرفها الغرب طويلا ، وسنرى من الجدول أن أكثر من ١٠ ٪ من

مجموع سكان العالم العربى يعيشون فى هذه المدن ، وعلينا أن نذكر هنا أن هذه المدن لا تمثل كافة المراكز الحضرية بأية حال،وإنما تمثل المراكز الكبرى فقط .

وفى بعض الحالات يكون غالبية الموجودين من سكان المدن .

إن أكثر من ٣٠ ٪ من التونسيين حضريون و ٢٩ ٪ من مجموع اللبنانيين يعيشون فى بيروت وطرابلس وصيداً وزحله وحدها .

ماذا نقصد بكلمة « عربى » ؟

إننا نسبق ماسيرد فى الفصول التالية حين نحاول هنا الإجابة عن هذا السؤال الهام . غير أنه من الضرورى ، فى أى وصف إجمالى للعالم العربى أن نلاحظ أنه يحتضن أجناساً متباينة أشد التباين ، أو يتضمن جماعات تاريخية . إن القائمة الموجزة محيرة ، والتعريفات « الجنسية » خادعة . وإذا بدأنا من المغرب وانتهينا إلى الشرق فلابد أن تتضمن القائمة أناساً من البربر ، والقرطاجنيين،والرومان ، والفاندال ، والعرب ، والتركمانيين والمصريين،والنوبيين،والحاميين،واليونانيين، والأرمن ، والسيرياقوسيين والآشوريين ، والبابليين ، والحيثيين والسامريين ،والأكراد ، والفرس وفئة من الوافدين القدامى الذين اندمجوا بشعوب المنطقة ، والذين يحسن أن نطلق عليهم صفة الساميين .

موجز القول أننا إذا حاولنا الإجابة من وجهة نظر علم الأجناس على السؤال : من العربى ؟ فمعنى هذا أننا سنتعثر — يائسين — فى خضم

آلاف من السنين التى مرت فى الهجرة ، والغزو ، والتزاوج . وليس للعروبة أدنى علاقة بـ « الجنس » وإنما هى ترتبط باللغة ، والتقاليد والميراث الثقافى ، والدين (إلى حدما) . والشعور المتزايد بالمشاركة ، وهو الشعور الذى ولدته هذه العناصر عندما تغلغل إليها المفهوم الغربى لكلمة « الأمة » .

أى أننا نستطيع أن نقول فى هذه المرحلة بوجه عام: إن العرب بشر يتكلم غالبيتهم الساحقة اللغة العربية ، ومعظمهم يدين بديانة الاسلام (غير أن هناك المسيحية واليهودية أيضاً ، وهما عقيدتان لا تنتقصان من صفة العروبة) وهم يستجيبون لمجموعة المؤثرات الثقافية والاجتماعية التى انتشرت فى المنطقة بفضل الحضارة العربية الأولى . وهم يعيشون اليوم فى عشرة بلدان تتمتع بالسيادة الكاملة وحوالى ثلاثين منطقة أخرى ، وهم يحسون بأنهم عرب .

أهمية المنطقة العربية

لقد مرت أحداث تاريخية بعشر دول تتمتع بالسيادة وبعضوية الأمم المتحدة،وبفضل هذه الأحداث تخلصت تلك الدول من السيطرة الخارجية أو المنافسات المدمرة للطرفين ، وبفضلها أيضاً تتجه شعوب البلدان الأخرى إلى تأكيد عروبتها ، مهتدية بالقومية العربية و لهذا كله دلالته الخاصة بالنسبة للعالم الخارجى .

وقد لايدرك العالم أهمية العالم العربى - فى الكرة الأرضية — من

حيث عدد سكانه . ويبدو أن أهميته تتمثل فى عوامل مجتمعة نستطيع أن نقسمها إلى : المواصلات ، والبترول ، والسياسة ، والسلام .

المواصلات

هناك عدة محاور كبرى من المواصلات تعبر العالم العربى بحراً ، وبراً ، وجواً .

(ا) فأقصر طريق ملاحى بين أوروبا وشرقى أفريقية، وشبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا ، والشرق الأقصى واستراليا يخترق العالم العربى عن طريق قناة السويس .

(ب) والمواصلات البرية بين أوروبا والقارة الأفريقية تعبر العالم العربى — سواء عن طريق جبل طارق ، أو عن طريق أية نقطة عند الساحل الجنوبى لحوض البحر المتوسط ، أو عن طريق آسيا الصغرى . والسكك الحديدية التى ستمتد فى المستقبل من الشمال للجنوب ، ومحاور الطرق فى افريقية وستنتهى — شمالا — فى هذه المنطقة .

(ج) يعبر العالم العربى محوران جويان على جانب كبير من الأهمية فمعظم الطائرات التى تتنقل بين أوروبا وجنوبى آسيا والشرق الأقصى واستراليا تخترق الفضاء الجوى العربى (بالرغم من أنه من الممكن -فنيا- تحويل الطريق عبر فضاء تركيا وإيران) والذى يريد أن يسافر بالطائرة إلى إفريقية من أى مدينة فى أوروبا أو روسيا السوفيتية لابد أن يمر بالعالم العربى ، ويمر بمحور الدائرة ، وأقصد به القاهرة .

أما الدور الاستراتيجى الذى تلعبه هذه المواصلات الضخمة فانه آخذ فى التغير الآن لأن طبيعة الحرب نفسها آخذة فى التغير. فمجال الطائرات التى يستطيع الانسان توجيهها قد أخذ يتسع باستمرار وذلك بسبب الحاجة إلى الاحتفاظ بقواعد للمرور الجوى داخل المنطقة ـ وستختفى هذه الحاجة تماما فى عصر الصواريخ عابرة القارات ونتيجة لنفس التطورات العسكرية اختفى إلى حد كبير ذلك الدور القديم الذى كان يلعبه الشرق الأوسط العربى كمنطقة للمناورات البرية والغزو أثناء الحرب واليوم أصبحت قناة السويس من أكبر أهداف العالم تعرضاً للخطر فى حرب تستخدم فيها الذرة والصواريخ ومع ذلك سيظل العالم العربى محتفظاً بما يمكن أن نسميه بالقدرة على الازعاج فى ميـــدان الاستراتيجية العسكرية ، وذلك لسنوات . وإذا لم يكن شن الحروب المستقبلة فى حاجة إلى السيطرة الفعاله على العالم العربى ، فان من الضرورى مع ذلك الحيلولة بينه وبين الوقوع تحت سيطرة دولة كبرى معادية .

ولسنا بحاجة إلى تعديد أهمية مواصلات المنطقة فى زمن السلم سواء فى الميدان التجارى أو السياسى أو الثقافى . وطالما ظل الرجال يرسلون بضائعهم بالسفن ، ستظل قناة السويس ممراً مائياً دوليا على جانب كبير من الأهمية . واليوم ، والقارة الأفريقية تنهض ، نجد أن الطيران الحر إلى هذه المنطقة سيكون حلقة اتصال لابد منها . بل : إن شكل الطرق التجارية لمعظم الخطوط الجوية داخل القارات يتأثر بأحوال المرور داخل المنطقة العربية .

البـــترول

فى عام ١٩٥٦ بلغ رصيد العالم من البترول حوالى ١٨٦٩٠٠ مليون برميل ، منها - على أقل تقدير - ١٢٠٠٠٠ مليون برميل راقدة تحت التربة العربية أما أوروبا الغربية فقد جاء ٩٥٪ من بترولها من الشرق الأوسط . وكان لابد أن يتغير هذا الإطار أبان أزمة السويس ومن المحتمل أيضاً أن يتعرض البترول العربى لمنافسة جديدة من المصادر الأمريكية (أى نصف الكرة الغربى) نتيجة لتزايد قابلية تحويل العملة الأوروبية ، ومع ذلك ، من الواضح أن البترول العربى سيظل مصدراً رئيسياً لوجود أوربا (وجنوبى آسيا) واحتياجاتها إلى مواد التشحيم وحتى لو وضعنا فى اعتبارنا الطاقة الذرية فان احتياجات بريطانيا من البترول ستبلغ فى عام ١٩٧٠ ثلاثة أضعاف احتياجاتها فى عام ١٩٥٥ .

وهناك عامل آخر جديد له دلالته الكبرى ، ألا وهو استغلال فرنسا لمستودعات البترول الهائلة فى الصحراء الكبرى . وبفضل هذه المستودعات لن يتحقق الاستقلال الذاتى لفرنسا فى عام ١٩٦٥ فحسب وانما ستصبح أيضاً مصدرة للبترول . ولم يظهر هذا التطور إلا فى الأعوام القليلة الماضية . وتصادف ظهوره مع التحدى الحاسم النهائى للوطنيين الجزائريين . وقد يوافق الجزائريون على استغلال بترول الصحراء الكبرى مع مشاركة فرنسا لهم ، ولكن يبدو أن الأمل ضعيف فى قبولهم لشروط ديجول ، فديجول يطالب بالاشراف الدائم ، الكامل على حقول البترول ، بالسماح لفرنسا بالوصول إليها عبر شمالى الجزائر .

أما الاتحاد السوفييتى فعنده مستودعاته البترولية الضخمة وهى تفوق احتياجاته كما تذكر البيانات السوفييتية، وتغطى أى تطور فى الداخل. ولقد بدأت روسيا، فى الواقع، فى تصدير البترول، وهكذا فإن الدور الذى يلعبه البترول العربى فى ميدان التنافس الدولى لا يمثل اشتباكاً مباشراً بين الذين يجرون وراء البترول. ومع ذلك فإنه يهم الغرب أن يظل البترول العربى يتدفق باستمرار وبطريقة اقتصادية، إذ أن لهذا دلالته فى ميدان الحرب الباردة. وسيظل هناك خوف من أن تدمر حقول البترول العربية أثناء الحرب بالرغم من أن موجة هذا الخوف قد تتضاءل لأن أى حرب قادمة ستكون سريعة عاجلة.

السياسة

من الواضح أن سياسة العالم العربى ذات أهمية عالمية كبرى حتى لو اكتفينا بالنظر إليها على ضوء المواصلات والبترول. غير أن هناك تشعبات أوسع مجالا. فللمنطقة أهميتها القصوى فى تطور الفكر والحركات السياسية فى أفريقية وآسيا. وذلك بفضل موقعها الجغرافى واتصالها بقارتى أفريقية. إن العرب يتعاطفون مع الأفريقيين والآسيويين، ولقد تمثل هذا التعاطف فى مؤتمر باندونج الذى عقد عام ١٩٥٥. وهم يشاركون الأفريقيين والآسيويين وعيهم بالمعركة الدائرة من أجل الوثوب إلى منتصف القرن العشرين بعد النومة الطويلة فى ظل السيطرة الأجنبية. وإذا صاغ العرب أنظمة وهيئات سياسية واجتماعية واقتصادية فإنها

قد تؤثر على سير الأمور جنوباً وشمالا ، والعكس بالعكس .

غير أن هناك نفوذاً عربياً فى العالم الخارجى أكثر مباشرة ، وذلك عن طريق اهتمام ٢٠٠ مليون مسلم من غير العرب فى أفريقية وآسيا وروسيا حقا وليس هناك ما يشبه « الكنيسة » فى كل قطر يسود فيه الاسلام . غير أن هناك اهتماما عاما يشترك فيه المسلمون ، وأن رموز عقيدتهم لتوجه أنظارهم إلى العالم العربى ، إلى المدن المقدسة فى بلاد العرب ، وإلى الجامعة الاسلامية القديمة «الأزهر» الموجودة فى القاهرة وإلى أماكن أخرى يتركز فيها اهتمام المسلمين .

وفى أعقاب هذه المصالح المشتركة لايستبعد أن تتدفق تيارات الفكر السياسى والاجتماعى بشدة . إن وصول الشيوعية إلى مرتبة النفوذ فى بلدعربى لاشك يؤثر على مناطق بعيدة كأندونيسيا أو الملايو . وبالعكس فان التطور الناجح لتنظيمات عربية غير شيوعية — بفضل البعث الاسلامى أو بدونه — يؤثر إلى حد كبير فى البلاد الواقعة خارج العالم العربى .

وبفضل هذه العوامل ، وبفضل عوامل أخرى غيرها ، نستطيع أن نقول إن مستقبل هؤلاء البشر الذين يبلغ تعدادهم حوالى ٨٥ مليون نسمة له أهميته البالغة فى المنطقة الأفريقية الآسيوية الناسعة ، التى تحتضن ٨٠٠ مليون نسمة (مع استبعاد الصين) .

الســــــــلام

وأخيراً وليس آخراً ، فى هذه القائمة الموجزة ، لا تحتاج (ونحن فى عام ١٩٦٠) إلى أن نضيف شيئاً إلى الرأى القائل : إن العالم العربى مسرح لمشاكل ثبت منذ زمن أنها قادرة على إثارة أزمات عالمية . وقد يتضاءل عدد هذه المشاكل بينما تعيد دول الغرب المتسلطة النظر فى موقفها التقليدى وسياستها إزاء المنطقة ومع ذلك ، فما زالت هناك أربع مشاكل قابلة للانفجار ، أو تحمل فى طياتها عناصر الانفجار ، ومن الممكن أن تثير أية واحدة منها رد فعل يتعدى المنطقة نفسها . ولقد حدث هذا لثلاث منها .

ففى غرب العالم العربى مازالت مشكلة الجزائر قائمة ، ولقد لعبت هذه المشكلة دوراً كبيراً فى التعجيل بنهاية الجمهورية الفرنسية الرابعة ، كما أنها تمس تحالف الغرب فى ميدان الحرب الباردة ، وذلك بسبب سياسة فرنسا الخارجية ، أما المشكلة الخطيرة الثانية فتتمثل فى الأزمة العربية الاسرائيلية التى استعصت على الحل، وهى أزمة تتورط فيها كافة الدول الكبرى ، والأمم المتحدة ، وبعض دول موالية ، فيقف فريق مع هذا الجانب ويقف آخر مع ذاك .

أما المشكلة الثالثة فردها تلك البقية من آثار السيادة البريطانية ، وبخاصة فى جنوب الجزيرة العربية وفى أمارات ودويلات الخليج العربى (وهذه المشكلة تمس — إلى حد كبير — البترول واستثمارات رءوس

الأموال فى لندن) أما المشكلة الرابعة فما زالت تتكشف ، وهى تتصل بمدى تعاطف الوطنيين العـــرب على الصراع الناشب بين الوطنيين الأفريقيين والدول الأوروبية . وقد تثبت مدى أهمية المركز الجغرافى الذى ينعم به العرب إذا عجزت هذه الدول أو رفضت تجنب الصراع السافر الذى ميز روابطها الاستعمارية أو روابط الوصاية فى بقاع أخرى فى قارتى إفريقية وآسيا .

موجز القول أن السلام والاستقرار الدوليين قد يتعرضان للخطر ـ مراراً وتكراراً ـ فى المستقبل كما تعرضا فى الماضى . وسيكون هذا نتيجة لمشاكل تنشب داخل العالم العربى أو تتصل به اتصالا وثيقا .

هذه هى من بين الأسباب الملموسة التى تدعونا إلى دراسة أفكار هذه المنطقة الضخمة . ومشاكلها ، وأحداثها ، دراسة مستأنية متفهمة الماضى ولكى نكمل الصورة لا بأس من أن نستعيد أحداث السنوات القليلة الماضية عندما حاول ساسة الدول الغربية معالجة عدد كبير من المشاكل التى ذكرناها آنفا . إن تاريخ المصالح العربية التى أرادوا حمايتها ، والنجاح أو الفشل الذى حالفهم ، لتاريخ بشع ، محير .

لقد كان من صالح الغرب ، قبل كل شىء ، أن تظل قناة السويس مفتوحة تجرى فيها السفن ومع ذلك سد الممر المائى العظيم فى نوفمبر عام ١٩٥٦ . وتوقفت فيه الملاحة كنتيجة مباشرة للاجراء العسكرى الذى أقدمت عليه دولتان غربيتان . واتخذت الدولتان هذا الاجراء فى نفس

اللحظة التى كانت فيها مشاكل تأميم مصر لشركة قناة السويس قابلة للتفاوض وعندما توقفت الملاحة الدولية فى القناة أضر ذلك ، مباشرة ، بمصالح الطرفين ، الغربى ومصر .

وكان من صالح الغرب أيضاً أن يظل بترول العرب متدفقا فى سلام إلى المستهلكين فى أوروبا الغربية . لقد مضت سنوات الاحتكاكات والازمات شبه مستمرة ، ومع ذلك لم يتوقف البترول عن التدفق ، إلى أن حل شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ وسدت الأنابيب الممتدة من آبار البترول العراقى وكان ذلك ، أيضاً ، نتيجة للاجراء العسكرى الذى أقدمت عليه الدولتان الغربيتان .

ولقد كان من بين مصالح الغرب الحيوية الأخرى خلق زعامة مستقرة محبوبة ، ناهضة ، لا شيوعية ، فى العالم العربى . ومع ذلك فمن الملاحظ بشكل بارز أن أى حكم عربى يتمتع بتأييد ساسة الغرب فى الفترة ١٩٥٥-١٩٥٩ إنما كان حكما مكروها لدى الشعب ، مفتقراً إلى الاستقرار والتقدم . ولقد اختفت معظم هذه العهود منذ ذلك الحين ، أو اضطرت إلى القيام باصلاحات داخلية ، ولكن فى وقت متأخر جداً .

ويرتبط بمصالح الغرب أيضاً رغبة فى تدعيم التبادل التجارى بينه وبين البلاد العربية ، والوقوف ، على الأقل ـ وبطريقة سلبية ـ فى وجه تغلغل الكتلة السوفييتية فى المنطقة عن طريق التجارة ، والمعونة ، والدعاية وفى الفترة من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٥٩ اضطرت أكبر دولة عربية تتاجر مع الغرب إلى توجيه تجارتها (التى كان ٧٥٪ منها مع الغرب ثم

تدهور إلى أن وصل إلى ٢٥٪ تقريباً) لصالح الكتلة السوفييتية ، جاء ذلك نتيجة للضغط الاقتصادى الذى فرضه الغرب طويلا . وفى نفس الفترة . ونتيجة لتعذر حل المشكلة العربية الإسرائيلية العويصة تدفقت أسلحة الكتلة السوفييتية إلى الشرق الأوسط . وبفضل الشروط الحقيقية أو الكامنة فى معونة الغرب الإقتصادية ــ وبخاصة معونة أمريكا ــ إستطاع الاتحاد السوفييتى أن يستغل فائض رءوس أمواله فى صورة مساعدات اقتصادية للمنطقة ، ونتيجة لتزايد الصراع الجوهرى بين القومية العربية ودول الغرب إستطاعت روسيا أن تظهر بمظهر المدافعة عن هذه القومية العربية وربما لم يكن هناك مفر من هذا الصراع بالنسبة لبريطانيا وفرنسا ، نظراً لأنهما كانتا تسيطران على منطقة الشرق الأوسط فى يوم من الأيام . بيد أن الولايات المتحدة ــ التى لم تكن تستعمر بلدا ــ انقادت إلى نفس الوقت التعس .

ومن بين الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تحطيم الغرب لمصالحه بيديه رغبته فى عقد محالفات فى العالم العربى يخوض بها الحرب الباردة ، بالرغم من تصميم الزعماء الوطنيين على الوقوف موقف الحياد .

ولقد أثبتت لنا الايام أن كل جهد بذله العرب لتعزيز هذا التحالف بالمعاهدات أو ما يشبه المعاهدات قد باء بفشل ذريع . وأصبح « حلف بغداد » تسمية خاطئة فى عام ١٩٥٨ ، ولا نغالى إذا قلنا إنه ساعد على زيادة خطر حدوث انقلاب شيوعى بالعراق بدلا من التخفيف من حدة هذا الخطر . واضطرت أمريكا إلى التخلى ، فى هدوء ، عن مبدأ أيزنهاور

بعدأحداث الحرب الأهلية فى لبنان ، وبعدثورة العراق ، والازمة العنيفة فى بلد الملك الشاب حسين .

ولسنا نجانب الدقة حين نقول إن دول الغرب ـ والغرب بأكمله ـ قد جر على نفسه شك ملايين من العرب ، وعداءهم المرير . وذلك خلال السنوات التى انهكتها الازمات . لقد ظل هؤلاء . قرابة عام ونصف عام يتطلعون إلى الغرب ، غير أن الالهام الذى كانوا يستمدونه ، والعلم والمعتقدات السياسية باتت اليوم فى خطر ولحسن الحظ أوقف هذا التيار فى الوقت المناسب ، غير أنه خلف وراءه شيئا من عدم التفاهم ، وهو شىء لا يطيقه الغرب ، ولا يطيقه العرب .

كيف وقع هذا . ؟ كيف يمكن إصلاح العطب الذى حدث ؟ إن الإجابة عن هـذه الاسئلة تتطلب فحص عديد من الاصطلاحات التى أصبحت مألوفة اليوم فى الغرب ، اصطلاحات مثل « القومية العربية » و « الحياد » و « الموالاة للغرب » و « معاداة الغرب » و « الناصرية » و « العدوان غير المباشر » . ووراء هذه الاصطلاحات يقف ١٣٠٠ عام من التاريخين العربى والغربى ، اللذين يتشابكان بصورة كبيرة .

الفصل الثانى

العالم العربى قديما

فى عام ٦٠٠ ميلادية كانت شواطىء البحر المتوسط بأكملها تقريباً ـ شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ـ تابعة للامبراطورية البيزنطية المسيحية التى كانت تحكم من القسطنطينية . وكانت هذه الامبراطورية تشمل مايعرف الآن بايطاليا ، ويوغوسلافيا واليونان ، وتركيا ، وسورية ، وفلسطين ، ومصر ، والجزء الأكبر من ساحل افريقية الشمالى وجزءاً فى جنوب شبه الجزيرة الايبيرية (الاسبانية) أما الباقى من القارة الأوروبية فكان فى يد القبائل مثل الاسبان والفرنك . وفى شرق مايعرف الآن بتركيا ، استقرت الامبراطورية الساسانية الفارسية، وشملت مايعرف اليوم بايران (بلاد الفرس) ومعظم العراق . كان الوهن يدب فى أوصال الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية ، وكانت كل واحدة منها تبدد قوى الأخرى فى حرب مريرة مستمرة .

وفى جنوب خطوط الصراع الرئيسية استقرت شبه الجزيرة العربية، وهى مربع ضخم يربو على مليون ميل مربع معظمه صحراء. فى هذه الفترة، كان لشبه الجزيرة العربية تاريخ غريب خلاب ، والواقع أنها كانت مهد الحضارات تقريباً . فخلال مئات من السنين التى ترجع بنا إلى فجر التاريخ الإنسانى تحركت القبائل شمالا ، خلال هذه المفاوز، متجهة إلى الأرض

الأكثر ثراء وخصوبة ، والتى تمتد على طول شاطىء البحر المتوسط .
وهكذا قدم اليهود إلى فلسطين عام ١٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً ، وعبر
النبطيون نفس الطريق ليستقروا فى النهاية فى النقب الجنوبية ويؤلفوا
مملكتهم الرائعة،التى شقوها فىالصخور الوردية جنوبىالأردن ، ومازالت
آثارها موجوده إلى اليوم .

وكانت هذه الهجرات التاريخية القادمة من شبه الجزيرة تسير فى طريق
هو من أهم الطرق التجارية فى العصور القديمة - فرحلة القوافل الطويلة
تتجه من الساحل العربى الجنوبى ، وبخاصة من اليمن ، إلى الجانب الغربى
من المربع الكبير ، ومن هناك تتجه إلى شاطىء البحر المتوسط .
وعلى طول الطريق تقع مدن عديدة، من بينها مكة والمدينة . وبينما كانت
التوابل والعاج ، والجواهر والمر ، تتجه شمالا عبر هذه المدن كانت
الأفكار تتجه جنوبا مع تلك الحفنة من المسيحين واليهود الذين استقروا
فى داخل شبه الجزيرة العربية . وهكذا كان العرب الذين يعيشون فى مكة
والمدينة فى عام ٦٠٠ ميلادية على علم بأيمان اليهود والمسيحيين بالله واحد

غير أن شعب الجزيرة العربية كان مشركا فى ذلك الحين ، وكان
يعبد عدة آلهة لا يراها (فهى فى السماء) وفى نفس الوقت يعتقد أنها
تعيش فى بعض المواد كالحجارة ، وبخاصة الحجر النيزكى الأسود فى حرم
الكعبة بمكة . وكان ينتظم فى قبائل تربطها رابطة الدم،وكانت هذه القبائل
عبارة عن أسر رحل (قوية ويبلغ عددها بضع مئات على الأقل) ترعى
القطعان وتهاجم القبائل ، وتحارب كل منها الاخرى فى معارك دموية .

والامر الذى له دلالته أن اللغة والشعر كانا أسرع شىء يعقد الهدنة بينها. فالقبائل تجتمع ، فترات منتظمة ، فى مجالس الشعر، وهناك يقف فحولها من الشعراء ليلقوا قصائد بطولة تمتاز بثرائها وتنوعهـا ، وتدور حول تجاربهم ، ومناظر الصحراء والحب والحـرب ، والخرافات والالغاز . والفائز من الشعراء هو الذى ينال الموافقة الاجماعية ، وإذ ذاك تكتب قصيدته بماء الذهب على شريط من القماش لتعلق على الكعبة. وهكذا حملت اللغة العربية - وهى من أغنى اللغات المنطوقة التى عرفها التاريخ البشرى، بتشبيهاتها الخصبة وكلماتها التى تستند إلى تاريخ تفتقر اليه معظم اللغات الحالية - هكذا حملت بذور الوحدة حتى قبل ظهور النبى .

هذا هو العالم العربى فى عام ٦١٠ ميلادية — عالم لا يتعدى أبداً حدود شبه الجزيرة العربية . ولكن حدث فى هذا العام أن آمن عربى واحد فى الأربعين من عمره — واسمه محمد — آمن بأن حقيقة وجود إله واحد قد تكشفت له ، وأخذ على عاتقه مهمة نشر هذه الحقيقة بين عشيرته . وبعد اثنى عشرة سنة من الاستهزاء والأخطار الجسام جمع محمد حوالى مائتين من الأتبـاع فى المدينة ، وهى البلد الذى هاجر إليه تاركاً مكة المحافظة المعادية .. هذه الهجرة تميز بدء التقويم الإسلامى. فى عام ٦٢٢ ميلادية . وفى المدينة بالذات بدأ محمـــد فى تنظيم أتباعه فى صورة مجتمع — امة — من المؤمنين ، أو المسلمين ، وهم الذين قبلوا الإسلام أو « التسليم » بإرادة الله .

ونستطيع أن نقسم مهمة تنظيم المجتمع الدينى إلى قسمين :

لقد أصبحت كلمات النبي أو تعليقاته عن الرب جزءاً من العقيدة الإسلامية ، وقد تم تدوين بعض الأحاديث فى حينها . أما البعض الآخر فقد وعته ذاكرة العرب الذين تعودت أذهانهم على تذكر الكلمة المنطوقة ، ثم تم تدوينها بعد ذلك . وأصبحت هذه الأحاديث جزءاً لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية . وتبدأ العقيدة الإسلامية بالكلمات : «لا إله إلا الله» وتنتهى بالتأكيد بأن محمداً ، النبي هو «رسول» الله .

ولقد آمن الإسلام بكثير من الأنبياء اليهود والمسيحيين ، وآخرهم المسيح ومحمد نفسه . غير أن المسلمين يرون أن المسيح ومحمد كانا من البشر تماماً ، وهم يرفضون عقيـده الحلول والصلب ، والبعث — كما يرفضون الثالوث بطبيعة الحال ، ذلك لأن الله عندهم هو الواحد الأحد . وهم يعتقدون فى وجود جنة ونار وحياة أخرى . وليس لربهم وجود أو شكل ، ومن الكفر أن يحاول امرؤ تجسيده . وهو فى كل مكان ، ولكن ليس له رموز . ومن الصعب أن تعثر على تشبيه ، ولكنا لا نخالف الواقع تماماً إذا قلنا إن المسلم فى مسجده يتجاوب مع كلمات القرآن التى يسمعها ترتل ، إنها الكلمات التى أوصلها جبريل إلى محمد لتعيش بعد ذلك بين المسلمين . وليس هناك تماثيل أو رموز كالخبز والخمر ، ليس هناك إلا الكعبة التى أخذها الإسلام فى الوقت المناسب .

والقرآن وثيقة هائلة تتضمن العديد من الإرشادات والتعاليم الروحية الموجهه للمسلمين ليسترشدوا بها فى حياتهم على الأرض . ومن الممكن

(وهذا ما حدث) تفسيرها بصور مختلفة ، كما هو الحال بالنسبة للمسيحية والبهودية . غير أن جوهر المسلم إنما يتمثل فى قيامه بواجبات خمسة هى: النطق بالشهادتين ، الصلاة خمس مرات يومياً ، الصوم من الفجر حتى غروب الشمس فى شهر رمضان ،ومحاولة الحج إلى مكة مرة فى العمر على الاقل ، واعطاء الزكاة للفقير .

وليس للاسلام كنيسة ـ ويقودنا هذا إلى المظهر الثانى للتكوين الاجتماعى داخل الجزيرة العربية . لقد آمن محمد بأن الرسالة التى أوحيت إليه تطالبه بمحاولة نشرها إلى أقاصى البلاد . ولم يكن فى الإمكان تحقيق هذا على يد حفنة من الوعاظ المتجولين فى بلاد العرب المشركة . وهكذا احتاج الأمر إلى تنظيم دينى سياسى يعتمد على تمويل مناسب . ولابد من وضع قوانين لأتباعه يسيرون على هديها فى حياتهم ، ويجب تسليحهم ليدافعوا عن أنفسهم ، ويهزموا ـ إذا اقتضى الأمر ـ معارضيهم فى الجهاد تلك الحرب المقدسة وفى عام ٦٢٤ قاد الرسول اتباعه لمهاجمة قافلة عربية من مكة ، وأحرزوا النصر واستولوا على غنائم كثيرة .. وكان هذا بداية حملة عسكرية دينية سياسية نقلت العرب (فى مائة عام) من تلك البقعة الضئيلة فى شبه الجزيرة العربية إلى حيث سيطروا على جزء كبير من العالم المعروف آنذاك ، وتم لهم ذلك تحت راية الاسلام . وإذا شئت الدقة قلنا أنه بعد مضى ١٠٨ عام على الاغارة على القافلة فى الجزيرة العربية ، كان الجنود العرب المسلمون يحاربون الفرنجة فى قلب فرنسا بعد أن اكتسحوا شمال أفريقية بأكمله . وكذلك أسبانيا . وفى الشرق الأقصى ذهبوا إلى أبعد من نهر الهندوس بالهند ، بعد أن تغلبوا على

الامبراطورية الساسانية بأكلها وعلى جميع أراضى البيزنطيين ما عدا أراضى الأناضول (تركيا حالياً) والأراضى الأوربية .

ولا شك أن هذا التوسع كان من أصعب الحكايات تصديقاً فى تاريخ البشرية فهذا التوسع لم تقم به دولة ذات تاريخ طويل ونظام محكم . لقد كان انفجاراً لقوة جديدة ذات صبغة دينية سياسية ، وشمل هذا الانفجار ما يربو على ملايين الأميال . وفتحت هذه القوة الجديدة فلسطين كلها ، وسورية ، والعراق ، ومصر فى خلال ١٨ عاماً فقط من ظهورها . لاعجب إذن أن يرتعد العالم البيزنطى والأوربى .

.. لقد رأينا أن « البيزنطيين » و « الفرس » - الذين أحاطوا بشبه الجزيرة العربية - كانوا يعانون من الضعف والاضمحلال . وفى داخل بلاد العرب نفسها أحس العرب بالرغبة فى التوسع عن طريق غزو بلاد أكثر ثراء ، والسبب فى هذا طبيعة الظروف الاجتماعية والاقتصادية آنذاك ومما ساعد على زيادة تحمس القبائل تلك الفكرة التى تؤمن بالله واحد قوى يعد المؤمنين به حسن المثوبة فى الآخرة . أضف إلى هذا أن العرب كانوا يستخدمون أسلوباً فى الحرب لم تتعود عليه الجيوش المنظمة التى كانت تقابلهم فى طريقهم .

كان العرب يعتمدون على هجمات فى سرعة البرق عن طريق الجياد والجمال الخفيفة ، خارجين من مخابئهم فى الصحراء .

أما الجيوش البيزنطية والفارسية فكانت مثقلة بالسلاح ، تعتمد على المشاة وعلى المعارك المحددة التى تشكل بطريقة تقليدية .

غير أن هناك عاملا آخر بالغ الأهمية ، وهو لا يتفق مع ذكريات الغرب التقليدية عن المحاربين من المسلمين. لقد كان رجال القبائل العرب متوحشين ومتعصبين فى المعارك التى تقع بالفعل ضد الجيوش الرسمية ، لقد كانوا فى الواقع يشنون « حربا مقدسة » .

بيد أن الاسلام كان يتسامح مع المدنيين الكفار الذين يجدهم فى البلدان التى يغزوها. ولم ينظر المسلمون إلى المسيحيين واليهود باعتبارهم «وثنيين» وانما هراطقة ، وهراطقة معتدلون ، ذلك لأنهم يجلون عدداً كبيراً من أنبيائهم العظام ، ولقد حدد محمد منذ البداية قوانين التسامح هذه وطالب من كل مجتمع غير مسلم أن يعترف بسلطان «الدولة» الاسلامية الآخذة فى النمو .

ولكنه سمح لهم بالاحتفاظ بأراضيهم، والبقاء على دينهم على شريطة أن يدفعوا جزية للدولة الاسلامية . هذه الجزية هى التى كانت تمول الدولة العربية المسلمة ، بالاضافة ـ بطبيعة الحال ـ إلى الضريبة المفروضة على المسلمين ، وأسلاب الحرب ، موجز القول أن هذا العالم العربى القديم كان يستفيد جداً من تسامحه مع العقائد المنافسة .

كان هذا هو النمط الذى ساد ذلك العالم الذى أصبح عربياً ـ سواء داخل جزيرة العرب أو فى القدس نفسها أو فى أماكن أخرى بعيدة .

وفى معظم الحالات كانت الضرائب المفروضة على غير المسلمين أخف وطأة -- لدى الشعوب المغلوبة -- من الضرائب البيزنطية أو الفارسية .

وقطع الاسلام أشواطاً كبيرة فى التوسع بفضل هذا التسامح الدقيق الذى ذاقه المدنيون المهزومون ، وبسبب سحر تلك العقيدة التى يؤمن بها السادة الجدد .

بذور التدهور

كان تاريخ هذه الامبراطورية العربية سلسلة غريبة من النمو، والحضارة المزدهرة ، والتراث الخالد -- ومع ذلك كان يتدهور فى نفس الوقت . كانت بذور المتاعب موجوده فى التربة منذ البداية .

لقد رأينا كيف أن محمداً ، لكى ينشر رسالته ، قد نظم مجتمعاً ، هو « الأمة » الاسلامية ، وجعل من نفسه رئيساً لها وحكماً فى جميع الخلافات التى تنشب فى الداخل .

وظل يعمق عقيدة الاسلام ، وفى الوقت نفسه أضفى على المجتمع طابعا سياسياً -- ويتمثل هذا فى قواعد التسامح مع غير المسلمين، والمعاهدات المعقودة مع القبائل العربية أو المجتمعات المسيحية أو اليهودية ، وتنظيمه للتمويل الآتى من الضرائب والغنائم .

وعندما أخذت الامبراطورية العربية فى الاتساع بعد وفاة النبى

عام ٦٤ ميلادية كان من الطبيعى أن تتوسع أيضاً فى وظائفها السياسية. واقتضى الأمر تعيين حكام الولايات، وكان لابد من وجود قوانين لتصريف شئون هذه الولايات، وطرق لتنظيم شئون المال، وسلطان يمتد من عاصمة الامبراطورية ليصل إلى أقصى أطرافها.

أما رؤساء الدولة بعد محمد فهم الخلفاء، وكانوا يقومون بدور «الملك» و «البابا» فى نفس الوقت (ليس هذا التشبيه مأمونا، ولكن لاغضاضة من ذكره من باب التصوير العام).

غير أن النبى محمداً لم يعين خليفته قبل وفاته. فلقد رأينا أنه لم تكن هناك «كنيسة» تقرر الخلافة، ولم يكن هناك أيضاً هيئة سياسية تعين من يخلفه فى المهام الزمنية. ولم يكن «مقدساً» فى حياته أو موته، وهكذا لم تكن هناك تلك القيود التى كان من الممكن أن تفرضها مراعاة الناس لهذه القدسية. وبمجرد وفاته أصبحت هذه «الدولة» ذات الطابع الثنائى ـ الدينى والسياسى ـ فريسة للمعارك الداخلية بين أقربائه وسلالاتهم حول مشكلة الخلافة. وهكذا كان من الطبيعى جداً أن ينتهى الخلاف حول الخلافة إلى صراع دائم بين فريقين ينحدران من محمد. فهناك من ناحية، أتباع أبى بكر والد زوجة الرسول الذى صار خليفة عقب وفاة محمد فوراً. وهناك ـ من ناحية أخرى ـ أتباع على زوج ابنة النبى (لم يكن للنبى أولاد ذكور) وعرف الفريق الأول باسم السنيين (لأنهم ينادون بأنهم أتباع «السنة» أو تعاليم الرسول) والفريق الثانى باسم الشيعة (من المتشيعين لعلى).

وربما استطعنا تقريب الصورة إلى الأذهان إذا ماذكرنا ماحدث فى المسيحية . فهناك نستطيع أن نلمح نمو كنيسة تحتضن أحياء يرعى القسس والأساقفة شئونها الدينية ، ونمو رؤساء الدول السياسيين نمواً منفصلا ، ونستطيع أن نلمح أيضاً سيطرة سلطة دينية على السلطات الأخرى . وكيف استطاع البابا الأول «ليو» أن يجعل القرارات البابوية فى قوة القانون الدنيوى ، وكيف أن الأباطرة استولوا على السلطات الدينية إلى جانب سلطاتهم السياسية ، ورأينا الصراع بين الكنيسة والدولة والعثور على حل تقدمى ، وذلك بالفصل مرة أخرى بينها ، ثم وجود هوة ضخمة تبلغ ذروتها بعد اكتمال هذا الفصل ولا يمكن المقارنة بين هذا وما حدث فى إمبراطورية العرب الاسلامية . ونظراً لعدم وجود كنيسة منفصلة ، فان الرمز الدينى والسلطة السياسية كانا يتمثلان منذ البداية فى الخليفة . وعانت هذه الدول الثنائية منذ البداية الخطر الذى يمكن أن يتعرض له الدين وتتعرض له السياسة .

من الذى سيخلف ؟

فاذا وضعنا هذه المخاطر فى أذهاننا وجدنا أن ماحدث كان مثيراً وخلابا بكل تأكيد ، فلقد خلقت الأمبراطورية العربية حضارة حية تحتضن كل شىء . وفى الوقت الذى كانت أوروبا تعانى فيه من الظلام ، كان العرب يجمعون خيوط ميراث اليونانيين والفرس وغيرهم فى ميدان العلوم والفنون . وتحت رعاية الخلفاء ازدهرت مكتبات ومعاهد ضخمة

للعلوم فى عواصم بعيدة متألقة كقرطبة بأسبانيا . وبغداد بالعراق ، وتم الاحتفاظ بمخطوطات يونانية لاتقدر بثمن، وترجمت هذه المخطوطات وتمت دراستها والتعليق عليها . وهكذا ، عندما وصلت دوافع النهضة الثقافية إلى أوروبا المسيحية ، استطاع علماء الغرب الاعتماد على نصوص العرب فى الفلسفة ، والسياسة ، والجغرافيا ، والطبيعة ، وعلم الأحياء ، والطب ، — وغيرها من النصوص ، ووسط هذا التراث الحى للعرب، أمكن إنقاذ فكر أرسطو ، وإيصاله إلى دارسى الغرب الاول . وحتى لو اقتصر دور العرب الأول على نقل التراث ، فان هـذا كفيل بأن يضعهم فى التاريخ الحديث . غير أنهم لم يقتصروا على النقل ، وعلى مجرد « تخزين » علوم الماضى وإنما أخذوا يجمعون ، ويمزجون ، ويعلقون .

وفى نفس الفترة القصيرة نسبياً (٤٠٠ عام) نبت تراثان دائمان فى المنطقة التى نعرفها الآن بالعالم العربى: تراث التعريب، وتراث الدخول فى الديانة الاسلامية . ونستطيع أن نتتبع هذين الأسلوبين عبر المراحل الكبرى المختلفة التى مرت بها الامبراطورية . فالمرحلة الأولى من التوسع الممتد من الجزيرة العربية قذف بحفنة من العرب إلى أراض جديدة . وكانوا إذا ماهزموا سكانها أقاموا سلسلة من المدن التى تشبة القلاع ، وهناك يعيش قوادهم وحامياتهم ، ومن هذه المدن يحكمون . ويعيش السكان مثلما كانوا يعيشون من قبل ، فالعرب يحققون لكل طائفة دينية استقلالها الذاتى ويسمحون لهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم إلى حد كبير . وهكذا كان الفاتحون العرب ، فى هذه المرحلة الأولى ، بمثابة

أرستقراطية عسكرية — أرستقراطية تكتفى نفسها بنفسها وتحتفظ بتقاليدها العربية وعاداتها الاسلامية الجديدة . والواقع أنها كانت عبارة عن أقلية تعيش وسط « المهزومين » .

ولكن لم يمض وقت طويل إلا وحدث تغير لابد منه . فالمدن المحضة فى حاجة إلى عمال ، وموردى طعام ، وحفارى خشب ، وجالبي ماء وهكذا استقر الرعايا حول الفاتحين ، وازدادت صلتهم بالعرب ؛ وبلغتهم وطرقهم ، ودياناتهم . وبالرغم من أن الجزية المفروضة على غير المسلمين لم تكن شاقة فى غالب الأحيان إلا أنها شجعت على الدخول فى الإسلام ، خاصة وأن الدين الجديد لايختلف كثيراً عن اليهودية والنصرانية . أضف إلى هذا أن الاسلام دين عربى ، فكتابه مدون باللغة العربية ، وكذلك خطبه ، وروحه . كما أن الامبراطورية يحكمها حكام يتحدثون ويكتبون اللغة العربية . ولم يكن هناك مفر من أن يستخدم المسئولون المتصلين بهم والعاملين معهم هذا اللسان الجديد . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن المعارف القانونية والفكريه والعلمية الامبراطورية العربية كانت مدونة — إلى حد كبير — باللغة العربية .

ونتيجة لهذا انتشر فى معظم أنحاء الامبراطورية مجتمع جديد حقا ، وثقافة جديدة حقاً ، كانت أداتها اللغة العربية والدين الاسلامى بصورة دائمة ، وانصهرت الارستقراطية العربية المميزة فى هذا المجتمع عن طريق التزاوج ، والدخول فى الاسلام واستخدام كافة السكان اللغة العربيه . لقد كان تطوراً ملفتاً للنظر ، خاصة إذا علمنا أن العرب لم يجبروا السكان على

الدخول فى الاسلام « بالسيف » ، وان الطليعة التى انبثقت خارجة من شبه الجزيرة العربية تتألف غالبيتها من محاربين « جهلاء » غير مدربين ، وإنهم كانوا فى كل مكان فتحوه تقريباً عبارة عن أقلية . لقد فتحوا مصر عام ٦٤٠ ميلادية . وعندما حل القرن العاشر كان القساوسة الأقباط فى مصر مازالوا يمارسون دينهم الخاص بهم ، غير أنهم كانوا يستخدمون فى ذلك اللغة العربية بدلا من لغتهم القديمة . وتعدى دين العرب الاسلام هذا النطاق اللغوى بمراحل ، فوصل إلى أندونيسيا وأفريقية ، وشمال الهند ، وايران (التى بقيت لغتها) .

ومع ذلك ، فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية العربية ترسى دعائم هذين التراثين : التعريب ، والدخول فى الاسلام ، كانت تعانى من التدهور البطىء لقد استمر الخلاف الذى بدأ حول المشكلة الأساسية: من الذى يخلف محمداً ؟ غير أن رقعته اتسعت بصورة هائلة بعد أن اعتنقت الملايين هذه العقيدة أو تلك . وأصبحت الحياة فى بلاط الخليفة مفعمة بالترف ، وتدهورت الأحوال المالية لسوء التدبير، وكانت النتيجة ظهور طائفة ضخمة من المسلمين العمال فى كل اقليم، وكانوا ساخطين على الأوضاع الاقتصادية مما جعلهم عرضة للتطرف . وفى نفس الوقت كانت خطوط المواصلات متباعدة (كما هو الحال فى معظم الامبراطوريات القديمة). وهكذا بدأ الحكام المحليون والزعماء الدينيون يبسطون نفوذهم الخاص ويتزعمون ثورات انشقاق . أضف إلى هذا أن التطور السياسى والقانونى والتجارى للامبراطورية تطلب وجود وزراء مركزيين .. وهكذا ظهرت

وظيفة وزير الخليفة .. ومن المفروض أن هذا الوزير يطيع الخليفة غير أنه أخذ يبسط مزيداً من النفوذ من وراء ستار . وعندما تدهورت الارستقراطية العسكرية القديمة ، المؤلفة من العرب الفاتحين ، بدأ الحكام يفكرون فى استخدام الجنود المرتزقة ، معتقدين أن هذا يخدم أغراضهم ، وهكذا التفت خلفاء بغداد إلى الترك ، شعب أواسط آسيا ، ولم يمض وقت طويل إلا وظهرت طبقة جديدة من الأتراك تسمى بالمماليك. وعندما ازدادت الامبراطورية رخاوة بدأ هؤلاء الجنود المرتزقة يمسكون بزمام السلطة لأنفسهم .

هذه اذن بعض عوامل التحلل والتدهور الداخلى التى أصابت العالم العربى قديما . كذلك احتكت به قوى خارجية وساعدت على اخضاعه وانهياره ونستطيع ، بصفة عامة ، الاشارة إلى ثلاث غزوات وهجمتين تعرض لها العالم العربى المسلم ، ففى عام ١٠٣٧ تحركت إلى فارس ، ثم إلى العراق قبائل كاملة من أتراك أواسط آسيا تقودها أسرة السلاجقة ، وسارت فى الطريق الذى قطعه الأتراك الأول الذين استوردهم العالم العربى ، فى مجموعات صغيرة ، فى صورة جنود مرتزقة ، وعندما عبر الترك بلاد الفرس اعتنقوا الدين الإسلامى ، ثم اكتسحوا ما فى طريقهم متجهين إلى بغداد ، ثم انتشروا غرباً إلى سوريه ، وأهم من هذا كله أنهم وصلوا إلى الأناضول (تركيا) . وفى الوقت الذى حدث فيه هذا الغزو من أقصى الشرق ، وقعت هجمتان هامتان من الجنوب . ففى جنوب مصر كانت الأسرة المعاصرة تفقد سيطرتها ، فاندفعت إلى شمالى افريقية قبيلتان كبيرتان من قبائل البدو العرب ، وحطموا وسلبوا على طول

الساحل حتى وصلوا إلى تونس . ومن أقصى الغرب جاءت قبيلة بربرية قادمة من الجنوب متجهة إلى مراكش والجزائر تقريباً .

وسرعان ما أعقب هذه الأحداث أول حملة صليبية من أوروبا المسيحية ، وذلك فى عام ١٠٩٦ . ولم يكن الباعث وراء الرحلات المسيحية المسلحة إلى الشرق الأوسط أكثر « نقاء من الباعث الذى جعل العرب يخرجون من شبه الجزيرة العربية ويفتحون البلاد الأخرى لقد سيطرت عليهم حماسة الرسالة ، والرغبة الجامحة فى تخليص القدس من أيدى المتعصبين . وكانت هناك روح المغامرة والقتال (مثلما كانت بين صفوف البدو المحاربين القادمين من الجزيرة العربية) . وكان هناك ضغط سكانى معين ، مثلما كان فى الجزيرة العربية . وكان النظام الأوربى يجعل حق التوريث لابن النبيل البكر ، ولذلك بات الابن الثانى والثالث لكثير من النبلاء بدون ضمان المستقبل . وكانت التربة الفرنسية تتدهور بالتدريج نتيجة لنظام الزراعة القائم على الضياع . وكما كان محاربو الرسول يحلمون بمغانم الارض فى صورة أسلاب وثروات فى البلاد المفتوحة ، وكان الصليبيون يعتقدون أن القدس « جنة العالم وهى أكثر اثماراً من أى بلد آخر ، انها نعيم آخر من المسرات » . « خطاب البابا أربان الثانى للصليبيين الأول فى كليرمونت) .

استمرت الحملات الصليبية المتلاحقة من عام ١٠٩٦ حتى عام ١٤٥٣ ولكن حدث فى عام ١٢٠٦ أن اكتسح العالم العربى غزو شرقى أشد هولا — ممثلا فى مغول جنكيز خان القادمين من امبراطورية أواسط آسيا . ومنذ سبعمائة عام على وجه التحديد (عام ١٢٥٨) انتهكوا حرمة بغداد وخربوها . وفى عام ١٤٠٠ اكتسحوا سورية ودمروا

دمشق وغيرها من بلاد الشرق ، وقضوا على كل مظهر من مظاهر الحياة المنظمة ، بما فى ذلك الزراعة بالعراق وسورية . وحال مماليك مصر دون تقدمهم . غير أن المماليك أنفسهم كانوا يعانون من التدهور ، سواء عن طريق الضرائب الباهظة — من الناس أنفسهم ومن التجارة مع البندقية — أو تدهور الدول نتيجة للترف والفساد .

وشيئاً فشيئاً ، خضعت البقية الباقية من هذه الامبراطورية العربية (التى عاشت ولكن فى ازدهار) خضعت لعوامل الضعف الداخلى ، وللهجمات الخارجية ، وفى القرن الرابع عشر ، شرع الأتراك فى غزو أوروبا . وكانوا ينحدرون من الأتراك السلاجقة وبالرغم من أنهم ضاعوا وسط العالم المستعرب ، إلا أنهم بقوا كطائفة كبيرة تعيش فى الأناضول وفى عام ١٢٨٨ شرعت أسرة تعرف بأسرة العثمانيين فى التوسع من هذه القاعدة الصغيرة وفى عام ١٤٥٣ استولى هؤلاء الأتراك العثمانيون على القسطنطينية وظلوا يتغلغلون إلى جنوبى شرقى أوروبا فى المائتى عام التالية .

وفى مطلع القرن السادس عشر ، وجه العثمانيون طاقاتهم جنوباً . تجاه المسرح العربى المتداعى . وفى عام ١٥١٢ استولوا على حطام دمشق وفى عام ١٥١٧ كانت مصر — مفتاح العالم العربى فى حوزتهم وامتد سلطانهم إلى معظم ساحل البحر المتوسط الجنوبى ، وإلى سورية بأكملها والعراق ، والجزيرة العربية (اسمياً) ثم اتجهوا مرة أخرى شمالا . ووصلوا إلى أبواب فيينا عام ١٦٨٣ ، ليواجهوا بعد ذلك دفاعاً من جانب

الأوروبيين المذعورين . غير أنهم كانوا سادة فى العالم العربى . والعرب يؤرخون نهاية عهدهم الأول بعام ١٥١٧ ، حين سقطت مصر فى أيدى الغزاة ، وظلت الامبراطورية العثمانية تحكمها ثلاثة قرون متتالية دون أن ينازعها أحد فى ذلك. كان حكمهم راكدا جامداً . كانوا مسلمين، ولكن كانت تعوزهم القدرة على تحريك هذه الديانة لتتغير وتتطور . وكانوا أتراكا ، غير أنهم لم يؤثروا بصورة تذكر على تراث العروبة .

وهكذا ، بينما كانوا أسرى نومهم كان العرب يحتفظون بلغتهم ، سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهودا . واحتوت هذه اللغة العربية على طاقة تحقق وحدة جديدة ، وعلى الوسيلة التى تستطيع الأجيال القادمة عن طريقها بعث أجدادها الذين عاشوا فى « العصر الذهبى » الأول ، لقد فقدت اللغة شيئاً من حيويتها ، غير أنها ظلت لغة عالمية ، تحقق الدوام والاستمرار للتراث العربى ، ولا تحتاج إلا لدوافع جديدة تعيد اليها سابق مجدها .

والآن وقد أشرنا إلى هذا التراث العربى المشترك ، نجد مع ذلك أن هـــذا الدور الذى قام به هام جداً . ونحن حين نعود إلى الوراء نتساهل ونستخدم كلمة « عرب » لنصف بها هذه الشعوب التى تعلمت اللغة العربية ودخلت الدين الاسلامى . غير أن هـــذه الشعوب نفسها لاتفعل ذلك . « فالعرب » عندهم معناها البدو ، والقبائل الرحل التى تجوب الصحراء . لم يكن هناك احساس بوجود أمة ، ولم يكن هناك شعور بالوحدة القومية فى هذه القرون الأولى . كان الرجل منهم ينتمى

إلى دمشق ، أو إحدى مدن مصر العليا ، وكان مسلماً أو مسيحياً ، وكان فرداً فى أسرة لها مئات بل آلاف الأقارب . ولم يكن يعرف شيئاً غير هذا سوى أن جيرانه الأقربين يتكلمون نفس اللغة التى يتكلمها . لم يكن الناس يسافرون بعيداً — فهذا وقف على البدو وقوافل التجارة . بل ان عامل اللغة المشتركة — لم يزودهم بإحساس واع بالوحدة .

ويبدو أن عوامل اللغة المشتركة هذه ، والعادات الواحدة ، والنظرة المتشابهة إلى الحياة كانت فى سبات عميق طوال القرون التى سيطر فيها العثمانيون ، كانت مسيحية الغرب تطور آراءها وهيئاتها . وترتفع برخائها الهائل الذى يعتمد على امبراطوريات الأرض ، كما نهضت بعلومها وفنونها إن ماحدث فى الغرب مبعثه ، إلى حد كبير ، وجود الاسلام . مثال هذا أن رغبة البرتغاليين فى الكشف والنهوض بالتجارة فى الشرق مبعثها إلى حد مارغبة البرتغاليين فى تطويق المسلمين — فهم يريدون قطع روابطه التجارية فى الشرق عن طريق الخليج العربى والبحر الأحمر ، وتثبيت أقدامهم فى آسيا، ليهاجموا العالم المسلم من هناك، من المؤخرة . سيطرت هذه الرغبة على عقل الأمير هنرى الملاح — كما سيطرت على البابا الذى بارك مشروعاته . وفى هذه النقطة ، وفى نقاط كثيرة غيرها ، نستطيع أن نقول : إن تيار المدنية الغربية ارتبط إلى حد كبير بظهور العرب . منذ القرن السابع الميلادى .

وبينما كانت سياسة القوة والتناحر من أجل الامبراطوريات تسيطر

على أوربا ، ظهرت معها ، جنباً إلى جنب ، فكرة الأمة ، والدولة التى هى عبارة عن أمة ؛ و « الشعب » الذى يتمتع بطابع خاص . هذه الفكرة ، بالاضافة إلى المفهوم الغربى للتقدم ، وتكنولوجيا الغرب ، هى التى أخصبت تراث الامبراطورية العربية . . وهذا المزج بين قوتين، إحداهما عربية والاخرى غربية ، إنما بدأ فى القرن السابع عشر عند ما وجهت دول أوروبا نظرها إلى حوض البحر المتوسط والطريق المفضى إلى الهند .

ونستطيع أن نقول : إن هذه « اليقظة العربية » بدأت فى ــ مصر ــ فى ذلك اليوم من عام ١٧٨٩ ؛ الذى نزل فيه نابليون بونابرت على البر المصرى .



الفصل الثالث

اليقظـــة العربية

فى عام ١٧٩٨ هبط نابليون مصر ، وكانت تعليماته تقضى بتدعيم مصر وتقويتها ، وربط أواصر الصداقة بينها وبين فرنسا ، وحفر قناة عبر برزخ السويس إلى البحر الأحمر ، وانتهاز كافة الفرص لحرمان البريطانيين من ممتلكاتهم فى أقصى الشرق .

كانت هذه أول مرة ينزل فيها جيش فى العالم العربى منذ الحروب الصليبية ، ولم يكن المصريون قد نسوا بعد ذكرى تلك الأيام . فما زال الجزء الأكبر من الاسكندرية حطاماً بعد أن دمره الصليبيون منذ ستمائة عام . وخلق وصول نابليون مقاومة عنيفة ، غير أن مصر كانت ضعيفة منهارة بعد القرون الطوال التى خضعت فيها للحكم العثمانى ، وسرعان ما سحقت القوات الفرنسية المقاومة المصرية .

وفى ظرف أعوام قلائل أجبر نابليون على الانسحاب ، غير أنه خلف وراءه تياراً من القلق ، والسعى وراء قوة جديدة أثارها الحكم الفرنسى القصير الأجل ، فى عام ١٨٠٥ ناشد السادة الدينيون والمدنيون فى مصر أحد الجنود التجار الألبان أن يتسلم زمام الأمور ويضع حداً للفوضى التى تعيش فيها البلاد ، وكان اسمه محمد على ولم يكن مصرياً ، بل لم يكن يستطيع أن يتكلم العربية . لقد قدم إلى مصر بوصفه مجنداً فى

جيش السلطان العثمانى ، غير أن صور التقدم الأوروبى حركته وأثارته ، أضف إلى هذا أنه كان طموحا للغاية . وقبل محمدعلى النداء الذى وجه إليه، وبدأ عهداً قيض له أن يغير مجرى حياه مصر .

وشرع أولا فى تصفية وحشية للبقية الباقية من الحكام المماليك ، وبعدها وضع أطار الدولة الحديثة ، واستولى على الأرض ، وعلى جميع وسائل التوزيع ، فى صورة « اشتراكية الدولة» واستقدم القطن الطويل التيلة ، ذلك المحصول الذى صارت له أهمية بالغه فى اقتصاديات مصر فى المستقبل . وأوفد المصريين ليدرسوا الموضوعات الفنية فى الكليات الاوربية ، وأنشأ مطبعة بالقاهرة ، واستخدم الخبراء والمستشارين الفرنسيين ليمهدوا الطرق ، ويقيموامشروعات الرى ،والقناطر،والمصانع، والمستشفيات ، وليخلقوا جيشاً واسطولا جديداً قوياً . وما أن جاء عام١٨٢٢ حتى كان فى مقدور محمد على ارسال القوات المصرية إلى اليونان لمساعدة السلطان العثمانى فى قمع الثورة اليونانية . وفى عام١٨٣٢ كان يتحدى بطموحه حكم السلطان فى سورية ، وكان أن غزاها بجيوش قادها ابنه، ومضى عام واعترف السلطان بمحمد على واليا على سورية .

واستلفتت هذه النهضة المصرية السريعة أنظار الدول الأوربية وظلت الحكومات الفرنسية تبارك هذا الاتجاه، ولم تكن فى هذا تعادى السلطان العثمانى الذى ظل الحاكم الاسمى لمصر ، وانما كانت تعادى أية سيطرة بريطانية على طول النيل . أما الساسة البريطانيون فتطلعوا فى دهشه إلى ما يفعل محمد على ، لقد كانوا يعتبرون الامبراطورية العثمانية أكبر ضمان

ضد أى تقدم روسى فى حوض البحر المتوسط ، أو تجاه الهند عبر الخليج العربى . وهكذا اعتبروا أية قوة تضعف من سيادة السلطان ظاهرة خطيرة . كما أن الحاكم المستقل الذى يحكم مصر وسورية قد يرحب بتأييد دولة أخرى ـ خاصة فرنسا ـ ومما حدا بالبريطانيين إلى زيادة تعضيد الباب العالى فى القسطنطينية أن تجارتهم أخذت تتضاعف فى الشرق الأوسط ، سواء عبر حوض البحر المتوسط ، أو من الهند حتى الخليج العربى والبحر الأحمر .

وهكذا أصبحت مصر تحتل مكاناً دائماً على خريطة الصراع بين دول أوروبا ، وظل مصيرها يتشكل باستمرار نتيجة لهذه القوى الخارجية حتى على استمرار النهضة الحديثة على يد أبناء محمد على وأحفاده . ولقد حدث أول رد فعل كبير لسياسة القوة فى عام ١٨٣٨ ، فى سورية ، عندما طلب محمد على من الامبراطورية العثمانية منح الاستقلال الاقتصادى لامبراطوريته الصغيرة .

وكانت بريطانيا ، فى هذه اللحظة تطالب ببعض الامتيازات الجمركية لتجارتها فى الامبراطورية العثمانية . وثار تجارها مطالبين باتخاذ اجراء ضد محمد على وصاحب هذا احساس ساسة بريطانيا بالقلق لمركزه الجديد فى آسيا الصغرى . وهكذا استطاعت بريطانيا أن تطرد محمد على من سورية وتضمن حبسه مرة أخرى فى مصر ، مستخدمة فى ذلك سد الطرق البحرية ، والضغط الدبلوماسى على القسطنطينية ، والضرب بالقنابل وانزال القوات فى النهاية .

وأعقب هذا تطور تاريخى جديد . لقد أخذ حكام مصر يقطعون أشواطاً كبيرة فى طريق التمدن ، ومن ثم احتاجوا إلى رأس مال أجنبى . وفى عام ١٨٦٢ طلب سعيد المتلاف ، حفيد محمد على أول قرض أجنبى ، وكانت أوروبا على استعداد للمغامرة بأموالها . غير أنها فرضت اقتطاعات وفوائد هائلة . وكلما مضى عام أخذت مصر تموج بالممولين الأجانب ، وبصغار المضاربين الذين وان كانوا صغاراً الا أنهم غاية فى الدهاء . وعندما نجحت الحــــرب الأهلية الأمريكية فى وقف تدفق القطن من الجنوب إلى لانكشاير . أصبحت صادرات مصر من القطن تتمتع بالازدهار . وانغمست النخبة من حكامها فى موجة جديدة من التوسع . غير أن الازدهار كان قصير الاجل . وكان على مصر أن تستدين المزيد لتسد تكاليف منشآتها العامة الجديدة . وازدادت مصر اقترابا من هوة الافلاس . وتعالت صيحات الدائنين والتجار فى أوربا مطالبين الدول الكبرى باتخاذ اجراءات تضمن دفع الفوائد . . وحماية استثماراتهم .

ولكن حدث فى عام ١٨٦٩ أن ظهر عامل جديد ركز الأنظار على مصر : فلقد افتتحت الامبراطورة ايوجين رسمياً قناة السويس ، وصممت بريطانيا على بسط نفوذها الفعال على هذا الطريق الجديد الحساس المفضى إلى الهند . ولاحت الفرصة ممثلة فى وقوف مصر موقف المدين . وفى عام ١٨٧٥ ضرب دزرائيلى ضربته المالية الخاطفة ، وكان الخديو اسماعيل فى حالة يرثى لها . وكان فى حاجة إلى المال فوراً على الأقل ليسدد

الجزء المطلوب توا من قرضه الاجنبي . وحقق دزرائيلي لبريطانيا ٤٤٪ من السيطرة على شركة القنال مقابل ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيها استرلينيا .

وفى الوقت الذى اشتدت فيه أزمة مصر المالية . ارتفع سخط الشعب لا على الاستغلال الأجنبي فحسب . وإنما على العصبة الحاكمة التى فتحت أبواب مصر للربا . وفى عام ١٨٨١ قاد ضابط فى الجيش المصرى يدعى عرابى ثورتين ضد الحكومة وضد المسيطرين عليها من الأجانب ، وفى بريطانيا تعالت ضده صيحات التجار والبنوك، تدعمها نشوة الاستعمار الجديد وردد جلادستون أنه ليس حريصاً على ضم مصر إذ كان يخشى أن تؤدى هذه الحركة إلى « فقس بيضة امبراطورية افريقية الشمالية » . غير أن الشغب الذى حدث بالاسكندرية عام ١٨٨٢ والذى فقد فيه بعض الاوربيين أرواحهم اضطره إلى اتخاذ اجراءات ايجابية . وغادرت قوة بريطانية سفنها فى قناة السويس وفاجأت جيش عرابى ليلا وسحقته فى التل الكبير . . ونفى أول زعيم شعبي وطنى لمصر فى عصرها الحديث ، وأعلنت بريطانيا أمام الدول الكبرى أنها ستحتل مصر إلى أن يستعاد سلطان الخليفة والامبراطورية العثمانية .

ومع ذلك مضى أربعة وسبعون عاما قبل أن يخرج آخر جندى بريطانى من مصر . لماذا ؟ هناك اجابة عامة مؤداها أن مصر قد احتلت فى نفس الفترة ـ من تاريخ القرن التاسع عشر ـ التى أصبح فيها الاستعمار الاوربى حقيقة مؤكدة . كانت هناك دوافع كثيرة وراء هذا الاستعمار . فهناك الحضارة الفخورة الواثقة بنفسها إلى أقصى حـــد والتى تتوق

إلى « تمدين البربرى » وتعتبر ذلك مسئولية تقع على عاتق الرجل الابيض. وكان هناك ايضاً ذلك الانقلاب الصناعى الهم الذى يتوق إلى أسواق جديدة وراء البحار وإلى مصادر للمواد الخام. وكان هناك عالم البنوك الحى الذى يريد استثمار أمواله فى مضاربات جديدة تعود عليه بالنفع. وكانت هناك المنافسة التى تثيرها هذه الاحتياجات . . وظهر أيضاً مفهوم للسلطة القومية أو الاستعمارية التى يعتبر فيها امتلاك المناطق الجديدة هدفا فى حد ذاته مؤديا إلى صراع من أجل الاستحواذ على أكبر جزء من افريقية . هذه الدوافع مجتمعة قد خلقت بدورها خريطة استراتيجية جديدة لسياسة القوة .. وصارت مصر محورا فى هذه الخريطة لا لأنها تفضى إلى الهند والشرق فحسب ، وإنما لانها أيضاً جزء من افريقية .

وسرعان ما أصاب البريطانيين المقيمين بمصر ما يمكن تسميته بحق «سيكلوجية النيل» ، فهناك خوف دائم من أن يسيطر أحد على الضفاف العليا للنهر فيجوع الشعب الذى لا ينزل فى أرضه المطر ، وبذلك يستسلم ويخضع ، ومنذ فجر المدنية كان نهر النيل الدماء التى تسير فى كيان مصر فتبعث فيه الحياة ، وكان مجرى الأحداث فى القرن التاسع عشر يعكس إدراك حكامها لهذه النقطة ، وخضوعهم للسحر الذى لا يقاوم ، القادم من الجنوب .

وفى أوائل القرن كان محمد على قد أعاد غزو السودان ، وهى أهم منطقة فى أعالى النيل ، وأوفد خلفاؤه من بعده حكاما بريطانيين وأجانب إلى هذه المنطقة حتى قبل أن يتم احتلال مصر وفى عام ١٨٨١ انفجرت ثورة وبعدها بعامين تم سحق قوة بريطانية وطردها من هناك : لقد ذهب

الجنرال جوردون إلى أعالى النيل لإجلاء المنطقة ، غير أنه عمد ـ بدلا من ذلك ـ إلى تهدئة القبائل المتمردة ، وكان نصيبه الذبح هو ورجاله فى الخرطوم ، واستولت على بريطانيا موجة من الغضب العارم والرغبة فى الانتقام ، غير أنها لم تقدم على إجراء حاسم لعشر سنوات تالية ، وفى خلال هـذه السنوات العشر استمر تقسيم القارة الإفريقية بين الدول الكبرى . وفى عام ١٨٩٨ ذهب كتشنر إلى أعالى النيل ليغزو السودان . ولكنه لم يصل إلا فى آخر لحظة ، لقد كانت البعثات الاستعمارية القادمة من بلجيكا وإيطاليا وفرنسا إلى قلب القارة تقترب وتقترب من منابع النيل وتطالب بحقوقها هناك . وعثر كتشنر على بعثة فرنسية معسكرة على ضفاف النيل عند فاشودة ، وأعقب ذلك أزمة انجلوفرنسية ، وتعتبر هذه الأزمة من أخطر الأزمات التى حدثت لعشرات من السنين وكسبت بريطانيا الجولة ، وأصبح السودان أرضا انجلو مصرية . لقد أفرخت بيضة جلادستون — بيضة إمبراطورية شمال افريقية — أفرخت عن إنتاج جيد ، وأثبتت صدق الرجل

وقد نستطيع عند هـذه النقطة رسم صورة « لرجوع » الغرب إلى العالم المستعرب فى القرن التاسع عشر . وعندما نتطلع إلى ما حدث على ضوء النظرة التاريخية العريضة نجد أن رجوع الغرب كان عبارة عن انتهاك على نطاق هائل ، كما كان يمثل كافة عناصر المدنية الأوروبية : الاستراتيجية الاستعمارية وسياسة القوة ، نشر الحضارة ، التجارة والبنوك ، نظرية أسلوب الحكم الحديث ، مهارات الغرب العلمية والصناعية . والتقى هذا

كله فى تلك المنطقة الضخمة التى ظلت لا تحرك ساكنا عدة قرون . وإذا نظرنا إلى خريطة العالم المستعرب وجدنا أن مراكش أصبحت محمية فرنسية عام ١٩١٢ ، وأن الجزائر خضعت للسيطرة الفرنسية عام ١٨٣٠ وان تونس انزلقت وخضعت للسيطرة الفرنسية — عن طريق الربا كما حدث فى مصر — وذلك فى عام ١٨٨١ ، وما نطلق عليه اليوم لفظة ليبيا ، اغتصبته إيطاليا عام ١٩١١ من الامبراطورية العثمانية أما مصر فأصبحت أرضا بريطانية منذ عام ١٨٨٢ وتعرض السودان لنفس المصير منذ عام ١٨٩٨ .

وظلت شبه جزيرة العرب بمعزل عن هذا الانتهاك الغربى إلى حد كبير ، وكانت بريطانيا تسيطر على عدن وعلى طائفة من المحميات المحيطة بهذا الميناء الحيوى ، وعلى طول الساحل ، فى أقصى الشرق وفى الخليج العربى كانت تسيطر — بصورة فعالة — على سلسلة من الامارات عن طريق معاهدات تعقدها مع حكام هذه الامارات . وظل اليمن مستقلا يعيش فى الماضى البعيد جداً . وفى قاب المربع الكبير الذى شهد مولد المدنية العربية دارت معركة بين قبيلتين من أجل بسط النفوذ . وفى النهاية انتصرت طائفة الوهابيين المتعنتة المتعصبة ، بقيادة عبد العزيز بن سعود ، وفى عام ١٩٢٦ تم أعلان قيام المملكة العربية السعودية المتحدة وتضمن ذلك السيطرة على مدن الإسلام المقدسة : مكة والمدينة .

وقبل الحرب العالمية الأولى كانت الجزيرة العربيـــة خاضعة للامبراطورية العثمانية ولكن بالرغم من أن الاتراك نادرا ما حاولوا

بسط سلطان مباشر على قلب شبه الجزيرة العنيد ، إلا أنهم ظلوا يبسطون نفوذا كبيراً على باقى الشرق العربى ، وكان يحتضن ما يعرف اليوم بالأردن ، وإسرائيل ، ولبنان ، وسورية ، والعراق .

وعندما اضطر محمد على إلى الانسحاب من سورية عام ١٨٤٠ . ظلت هذه المنطقة بأكملها تابعة للعثمانيين ، ولم يكن تأثير الغرب فى هذه المنطقة مباشراً ، كما هو الحال فى مصر ، ومع ذلك كانت له دلالته البالغة فلقد أخذت التجارة البريطانية فى التوسع المستمر . وتمت سلسلة من الاصلاحات فى ميدان السياسة والحكم وسرت إلى السلطان العثمانى الجالس فى القسطنطينية عدوى الرغبة فى التحضر إلا أنه كان يرى التحضر فى البداية فى القوة العسكرية ، غير أن بريطانيا وفرنسا ظلتا تلحان على السلاطين أن يقوموا ببعض الاصلاحات ، ذلك لأنهما خافتا أن تستغل روسيا ضعف الاتراك ، وأسلوبهم فى القمع والوحشية . وتتخذ من هذا كله ذريعة للحرب والغزو ، كما خضعت السلطنة للضغط من مصدرين آخرين : الأحرار والتجار الاتراك ، ورجال البنوك الأوروبية الذين يتوقون إلى تثبيت أقدامهم فى هذه الأقاليم الشاسعة . وبعد عام ١٨٧٠ أضيف إلى هذا كله ضغط قادم من ألمانيا الجديدة التى كانت تنادى بـ Drag nach Osten أى الاتجاه شرقا .

وكانت النتيجة أن حقق الشرق العربى بعض التقدم فى الفترة ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ . غير أنه لم يكن فى سرعة التحول الذى مرت به مصر (وهو تحول لم يمحه أفلاسها ، بالرغم من سوء حال الشعب نتيجة لهذا الافلاس)

ومع ذلك كان التقدم كافيا لـكى يفتح أبواب الشرق العربى أمام تيار الأفـكار الجديدة القادمة من الغرب ، وعلينا أن نتجه الآن إلى حقل الأفـكار فى هذا الاستعراض السريع لليقظة العربية .

إن كل ما قلناه آنفاً عبارة عن لمحة عابرة عن يمكن أن نسميه «بوسائل» التمدين التى أخذت تعمل عملها فى العالم العربى فى القرن التاسع عشر ـ فقد أشرنا إلى هيكل الحـكم الحديث ، والتجديدات الأولى فى ميدان الزراعة والصناعة القائمتين على العلم، وأشرنا إلى التعليم العام والطب ، وغير ذلك ولـكن ، ماقولنا فى الفلسفة السياسية ؟ لقد التهب محمد على حماسة أمام الجانب السطحى ، الوظيفى ، للمجتمع الغربى ، كان متحمسا له لذاته ، ولـكى يشبع طموحه . اصطنع دولة حديثة فى مصر ، غير أنها دولة بلا أمة ، فهو لم يـكن مصريا ، ولم يـكن يتـكلم العربية ، ولم يـكن يهتم بالشعب الذى يحـكمه بوصفه شعباً . وخلق طبقة جديدة حاكمة ، غير أنها لم تـكن أقرب من سابقتها إلى جموع الشعب المصرى ، ولم تـكن تمثل هذه الجموع وتعبر عنها . وعلى هذا النسق العام سيطر الأتراك العثمانيون على الشرق العربى ، غير أنهم لم يحـكموه بالمعنى العلمى لـكلمة الحـكم باستثناء حاكم أو اثنين من حكام الاصلاح الموهوبين ـ قام الأتراك بعدة اصلاحات تجريبية ، ولـكن ندر أن فعلوا ذلك من أجل رفاهية العرب .

ومع ذلك ما أن شرع الحـكام فى ايفاد الطلاب إلى أوروبا وتثقيف ولو جزء صغير من السكان، وطبع النصوص الغربية التى تتناول حضارة

بديناميكية حية ، وتياراً من الأفكار السياسية التى تقف وراءها ما. إن حدث ذلك حتى أثرت هذه الأفكار فى مصر وفى الشرق العربى .

وفى سورية بدأت هذه الخطوات فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر . خلال حكم ابراهيم العابر ، وقد كان ابراهيم تواقاً إلى بعث العالم العربى كما كان هو ووالده يتسامحان مع الارساليات المسيحية ، ولذا شجعها على القدوم إلى بيروت ودمشق وغيرهما من المدن السورية . وكانت هناك طائفتان كبيرتان : اليسوعيون الفرنسيون والبروتستانت الأمريكيون وكان اليسوعيون يميلون إلى التبشير بلغتهم الخاصة بهم ، ولقد كان لهذا الاتجاه فائدته العظمى ، خاصة وأن مدارسهم أخذت تنمو .

غير أن رسالة الأمريكيين كانت أكثر بروزاً ، ذلك لأنهم كانوا يعلمون ، ويعظون . بالعربية . واستحضروا من مالطة مطبعة عربية . وكانت الأوضاع السورية - فى عام ١٨٣٠ - متأخرة إلى حد أنه لم يكن هناك مطبعة ، أو مكتبة فى المنطقة كلها ، وشرعوا فى ترجمة كتب الغرب الدراسية وغيرها من النصوص إلى اللغة العربية ، وذلك لاستخدامها فى مدارسهم . وأهم من هذا كله، أن هذه الارساليات الأمريكية الموهوبة شجعت طلابها العرب على دراسة تراثهم العربى الخاص بهم .

وفى مدارس الغرب هذه امتزج تراث العالم العربى القديم (ذلك التراث الذى طال عليه النعاس) بأيديولوجية الغرب الجديدة التى تحمل معها بذور الخصب والنماء .. وبدأ الشباب العربى ، المسلم والمسيحى ينقب

عن ماضيه ويدرسه ورؤى المستقبل أمامه، تلك الرؤى التي أثارتها أوروبا وأمريكا ، لقد مرت قرون عديدة واللغة العربية جامدة هامدة والعرب قد أهملوا الروح العلمية المماثلة فى النصوص القديمة وفى اللغة العربية المكتوبة ، ولو كان الاسلام مزدهراً ساعتها لما حدث - على الأرجح - ماحدث . غير أن الاسلام نفسه عاصر الأفول والجمود ، إذا استطعنا اذن أن نصور لأنفسنا طالباً عربيا فتياً يتعلم - فى بيروت وفى عام ١٨٥٠ - كيف يقرأ روائع النصوص العربية القديمة التى عثر عليها مدفونة فى الاديرة القديمة ، وكيف يدرس قصة الثورتين الفرنسية والأمريكية ، ويتأمل مليا أفكار ديكارت وبيرك وعلماء أوربا ورجال المنطق فيها . . إذا استطعنا أن نشكل هذه الصورة، أصبحت لدينا فكرة عن معنى هذه الارساليات الأمريكية فى الشرق وكانت هذه الخطوات، من تنقيب عن الماضى وتفكير فى المستقبل ، فى طريقها إلى مصر . وتمضى الأعوام ويتضاعف بانتظام عدد الشباب الذين تعلموا إلى الدرجة التى يستطيعون عندها التعمق فى معنى الماضى ، والحاضر والمستقبل .

والواقع أنهم استطاعوا أن يعثروا على ماض عريق فى عصر العرب الذهبى ، عندما كانت قرطبة أسطورة من أساطير العلم ، والحكم ، والتجارة فى أوروبا كلها ، وعندما كانت مكتبات بغداد الضخمة ، ومعاهدها، نوراً يضئ العالم كله ، ووجود هذا الماضى العريق جعلهم يقارنون بما وصل إليه الغرب الآن ، وبما آل إليه حال العالم العربى فى القرن التاسع عشر .

وأثارت المقارنة أسئلة مستمرة أخذت تتضخم فى عقول العرب . . أى روح حركت شعوب الغرب لجعلتها تحقق كل هذه المكاسب ؟ . . وإذا كان الناس فى الغرب ينظرون إلى أنفسهم على أنهم « شعوب » أليس لهذا أهمية فى تحقيق التقدم ؟ وبدأ المثقفون فى جميع أنحاء العالم العربى يفكرون مليا فى معنى وطنية الفرنسيين وقوميتهم ، ويدرسون فكرة « الأمة الأمريكية » وإيطاليا التى توحدت أخيراً . . مامعنى هذا الحب للوطن وما هذه الشخصية القومية ؟ .. يبدو أن أهمية هذه الأشياء للغرب تعادل أهمية تعبيد الطرق ، واختراع الآلة البخارية ، بل ربما تعادل تأليف حكومة ناجحة .

وإذا كان للأمر هذه الأهمية ، فلا بد إذن من العثور على «شخصية» مماثلة لشعوب الشرق الأوسط ، ولكن كيف يتسنى هذا ؟ .

وقد يحس الغربى بغرابة إزاء هذه التساؤلات وذاك التفكير ولكن علينا أن نتذكر أن فكرة الدولة التى هى عبارة عن أمة ، والدولة ذات الشخصية الخاصة بها والمستمدة من شعبها والمختلفة عن الشعوب الأخرى هذه الفكرة كانت فى ذلك الحين من صنع الغرب إلى حد كبير .

ولم يكن هناك ، فى العالم المستعرب ، ذلك الاهتمام الذى يوليه الغرب للحدود ودور المناطق فى التطور الذى مرت به «قومية الغرب» فى الماضى . . لم يكن للعرب رمز سياسى أو كنيسة قوية .. كانوا يعيشون منطوين على أنفسهم فى أحيائهم وجماعاتهم الدينية المحلية . وكانوا رعايا امبراطورية عثمانية لا يتكلم حكامها اللغة العربية ولا يهتمون كثيراً

بالتقسيمات بين الأقاليم التابعة لهم، بل لا يهتمون البتة.كان العرب قد فقدوا اتصالهم بماضيهم . والرجل البريطانى العادى لا يضيع اليوم وقتا كثيراً يتأمل فيه حقيقة كونه « بريطانيا » وأهمية ذلك بالنسبة له أو لوطنه . ذلك لأنه يسلم بهذه الحقيقة إلى حد كبير.ولدينا فى الغرب احساس طاغ بتراثنا العريق المعقد ، ولقد أدى هذا الاحساس ، إلى جانب مكاسبنا ، أدى إلى شعورنا بالتفوق-مما جعلنا نشعر بالانزعاج والضيق عندما نلمس تردد الشعوب الأخرى وحساسيتها . غير أننا نشهد اليوم نتائج تصديرنا لهذه الآراء لشعوب افريقية وآسيا . وعندما شرع ماكولى فى وضع نظام للتعليم للهند البريطانية على نمط التعليم البريطانى لم يدرك تماما ما فعله والذين أيدوه ظنوا أن الطبقة الصغيرة من الهنود الذين سيتمتعون بهذا النظام سيتخرجون وقد اصطبغوا بصبغة بريطانية.ولم يدركوا أن الهنود سيأخذون الافكار فقط ويخضعونها لبيئتهم الخاصة بهم واحساسهم المتيقظ ، بالشخصية القومية ـ ليصلوا فى النهاية إلى مفهوم القومية الهندية.

وطوال القرن التاسع عشر نشط هذا السعى وراء شخصية مميزة فى العالم المستعرب . ولم يكن هذا السعى بالأمر الهين إذ ما هى الأمة . . ؟ هل يتوقف انتماؤك لها على مسقط رأسك ، أو المكان الذى تعيش فيه ، أو اللغة التى تتكلمها ، أو الدين الذى تدين به ..؟ ولقد رأينا كيف أن المجتمع العربى المسلم كان فى الماضى مجتمعاً ثنائياً مضطربا.ولقد دفعت هذه الثنائية الموروثة بعض المفكرين إلى تشبيه فكرة الامة الفرنسية بالأمة الاسلامية. غير أن الأمة الاسلامية كانت تحتضن شعوباً قد تكون بعيدة بعد أندونسيا ، أضف إلى هذا أن الرئيس الرمزى لهذه الأمة هو السلطان ،

التركى الرجعى . فهل معنى هذا أن على العرب السعى لبعث الاسلام..؟
نبذ آخرون هذه الفكرة . فلقد كانت تجذبهم علمانية الغرب . والملاحظ
أن الغالبية العظمى من كبار المفكرين السياسيين كانت من العرب
المسيحيين الذين يتوقون إلى شخصية قومية تحتضن كل العقائد الدينية .
ليس من الغريب اذن أن يتجه مسيحيو الشرق العربى ـــ الذين تتلمذوا
على أيدى ارساليات الغرب وكلياته ـــ إلى فكرة العروبة التى تعتمد
على التراث المشترك ، واللغه المشتركة لكل من يتكلمون العربية بصرف
النظر عن عقائدهم .

قومية مصرية منفصلة

ولكن بالرغم من أن هذا التطور كان لا يزال فى الطريق ، إلا أن
أحداث الساعة تدخلت وأثرت فيه فبعد أن احتل البريطانيون مصر
عام ١٨٨٢ لم يكن هناك مفر من أن يركز المفكرون الوطنيون كل
جهودهم ضد العدو الموجود فى بلادهم . وظل الكثيرون يأملون أن
تساعدهم القسطنطينية ـ خاصة وأن فجر القرن العشرين قد لاح ، كما
تزايدت بوادر حركة تحرريه «تركيا الفتاة» فى العاصمة العثمانية ومن ناحية
أخرى كان الأتراك أنفسهم هم الذين يستبدون فى الشرق العربى . وهكذا
ظهرت فى مصر نزعة قوميةقائمة بذاتها إلى حد كبير ، نزعة تأثرت بالآراء
السياسية الفرنسية ، والدور الذى لعبه العلماء لاكتشاف تاريخ مصر
القديم . وأخذ الوطنيون يحلمون بأمة مصرية مستقلة تقوم على أنقاض

البريطانيين: وكانوا يأملون أن تساعدهم القسطنطينية ، ومن أجل هذا لم يرضوا عن كفاح الوطنيين فى بيروت ودمشق ضد القسطنطينية .

وعلى العكس من ذلك ، كان الوطنيون فى الشرق العربى يحلمون بأمة عربية مستقلة متحدة ، ترتكز على سورية العظمى ، وعلى علاقة وثيقة بدولة عربية شقيقة فى العراق . وهكذا قصرت كل طائفة بحثها وراء شخصيتها المميزة داخل نطاق تجاربها الخاصة بها وحدها ـ ولم تتعد حدود المستبدين بها . غير أن الجميع كانوا يفكرون ويكتبون ويتكلمون العربية ويطالعون نصوصاً عربية واحدة ، ويستفيدون من تراث عربى واحد هل يجىء اليوم الذى يأتلف فيه تيارا الفكر المتشابهان ، ويستمدان نفوذهما الأكبر من المشاركة فى التراث واللغة .

الحرب العالمية الأولى وفرساى

عندما أعلنت الامبراطورية العثمانية الحرب على بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٤ . وجه السلطان نداء دعا فيه كافة المسلمين إلى الولاء له فى « الجهاد » أو الحرب المقدسة . وانزعج ساسة بريطانيا . لقد أحسوا أن نداءه قد يؤثر على المسلمين بدرجة كبيرة ويجعلهم يؤيدون الترك . ولن يقتصر هذا على المسلمين فى الشرق الأوسط وإنما سيتعداهم إلى الهند البريطانية نفسها . وفى نفس الوقت بعث الوطنيون العرب أفراداً لجس نبض بريطانيا والتعرف على هدفها من الحرب . وحاولت بريطانيا بادىء

الأمر اغراء الزعماء العرب بالثورة على الحكام الاتراك ، عن طريق الوعود العامة اللفظية . غير أن العـــرب كانوا يشكون فى البريطانيين لدرجة كبيرة ، ولذلك طالبوا بوعود ملموسة . ومن أجل هذا خولت الحكومة البريطانية للسير هنرى مكماهون ـ عام ١٩١٥ ـ بأن يتفاوض مع الزعيم العربى حسين ، ويصل معه إلى اتفاق مكتوب . وبمقتضى هذا الاتفاق يتعهد حسين بالدعوة إلى الثورة العربية على الاتراك ، بتأييد من الأموال والأسلحة والمستشارين البريطانيين . وفى مقابل هذا تعده الحكومة البريطانية (كتابة ، وبعد أن ينهزم الاتراك) بالاعتراف بقيام دولة عربية مستقلة تشمل سورية بأكملها (وكانت تحتضن آنذاك فلسطين والاردن ولبنان) والعراق . وفى عام ١٩١٦ بدأت الثورة العربية بمشورة قلة من الضباط البريطانيين وتشجيعهم ، ومن بينهم « لورانس الجزيرة العربية » ومنذ ذلك الحين حارب ٢٥٫٠٠٠ جندى عربى ضد الاتراك ، وعجلوا بانتصار اللنبي الساحق فى فلسطين وسورية .

وفى نفس الوقت ، كانت هناك اتفاقيات أخرى تعقد ، مدارها مستقبل العالم العربى . وكانت متناقضة ومتعارضة لدرجة خطيرة . ولقد صممت فرنسا على أن تكون لها منطقة نفوذ فى شرق البحر المتوسط ، وعلى أن يكون لها نصيب من بترول الشرق الأوسط . وحرص الاستراتيجيون الاستعماريون فى بريطانيا على تأمين قناة السويس ، والطريق البرى بين ساحل البحر الأبيض والخليج العربى ، وكذلك البترول وكان مجلس الوزراء البريطانى يتوقع أن تطالب الدول المنتصرة بأن يكون

لها رأى فى وضع فلسطين ، فهناك كنائس كثيرة مختلفة ـ تهتم بالاماكن المقدسة لها . ونتيجة لهذا وقع مبعوثون من بريطانيا وفرنسا على اتفاق سرى فى أوائل عام ١٩١٦ ، وبمقتضى هذا الاتفاق يتم تقسيم العالم العربى الشرقى (خارج الجزيرة العربية) إلى جزأين ، أى إلى مجالين للنفوذ البريطانى والفرنسى ، ويخضع هذان المجالان ـ جزئيا ـ للسيادة العربية ، غير أنهما يرتبطان بالدول المسيطرة ارتباطا وثيقاً . وتم الاتفاق على إخضاع فلسطين لإدارة دولية . وكانت هـذه الوثيقة ، وهى المعروفة باتفاقية سايكس بيكو سرية للغاية ، غير أنها ظهرت للعيان عام ١٩١٧ عندما فتح البلاشفة ملفات وزارة الخارجية القيصرية ونشروا الـكثير عن محتوياتها .

وكان هناك عامل آخر يتصارع مع العوامل السابقة . لقد ظل الزعماء الصهيونيون يسعون ، لسنوات عدة ، من أجل الحصول على وطن فى فلسطين يأوى إليه يهود العالم التائهون المضطهدون وقبل الحرب العالمية الاولى بوقت طويل كسبوا تأكيداً كبيراً من جانب كثيرين من كبار ساسة بريطانيا ، وخلال الحرب استطاع الزعماء الصهيونيون أن يقنعوا وزراء بريطانيا بأن وجود مجتمع يهودى غنى فى فلسطين سيكون خير ضمان استراتيجى لبريطانيا بالنسبة لقناة السويس والطريق المفضى إلى الهند . وتأكد لدى مجلس الوزراء أنه سيشجع الامريكيين على المساهمة فى الحرب ، والمساهمة فى التمويل ، إذا هو وعد الصهيونية بشىء . وهـكذا أعلن وعد بلفور فى نوفمبر عام ١٩١٧. وجاء فيه : أن بريطانيا تحبذ قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين .

ثم جاءت اتفاقيات الصلح ، وحل يوم الحساب الذى ظن الوطنيون الغرب أنه سيفضى بهم إلى باب الحرية . . وكان المصريون قد اضطروا إلى الاشتراك فى الحرب ، ودب فيهم الأمل وهم يستمعون إلى وعود الحلفاء زمن الحرب ، ووعود الرئيس ويلسون الخاصة بحق تقرير المصير. وكانت بريطانيا نفسها قد وعدت مصر بالاستقلال . وكانت هناك نفس الآمال فى الشرق العربى وكانت هـذه الآمال ، كما رأينا ، تقوم على وعود أكثر وضوحا وفى كلا المنطقتين توقع الغرب ـ الذين اعتنقوا مبادىء الغرب فى الحرية والعزة الوطنية ـ توقعوا فى شىء من الثقة ، أن تطبق دول الغرب هذه المبادىء الآن . ورأى الوطنيون فى الأراضى المستعمرة والأراضى التابعة للتاج ، أن نهاية الحرب العالمية الأولى تعتبر فترة حافلة بالتفاؤل الكبير . وكان إيمانهم كبيراً بالحضارة التى أعجبوا بها أشد الأعجاب .

ولكن سرعان ما تبددت الاوهام . فبعد ثلاث سنوات من المظاهرات المستمرة والشغب ، والتوتر السياسى ، وافقت بريطانيا فى النهاية على إنهاء حمايتها على مصر . غير أنها لم تصل إلى اتفاق مع الوطنيين بشأن السودان التى طالبوا بها ، كما لم تصل إلى إتفاق بشأن القوات التى أصرت هى على الاحتفاظ بها فى مصر لحماية « مواصلات الامبراطورية » (قناة السويس) وأصبحت مصر مملكة مستقلة ذات سيادة فى الظاهر ، غير أن بريطانيا احتفظت بقوات لها هناك ، وبقيت فى السودان ، وعارضت فى الطلب المقدم من مصر للانضمام إلى عصبة الامم ، وسيطرت فى الواقع على شئونها الخارجية ، ورفضت إلغاء المحاكم الخاصة بالاجانب .

وتم فرض حكم الانتداب فى الشرق العربى ، وكان من الواضح أن الوطنيين العرب يعارضون هذا . وأصبح العراق تحت الانتداب البريطانى وأسس المستر ونستون تشرشل امارة غريبة التكوين فى شرق الاردن ، شرق نهر الاردن ، وصارت تحت الانتداب البريطانى . وصارت سورية الداخلية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، كما خضعت فلسطين للانتداب البريطانى ووعدت بريطانيا بتحقيق وطن قومى لليهود . وقوبل هذا بمعارضة اجماعية من العرب . ولم تسلم من هذه التقسيمات المفروضة والسيطرة ســـوى شبه الجزيرة العربية . وباستثناء شبه الجزيرة خرج العالم العربى - من المحيط الاطلسى إلى الخليج العربى - خرج من الحرب العالمية الاولى وهو خاضع لسيطرة الدول الكبرى ، ولقد تم هذا كله بالقوة ، وأدى إلى ثورة فى مراكش عام ١٩٢٤ ، وإلى عشرة أعوام من الضغط الايطالى فى ليبيا . وإلى قلاقل مستمرة فى مصر ظلت حتى عام ١٩٢٣ ، ومعارك عنيفة مستمرة فى فلسطين بعد عام ١٩٢٠ ، وثورة بالعراق فى عام ١٩٢٠ ، وتمرد فى سورية ضد الفرنسيين فى عامى ١٩٢٠ و١٩٢٥ - وسمى العرب ذلك العلم الذى وصلت فيه الدول إلى قراراتها النهائية بسان ريمو عام ١٩٢٠ بـ « علم الكارثة » .

ومنذ عام ١٩٢٠ إلى الآن ، امتلأ ذهن العرب بمرارة ملتهبة ازاء نقض الغرب للوعود والعهود المكتوبة التى بذلها خلال الحرب العالمية وبعد عام ١٩٢٠ ظلت هذه المرارة تشتد عاما بعد عام إلى أن ظهر فى النهاية جيل جديد ، وشرع فى تسيير دفة الامور .

الفصل الرابع

العرب فى مرحلة الانتقال

١٩٢٢ - ١٩٥٢

تأكدت اتفاقيات الصلح فى الشرق الأوسط ، واستمرت السيطرة الاسبانية والفرنسية والايطالية على المغرب العربى . . وبدأت مرحلة جديدة من مراحل اليقظة العربية . ويحق لنا ، ونحن ننظر إلى الوراء، أن نعتبر فترة الثلاثين عاما التى تبدأ من ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢ فترة انتقال، وخلال هذه الفترة تجمعت قوى جديدة حاسمة ذات حيوية كبرى ، واختفت وراء الزعامة العربية الموجودة . . ونستطيع أن نلمس طابع الفترة الانتقالية عن طريق سياسة الدول الكبرى فى المنطقة ، وطبيعة الحكم العربى والقيادة العربية خلال هذه الفترة ، والأفكار التى بدأت تنضج فى عقول الجيل الشاب

المغرب العربى

فى غرب مصر فرضت ثلاث دول سيطرتها المباشرة - على النمط الاستعمارى - على مراكش والجزائر ، وتونس وليبيا .. ولقد ظهرت القومية الحديثة بمراكش وتونس متأخرة عن ظهورها فى الشرق، وقضت

معظم الفترة الانتقالية وهى تصوغ مثلها العليا بدلا من أن تلح بها بصورة فعالة ، وقد نستطيع أن نصف المقاومة الأولى ضد السيطرة الفرنسية على أنها تتمثل فى عداء الحكام المحليين التقليدى لا للاحتلال الأجنبي فحسب ، وانما لأى سلطان أو حاكم مطلق يخضع لمثل هؤلاء الأجانب .. ولكن ما إن حلت الثلاثينيات حتى صارت بوادر القومية الحديثة ظاهرة للعيان ، كان هناك ، شبان تخرجوا من المدارس الفرنسية وعرفوا المثل العليا التقليدية التى أوحى بها الغرب، والتى تدور حول كيان الأمة، والتقدم، وكان هناك العائدون من مدارس الشرق العربى (وبخاصة معاهد مصر وفلسطين الخاضعة للانتداب) والذين ألهمتهم الحركة الوطنية، التى لمسوها من حولهم . وهكذا حدث على سبيل المثال ، أن اجتمع تسعة شبان بالرباط عام ١٩٢٦ ، واستمعوا إلى محمد بنونه وهو يصف المثل الوطنية العليا والتقدم الحديث الذى لمسه فى الشرق العربى ، ومن أعضاء هذه الطائفة احمد بلفريج الذى تزعم حركة وطنية فى مراكش ، ثم أصبح بعد ذلك أول وزير خارجية لمراكش المستقلة ، وفى تونس انضم حبيب بورقيبة ، ذلك المحامى الذى ألهمه الغرب، انضم إلى آخرين ليؤلفوا — فى عام ١٩٣٤ — حزباً وطنياً جديداً أشد تطرفا، وهو حزب «الدستور الجديد» ، ثم أصبح بعد ذلك أول رئيس لتونس المستقلة .

غير أن السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية قد اتسمت باجراءات القمع والحبس فى المغرب، أو بمطالب اصلاحية جد معتدلة ، وظل المغرب يستمد إلهامه من الشرق العربى ، مثال هذا أن أول حركة وطنية مراكشية تطالب

بالاستقلال التام عام ١٩٤٤ قد جاءت بعد أحداث لبنان الخاضع للانتداب الفرنسى . غير أن ركب القومية وظهور جيل جديد وما كان لظهوره من نتائج ، لم يؤثر التأثير الكبير إلا فى الشرق العربى ، مما أدى إلى نتائج خطيرة فى المحيط الدولى ، ولم تبرز القومية المغربية إلى السطح إلا بعد نهاية الفترة الانتقالية التى نتحدث عنها ، وبحصول مراكش وتونس على استقلالها بدأت هذه القومية تتخذ طابعا عربيا أكثر وضوحا ، وأكثر اتصالا بالشرق العربى .

الشرق العربى

صاغت الدول الكبرى اتفاقيات السلام ، من مصر حتى البلاد الواقعة شرقا ، دون مراعاة لآمال العرب ، وكانت المصالح الاستراتيجية والتجارية والثقافية هى التى تحددها وتتحكم فيها، غير أن بريطانيا وفرنسا دفعتا الثمن غالياً لقاء هذه الامتيازات الزائفة ، ولم يكن وضعهما هناك وضع دول استعمارية كما هى الحال فى المغرب . وتمضى الأعوام ويتضح أنهما لا يستطيعان بسط نفوذهما ـ بل نفوذهما غير المباشر ـ إلا بالضغط والقمع . لقد اعترفت بريطانيا باستقلال مصر ، غير أنها عجزت حتى عام ١٩٣٦ عن التوفيق بين هذا الاعتراف ، ورغبتها الملحة فى حماية مصالحها الخاصة بها هناك (قناة السويس والسودان) وفى الشرق العربى فرضت بريطانيا وفرنسا نفوذهما غير المباشر عن طريق الموافقة على نظام انتدابات العصبة الذى ابتكره الجنرال سمطس وأصر عليه الرئيس ولسن. غير أنه

البلاد الواقعة تحت الانتداب تعد ، فى نظر ميثاق العصبة والرأى العام العالمى « وديعة مقدسة فى عنق المدنية » ، وكانت هناك مطالبة صريحة بالنهوض بشعوب هذه البلاد فوراً ، تمهيداً لتحقيق سيادتها الكاملة غير المشروطة .

وكانت الدول القائمة بالانتداب تأمل فى أن تؤدى وصاية بريطانيا وفرنسا إلى خلق زعماء عرب يحبون معلميهم . فإذا حصلت بلادهم على سيادتها وافق هؤلاء الزعماء عن طيب خاطر — على التحالف الوثيق الذى يحمى مصالح بريطانيا وفرنسا ، وكان هناك اختلاف طفيف بين آمال بريطانيا وآمال فرنسا ، فلقد شرع ساسة فرنسا فى صبغ لبنان وسورية بالصبغة الفرنسية الحقيقية فى التفكير ، أما البريطانيون فكانوا يأملون فى كسب ود زعماء مصر، والسودان ، وفلسطين ، وشرق الاردن والعراق ، غير أنهم لم يصبغوا العرب بالصبغة الانجليزية، كما فعل الفرنسيون ولكن أحلام الدولتين تبخرت .

وكان من العسير إيجاد توفيق دائم بين هذا الرأى والوصاية التى تفرضها الدول القائمة بالانتداب أو الحماية المقنعة فى مصر . . غير أن بريطانيا وفرنسا حاولتا — إزاء التمرد الوطنى المستمر — إيجاد مثل هذا التوفيق فكان أن أقنعتا المحافظين من الوطنيين ، فى الثلاثينيات ، بالموافقة على استقلال مصر وسورية والعراق مقابل معاهدات تكفل للدولتين قواعد استراتيجية . ونجحت هذه السياسة لأن معظم الوطنيين أحسوا بأن هذه المعاهدات أقل إذلالا من الوصاية ، ولأنهم كانوا يتوجسون خيفة من

قوة ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية التى أخذت تتزايد باستمرار ، غير أن السنوات لم تكن كافية ، وقوبلت باستهجان كبير بين أوساط الجماهير وغيرها ، اللهم إلا أكثر الزعماء تحفظا ، وكانت النتيجة أن فوجئت بريطانيا ، فى الحرب العالمية الثانية ، برأى عام مصرى يتراوح بين حياد أو تعاطف مع المحور ، كما فوجئت بثورة صريحة فى العراق . وخضعت سورية ولبنان لسيطرة حكومة فيشى الفرنسية إلى أن تم تحريرهما عام ١٩٤٣ . ثم حاولت حكومة ديجول الحـــرة الحصول على مراكز استراتيجية طويلة الآجل ، ومراكز أخرى فى الجمهوريتين وتوسلت إلى ذلك بشتى الطرق ، ومنها استخدام القوة ، وفى النهاية اضطرت فرنسا إلى الاستسلام أمام ضغط بريطانيا والأمم المتحدة . وفى عام ١٩٣٦أصبحت سورية ولبنان أول بلدين عربيين فى التاريخ الحديث يتحرران تماماً من السيطرة الأجنبية أو من وجود قوات غربية . وخرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية وقد تحققت لها السيطرة ، غير أنها جوبهت بموجة هائلة من الآمال العربية ، وكانت تلك الآمال تستند فى هـذه المرة إلى ميثاق الأمم المتحدة والتزام الدول ـ الادبى ـ أمام نصوص هذا الميثاق .

وكانت مصر مفتاحاً لعهد جديد . غير أن مفاوضات الحكومة العمالية مع مصر فشلت عام ١٩٤٦ ، وفى نفس السنة بدأت مشكلة فلسطين تسيطر على مسرح الشرق الأوسط بأكمله ، فقد تعالت الصيحات التى تطالب بهجرة اليهود إلى الأرض المقدسة نتيجة لكارثة يهود أوروبا فى معسكرات الاعتقال، وعدم ترحيب الدول الغربية بإيوائهم . وبدأت

سياسة بريطانيا فى الشرق الأوسط تتدهور نتيجة لتردد المسئولين بين الرغبة فى التخفيف من الأعبـــاء الملقاة على عاتقهم فيما وراء البحار ، ومسئوليتهم المحيرة فى فلسطين ، وبين حاجتهم الاستراتيجية المستمرة إلى القواعد وتسهيلات المرور التى ثبتت ضرورتها فى الحرب العالمية الثانية . ودخلت الولايات المتحدة على المسرح وجرت على نفسها توبيخ العرب لها بادئ الأمر لأنها أيدت اليهود فى رغبتهم للهجرة إلى فلسطين ! ولم يمض وقت طويل حتى اتضحت أهمية الاحتياجات الاستراتيجية نتيجة لخوف الغرب من الاتحاد السوفييتى .

ومرة أخرى حاولت بريطانيا تسوية خلافاتها مع الدول العربية عن طريق عقد معاهدة خاصة .

وبمقتضى المعاهدة المعقودة بين بريطانيا والعراق فى أوائل عام ١٩٤٨ يحق للسلاح الجوى الملكى التابع لبريطانيا أن يتمتع بتسهيلات خاصة ، ويحق لبريطانيا الاستفادة من دفاع مشترك عن طريق استخدام قواعد متفق عليها هذه المرة . غير أن هذه المعاهدة أثارت من القلاقل ما أدى إلى إلغائها .

وبعد عامين حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا تأليف منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط ، ولم توافق أية حكومة عربية على هذا المشروع .

كان هناك فى العـالم العربى ، ووراء الستار شبح اتفاقية الصلح ، والمرارة المتزايدة من سياسة الغرب تجاه فلسطين .

الزعامة العربية

وكانت هناك أيضاً ثورة داخلية . وإذا كان ساسة الغرب قد فشلوا فى فهمهم للتيارات الجديدة ، فإنهم لم ينجحوا أيضاً فى إدراك التيارات الخفية وراء السياسة العربية فى الثلاثين عاماً الانتقالية . وكان لابد أن تبدأ فترة الوصاية فى كل بلد بزعامة وطنية محافظة. ومصر خـــير مثال لهذا . ففى مصر ، بعد عام ١٩٢٢ ،كان للحكومات المتعاقبة نصيب كبير من السيطرة على الشئون الداخلية . وكانت مصر تسير على النظام الملكى الدستورى .

وسيطر حزب الوفد الوطنى الرمزى على مسرح السياسة . غير أن الملك أخذ يحرز لنفسه السلطان والمجد والثروة . واستعان ببريطانيا ضد البرلمان عندما رأى أن ذلك يخدمه ويخدم بريطانيا عندما بدا أن نفوذها يمثل الخطر الأكبر .

ووسط هذه القوى الثلاث قاد الوفد الأمة فى ميدان القضايا الوطنية الرسمية ـ كإجلاء القوات البريطانية ، ووحدة وادى النيل فى ظل دولة مصرية سودانية موحدة . غير أن الوفد كان يستمد قيادته من أسر عريقة تخضع أفكارها السياسية والاجتماعية لمذهب الأحرار العربى السائد فى القرن التاسع عشر ، وكان هناك زعماء يؤمنون ـ بصفة عامة ـ بالاستقلال الوطنى وبالتعليم العام إلى حد ما ـــ وبالتنمية الاقتصادية

عن طريق الاستثمار الخاص . غير أنهم لم يؤمنوا (ولم يكن بمقدورهم أن يؤمنوا) بالإصلاح الاجتماعى الجوهرى . وهكذا إذا سلمنا بأنهم توسعوا إلى حد هائل فى الصناعة والتعليم ، إلا أنهم قاوموا كل رغبة فى الإصلاح وفى إعادة توزيع الملكيات الزراعية .

وظهر نفس الإطار - إلى حد كبير - فى البلدان الأخرى . وكانت القيادة الوطنية فى يد المحافظين الذين يمثلون الأسر الموسرة ، وكبار الملاك ، وأصحاب الوظائف المحافظين ، والسادة التجار . وفى العراق ، حيث الملكية المطلقة ، كان طابع المحافظين هو الغالب إلى حد أن ملكية الأرض كانت من أبرز صور الإقطاع فى العالم حتى قبل انتهاء الانتداب عام ١٩٣٢ (أى عندما كان العراق خاضعاً للإشراف البريطانى) . ولم يكن وضع الأرض فى سورية ولبنان سيئاً لهذه الدرجة ، ومع ذلك كانت الحكومة فى أيدى المحافظين ، وكانت « الأحزاب » تتألف فى الواقع من أقطاب الملاك والتجار .

أما شرق الأردن فراح فى سبات هادئ ، وكان عبارة عن محمية بريطانية صغيرة على حافة الصحراء ، يحميها عبد الله الأرستقراطى ، ومستشاروه البريطانيون من مدنيين وعسكريين .

ولقد جاء الجزء الأكبر من نزعته المحافظة نتيجة للمؤثرات الغربية التى تعرض لها من قادوا الحركة الوطنية فى أوائل القرن العشرين .

والواقع أنهم كانوا يعبرون عن مفاهيم للمجتمع سادت الغرب فى القرن التاسع عشر . فسلطان الدولة فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية

يجب أن يكون محدوداً . . بل ويجب ـ من الوجهة المثالية ـ أن يتلاشى لتحل محله الدولة المثالية « اليوتوبيا » . ولكن كان هناك عامل آخر قوى من عوامل الرجعية ، هذا العامـــل جاء نتيجة مباشرة لوجود سيطرة أجنبية . . فعندما تحكم إحدى الدول فى ظل الوصاية ، أو تفرض سلطانها عن طريق الاحتلال العسكرى ، فلابد من أن تطفو إلى السطح نزعة محلية محافظة ، وطموح شخصى ، وانتهـازية . وتؤيد الدول المسيطرة بطبيعة الحال هؤلاء « المعتدلين » الذين أبدوا استعدادهم للرضوخ لوضعها الخاص ، والذين أبدوا استعدادهم أيضاً لقمع العناصر « المتطرفة » . ولابد من أن يدخل فى قائمة هؤلاء المتطرفين أناس يطالبون بثورة اجتماعية فى الداخل إلى جانب مطالبتهم بالتحرر من السيطرة الأجنبية . فإذا كان هناك ، إلى جانب هذا كله ، ملك يحرص على سلطانه وامتيازاته ، ويخشى أن يعتدى أحد على حافظة نقوده الملكية ، أصبح لدينا عامل آخر يقف فى وجه الثورة الاجتماعية والتقدم .

إن هذا الظهور الداخلى للقيادة المحافظة الانتهازية الفاسدة يبرز وسط التطور الذى تعرض له الشرق الأوسط أكثر مما يبرز فى مستعمرات خاضعة تماماً للمستعمر . ذلك لأن غموض الانتداب والوصاية والعلاقات التعاهدية هو الذى يؤدى إلى ظهور ذلك النوع من القيـادة . ولم يكن من المعقول أن تفكر وزارة المستعمرات فى السماح بذلك الإقطاع الذى أقرته الحكومة البريطانية المتعاقبة بالعراق فى ظل ولى العهد عبد الإله ونورى السعيد .

الجيل الشاب

وبمرور الأعوام اشـــتدت سيطرة التحفظ والفساد على حياة العرب السياسية .وبمرور الأعوام التصق هذا الطابع بوجود بريطانيا وفرنسا.ثم التصق ببريطانيا وحدها .

ولـكن بمرور السنين أيضاً كان الشباب (وبعض النسوة) يتنقلون بين سنى الدراسة فى المدرسة والجامعة ، ويتعرفون على الآراء السياسية والاجتماعية الجوهرية التى سادت الغرب فى القرن العشرين ، كان الآلاف يتلقون علومهم فى جامعات مصر وسورية ولبنان وكلية بغداد الصغيرة وفى جامعات الغرب نفسه أيضاً .

ولم يكتف هذا الجيل الجديد بالتمرد على الأشكال التقليدية للسيادة والاستقلال الوطنى . وإنمـا أخذ يتشرب ، بصورة مستمرة ، بروح الإصلاح الاجتماعى فى الغرب — وبالمبدأ القـائل بأن الديموقراطية لا تعنى الحرية السياسية التقليدية وحدها ، وإنما تعنى أيضاً توزيع الدخل وتحقيق الرفاهية الاجتماعية . ولن يتعذر علينا أن نلمس النتائج إذا نحن تذكرنا أن أفكارا هائلة كانت تطالب بالتطور الاجتماعى وتحرك العالم الغربى فى الفترة بين عام ١٩٢٢ — ١٩٥٢ ، إذا نحن تصورنا شباب العالم العربى وهو يتعرف على هذه الآراء ثم ينظر إلى حال مجتمعه .

لقد تسرب إلى الأجيال العربية الجديدة خبر ظهور النقابات العمالية القوية فى أمريكا ، والاضراب العام ، والكساد الكبير ومشروع روزفلت ، وذلك التيار الجارف للثورة الاجتماعية الذى اجتاح بريطانيا نتيجة للكساد والحرب العالمية الثانية ، وكذلك تقرير بيفردج ، والنهضة التكنولوجية التى كان الغرب خير نموذج لها .

ونظر الشباب فى حال الفكرة الغالبة من المزارعين ، ولمس الفقر والجهل ، وعدم كفاءة الحكومة وفسادها. وضعف البرلمانات التى تخضع ـ على مايبدو ـ لاهواء القصر والسفارة الأجنبية والقيادة المحافظة . وبمرور الأيام ازداد ايمانهم بأن العالم العربى فى حاجة ماسة إلى ثورتين، ثورة على الاستعمار ، وثورة على ماأسموه بالاقطاع داخل مجتمعهم. لقد بالغوا ، ولكن لأسباب مشروعة ، حين اعتبروا الشر الأول مكملا للشر الآخر ، وحين رأوا أن كل واحد منهما يقتات من الآخر.وبمرور السنين ازداد إيمانهم بأن الذين يكبرونهم من المحافظين الذين يشغلون المناصب لايستطيعون الحاق الهزيمة بالاستعمار ، وكانوا يرضخون لهذا عن طواعية أحياناً ، لأنهم يريدون حماية مصالحهم الطبقية ، وأحيانا كانوا يرضخون على مضض لا لشىء إلا لأنهم ضعفاء . ورأى الجيل الجديد أن هذا الوضع لايعدو أن يكون حلقة مفرغة . فكيف يمكن علاجها ؟

لعب البعض مع طوائف شيوعية صغيرة . واهتم آخرون ـ وقد كانوا كثيرين ـ بالاخوان المسلمين ، وهى جماعة تنادى بثورة فى الاسلام وقد ازدادت عنفاً طيلة الأربعينيات . بيد أن الغالبية العظمى تشبثت

ـ فى يأس ـ بطريق وسط غير متكامل ووقفت ترقب وتنتظر. وأخذوا يؤلفون الأحزاب ، غير أن هذه الأحزاب فشلت جميعاً فى دخول البرلمانات ، فاذا كانوا طلابا وتظاهروا وعقدوا اجتماعات للاحتجاج ، فان جزاءهم الطبيعى هو التعرض لعقاب البوليس : الطرد أو السجن . فكيف إذن يتسنى لهذا الجيل الشاب أن يقوم بثورته؟ ومضت الأعوام وازداد هذا السؤال وهم يرون السلطة والقيادة فى المجتمع لم تتغير التغيير الجوهرى الذى ظلوا يتمنونه طويلا .

الضباط الأحرار

كان الكثيرون من شباب « الطبقة الوسطى » المتعلمة يهتمون بالجيش ويرون هذا الاهتمام أمراً طبيعياً . ويهمنا أن نفسر هذه الظاهرة حتى لانخلط بينها وبين الوضع فى الغرب . ان وراء سلاح الضباط فى الغرب تقاليد طويلة نبيلة . وهى مستمدة من العهد الارستقراطى حيث كان الآباء ذوو المناصب والمراكز يشترون الرتب لأبنائهم، ولم يفكر أحد طيلة مائتى عام فى حق الضباط البريطانيين فى التدخل فى السياسة « الضباط لايردون ، ولايتساءلون ، وإنما يعملون ، ثم يموتون » . غير أن تاريخ الجيوش الحديثة ، فى العالم العربى ، يتنافى مع هذه الروح . فلقد كانت الجيوش أول من سرت اليها حماسة الرغبة فى التمدين . ورأى الضباط أن الجيش رمز للبحث فى مجتمع حر يحقق له البعث . وانخرط الشباب فى سلك الضباط لأن الجيش وسيلة مشرفة يحاولون عن طريقها تحقيق هذه الرسالة ورأوا فى الجيش رمز الوطنية الحق . وفى ظل النفوذ البريطانى

و الفرنسي كانت هناك،دون شك ، دعوة إلى وقوف جيش الدولة جانبا
غير أن النتيجة جاءت بخلاف هذا : يجب أن يقف الجيش لا لشيء إلا
لكي يخدم الشعب - يخدم الكثرة الغالبة من الشعب التي ينحدر منها
الجندى العادى ، والتي لا يفصل الضابط الصغير عنها سوى درجات طفيفة
في الدخل والتعليم .

وهكذا ازداد سخط الشباب من ضباط الأجيال الجديدة ، ازداد
سخطهم على الأوضاع الخارجية والداخلية التي ضاق بها اخوانهم المدنيون.
غير أن الضباط أحسوا بالاذلال أكثر مما أحس به المدنيون . ففي معظم
فترة الثلاثين عاما التي نتناولها هنا خضعوا للقيادة البريطانية أو الفرنسية
المباشرة ، أو تعرضوا لبراهين مستمرة غير مباشرة تثبت لهم أن جيشهم
ليس جيشاً حراً لأمة حرة - لقد أحسوا أنهم خدام دولة يتجاهل زعماؤها
حال الجماهير. والواقع أن هؤلاء الضباط الشبان كانوا يضطرون أحياناً إلى
سحق المظاهرات التي يقوم بها إخوانهم احتجاجاً على الشرور التي ثاروا هم عليها.
وأخذوا يراقبون البرلمانات ، فيزداد يأسهم كما ازداد يأس الشباب
المدنى ،غير أنهم ازدادوا إيمانا بأن قواتهم هي القوة الوحيدة غير المتحيزة
في هذا البلد ، فهي تمثل الشعب ، وتهدف إلى خدمته . وآمنوا بأن الشعب
وحده هو الذى يملك القوة اللازمة وأن الجيش وحده هو الذى يتمتع
بالوحدة ، وأن الجيش وحده هو الذى لم يلوثه الطموح والفساد
والنزاع الطبقي .

وهكذا ظهر من بين صفوف صغار الضباط فى مصر وسورية والأردن والعراق بمجموعة ضئيلة من رجال ذوى بسالة، رجال صاغوا أنفسهم أو أطلقوا على أنفسهم عبارة « الضباط الشباب » أو جماعة ضباط الأحرار ». ولم يكن لهذه الظاهرة مثيل فى مجتمع الغرب الحديث - وكانت النتيجة أنه حين ظهر هؤلاء الضباط فى عناوين الصحف، خطرت بذهن الغرب صور « العسكرية » كما يفهمها الاوربيون، وخطرت بذهنه مفهوم « الدكتاتورية العسكرية » . . . بل انقلابات الجيش المتكررة فى أمريكا اللاتينية .

قومية جـــديدة

فلنتوقف لحظة لنوجز ذكر الآراء التى تعرضنا لها، والتى اعتنقها الجيل الشاب القلق الطموح ،فى هذه الفترة الانتقالية .. لقد رأيت كيف أن « قومية » هذا الجيل كانت مزدوجة، فهى لاتسعى إلى انهاء النفوذ الاجنبي المجحف فحسب، وانما تسعى أيضاً وراء الاصلاح الاجتماعى الداخلى لتقف به ضد شيوخ الجيل المحافظين الذين يمسكون بزمام السلطة. إن هذا الطابع الثنائى لتلك الحركة الصاعدة على جانب كبير من الاهمية، ذلك لأن « القومية » - فى بريطانيا وللبلدان الغربية العريقة - ذات طابع سياسى خارجى تماما. غير أننا رأينا كيف أن قومية العالم العربى، فى الفترة من ١٩٢٢ — ١٩٥٢ أخذت تتسم بطابع اجتماعى أيضاً — ولاحت فى الأفق صورة « ثورتين تقومان معا » .

وشهدت هـــذه الفترة أيضاً تطوراً سريعاً فى وسائل المواصلات الجديدة داخل العالم العربى ، وكان هناك أيضاً توسع فى التعليم التقليدى . وتضاعفت الصحف والمجلات ، والكتب والنشرات . والاذاعات والأفلام ـ وظهر هذا كله باللغة العربية، وكان التضاعف فى الكم والكيف معا ، وحدث نفس التطور فى ميدان الطرق والسكك الحديدية ، والنقل بالاوتوبيس ، والملاحة البحرية والجوية فى داخل الاقاليم. وازداد اتصال الشعوب التى تتحدث بالعربية فى البلدان المختلفة . وكان الاتصال ماديا وذهنيا. وأخذوا يحسون، بفضل مئات من الوسائل المختلفة انهم يشتركون فى أشياء كثيرة فى اللغة ، وما تحمله اللغة من تراث ، وفى الاسلام تلك الديانة السائدة وفى العدد المشترك الممثل فى الدول الكبرى ، وفى وجود زعماء ضعفاء رجعيين ، وفى وجود فقر ومرض وتأخر . وشيئاً فشيئاً انتشرت فى المنطقة فكرة « العروبة » ـ كانت فكرة تفتقر إلى اليقين ، وإلى تعريف فلسفى ، غير أنها كانت تهز كل شخص يتكلم العربية .

ولم تكن هذه المشاعر وقفاً على الأقلية المتعلمة. فلقد فشا هذا الوعى « بالعروبة » حتى بين الذين لم يتعلموا ، وذلك نتيجة لظهور المذياع ، والأفلام العربية ، والرحلات الشعبية المحدودة التى قد تتمثل فى الانتقال من حدود إلى حدود (كالسفر من سورية إلى شرق الأردن على سبيل المثال) . غير أن هـــذه المشاعر كانت قوية بصفة خاصة لدى الذين يستطيعون الاستفادة من كافة وسائل الاتصال الجديدة، والذين استطاعوا أن يدرسوا تاريخ العالم العربى بشىء من التفصيل ، والذين تأثروا —

باستمرار — بفكرة الوحدة القومية الموجودة عند الغرب. وسواء ذهبوا إلى كليات الغرب ولمسوا ثمرة الفكرة فى كل مكان حولهم، أو اكتفوا بدراسة تاريخ الغرب من بعيد، فان التأثير كان واحداً. وتمضى الأعوام ويستمر التساؤل فى ذهن الشباب العربى .. ما هى أمتهم؟ وتمضى الأعوام ويزدادون اقتراباً من الفكرة القائلة بأن أمتهم قد تحتضن كافة الشعوب التى تتكلم العربية، بصرف النظر عن المكان الذى تعيش فيه. وانتهجت الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب أسلوب العرب الدنيوى فى نظرته إلى المجتمع : ذلك أن سعيهم وراء الشخصية القومية لم يكن يعتمد فى المحل الأول على روابط دينية.

وعندما درسوا التاريخ الحديث للعالم العربى، رأوا أن معظم الأراضى التى يعيشون داخلها هى أراض أجنبية، لقد كانت من صنع « الاستعماريين » ومع ذلك، كانت هناك مصالح وامتيازات قوية داخل هذه الأراضى - هناك قدامى الساسة الوطنيون الذين يستمدون مركزهم من وجود جمهورية سورية أو مملكة عراقية، وتجار يجىء دخلهم من القيود الجمركية وغيرها من الحواجز المفروضه بين بلدان الشرق العربى. وعندما التفت هذا الشباب العربى المتعلم إلى العلاقات القائمة بين الدول العربية الموجودة، لم يجد الا التنافس والمؤامرات. كان عاهل العربية السعودية يتشاجر مع الأسرة الهاشمية الموجودة بشرق الأردن والعراق، وكان فاروق يقوم بمناورات بين الطرفين، أما عبد الاله ولى عهد العراق فكان يأمل فى توحيد « الهلال الخصيب » فى ظل التاج العراقى، وكان عبد الله ملك شرق الأردن يلتهب شوقاً إلى سورية.

وخلال الحرب العالمية الثانية سجلت بريطانيا موافقتها على الفكرة المنادية بمزيد من الوحدة العربية. ولكن ما أن مرت السنوات التي أعقبت الحرب دون أي تغير في وضع بريطانيا الخاص داخل معظم الدول العربية، حتى استنتج الشباب العربي ان بريطانيا لاتهتم بالوحدة العربية إلا إذا كانت هذه الوحدة تخدم مصالحها .. وعندما آمن الشباب العربي بأن عدم الوحدة قد أضعف العرب مراراً وتكراراً . . وجعلهم فريسة للضغط الاجنبي، عندما حدث هذا دخل عنصر جديد في نظرتهم إلى الحلقة المفرغة. لم يكن الرجال الذين يحكمونهم مهتمين بوحدة عربية وثيقة ، اللهم إلا إذا استطاع أحدهم أن يسيطر على الباقين . وكان لبريطانيا مصلحة في السيطرة على الاتجاه أو تعديله في ميدان مشاكل العرب الداخلية وكما استفاد الحكام الموجودون من بريطانيا واستفادت منهم، كان في مقدور أحدهم أن يلجأ اليها على انفراد ويطلب منها مساعدته في معاركه التنافسية. ولهذا التعادل أساس من الصحة وهو في نفس الوقت مبالغ فيه غير أنه أدى إلى نتيجة هامة .

لقد أصبحت « القومية » تتضمن أيضاً وحدة عربية حقيقية — وصارت لها أحلامها الثلاثة : الاستقلال . الاصلاح الاجتماعي . الوحدة وتطلع الشباب العربي إلى اليوم الذي يتم فيه تنسيق القيادة . والروح . والطاقات الشعبية . والموارد الاقتصادية . والقوة العسكرية في المنطقة بأكملها . وأينما تطلعوا بعيونهم إلى خارج المنطقة ، بدا هذا درساً هاما من دروس التاريخ .

لقد صاغت أمريكا لنفسها آمة موحدة خلقتها من الولايات المنفصلة التى كانت عبارة عن مستعمرات فى الماضى . وكانت هذه الأمة تتألف من شعوب لا تتكلم لغة واحدة . وليس ورلدها تراث موحد ونهضت ألمانيا من فوضى الإمارات الضعيفة لتصبح دولة مؤلفة من أمة واحدة دولة تؤمن بعقيـــدة « الفولك » أى الشعب . كذلك فعلت إيطاليا . وإذا كان الشباب العربى قد تطلع إلى آسيا بعد عام ١٩٤٧ فقد رأى جمهورية هندية موحدة تخرج من شبه قارة تضم أكثر من خمسمائة دويلة منفصلة ـــ وأقاليم بها أناس لا يتكلمون لغة واحدة .

وفى أقصى الشرق رأوا جمهورية أندونيسيا وهى تحاول جاهدة تحقيق « الوحدة عن طريق التنوع والاختلاف » وهى التى تتألف من ثلاثة آلاف جزيرة ولا يتكلم أهلها لغة واحدة .

ولم يكن الدرس بأقل وضوحاً فى المسائل الاقتصادية ، فالذى يدرس العالم العربى بعد عام ١٩٢٢ لا يستطيع أن ينكر ذلك المبدأ الذى أخذ فى الظهور ، والذى ينادى باستخدام الموارد داخل المنطقة الاقتصادية بطريقة منطقية .

وخلال الحرب العالمية الثانية نظم الحلفاء منطقة الشرق الأوسط بأكلها باعتبارها منطقة واحدة ، وذلك لكى يضمنوا وصول الموارد اللازمة لكافة السكان المدنيين . وكان هذا الاجراء بمثابة سابقة هامة .

وأخيراً ، يجدر بنا أن نلتفت إلى فكرة حيوية أخرى كانت تسيطر على ذهن الشباب ، لقد ظلت المنطقة العربية ـــ لأكثر من قرن ـــ

مسرحا للقتال والمعارك الدبلوماسية للدول الكبرى. كانت هناك فرنسا أولا، ثم بريطانيا، ثم روسيا، ثم المانيا القيصرية، وإيطاليا .. والحرب العالمية الأولى، ثم التنافس بين انجلترا وفرنسا فى اتفاقيات الصلح. وتنافس دول الغرب والنازى واستخدامهم لأساليب سياسة القوة .. والآن، وبعد الحرب العالمية الثانية يدور السجال بين الغرب والاتحاد السوفيتى.

ورأى الشباب العربى أن هذا التورط المستمر مع الدول الكبرى لايحقق شيئاً سوى الكوارث المستمرة التى تحل بشعب متأخر تقع على عاتقه مهمة جسيمة، ألا وهى بناء مجتمع جديد، لايكفى طرد بريطانيا وإبعادها عن مركز السيطرة، وإنما يجب تحرير العالم العربى وعزله عن الاشتباكات التى تدور بين كافة الدول الكبرى. لقد حركت نفس الفكرة أمريكا الفتية، وكانت تحرك آنذاك الهند الفتية، وكان هذا «الحياد» من أعقد المسائل التى كان العرب فى حاجة إلى محاولة فهمها - لا بالنسبة للعالم العربى وحده، وإنما بالنسبة لمنطقة افريقية وآسيا بأكملها.

واعتقد الكثيرون فى الغرب أن من العار أن يبدى كائن بشرى مفكر رغبته فى «الابتعاد» عن معارك البشرية الكبرى — سواء أكانت معركة الحرب العالمية الثانية ضد الفاشية والتوسع اليابانى العسكرى أو الحرب الباردة ضد الشيوعية. ومع ذلك كان هذا «الابتعاد» هاما جدا بالنسبة للعرب، لم يكن ابتعاداً أيديولوجياً، وإنما كان عبارة عن

تجنب للتورط الاستراتيجى زمن السلم ، وقد يعطينا بيت العنكبوت صورة مفيدة تبرز لنا هذه النظرة . فالعرب يرون أن المنطقة التى تقع فى الشمال مغطاة بأكملها بخيوط عنكبوت هائلة ، ممثلة فى التحالف والتنافس بين الدول الكبرى . فإذا جذبنا أحد أركان البيت إلى الخارج فان الخيوط كلها تنجذب مع هذا الركن .

وهكذا رأى العرب أن تحالفاً واحدا يعقد مع بريطانيا مثلا فى ركن من أركان المنطقة العربية معناه جذب ركن من بيت العنكبوت وتحويله ناحية العالم العربى . ولا صعوبة حينئذ فى أن يمتد البيت بأكمله جنوباً ويغطى المنطقه العربية بأكملها .

وهكذا ساد الشعور بالحاجة إلى حياد موحد .. لافى بلد واحد فقط وإنما فى المنطقة كلها ، تلك المنطقة التى ستصاغ فيها الوحدة العربية ، ولن ينجو العرب — كشعب — من الضغط الذى تفرضه سياسة القوة طالما كان لدولة كبرى سلطان فى جزء من عالمهم .

وهكذا نصل إلى صورة كاملة للملامح الأربعة الكبرى التى ميزت العروبةالفتية — تلك القومية العربيةالتى سنسمع عنها الكثير فى الخمسينيات عندما تظهر هذه الأجيال الشابة على المسرح السياسى .

هذه الأهداف الأربعة المتماسكة هى:الاستقلال،الاصلاح الاجتماعى الوحدة العربية ، الحياد .

اثر فلسطين

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ازدادت هذه الآراء تدعيما وأعقب ذلك سلسلة من الأحداث التي جعلت هذه الأفكار محفورة على الدوام في ذهن الفتيان العرب ، لقد حفرها اليقين اليائس وما أحسه العرب من اذلال كبير فالمصير الذي تعرض له عرب فلسطين وجد اهتماما طويلا من جانب العرب الذين يعيشون في مناطق أخرى، وعندما ثار عرب فلسطين على هجرة اليهود في عام ١٩٣٦ سادت المنطقة بأكملها اضطرابات وتعاطف ومظاهرات احتجاج، وقرارات رسمية، ومناشدات. غير أن هذا الاهتمام وصل إلى أبعاده الضخمة عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧ فلقد بدا أن الغرب مصمم على أن يفرض على المنطقة التي يعتبرها العرب جزءا من وطنهم ، مجتمعاً جــــديداً ومعادياً ، مجتمعاً يطالب زعماؤه بكيان دولة .

وفي التاسع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٤٧ ، وبعد احتجاجات وتحذيرات عنيفة من كافة السلطات العربية داخل فلسطين وخارجها ، صوت ثلثا أعضاء الجمعية بالأمم المتحدة على قرار يوصون فيه بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية ، وسرعان ما انفجرت أحداث العنف داخل فلسطين ، واجتمع أعضاء جامعة الدول العربية وقرروا معارضة أية دولة يهـــودية ، والالتجاء إلى القوة عند الضرورة .

وفي مارس عام ١٩٤٨ كان القتال بين العرب واليهود في فلسطين

قد بلغ من الشدة ماجعل الولايات المتحدة تعلن بعث فكرة التقسيم وتقترح بدلا منها . قيام الأمم المتحدة بأمر الوصاية ، ووافقت الجامعة العربية ، غير أنها قالت انها تعطى بذلك فسحة من الوقت للأمم المتحدة لكى تلبي مطلب العرب فى قيام دولة واحدة تقدم ضمانات للاقلية اليهودية ورفضت الوكالة اليهودية .

وفى ١٥ مارس عام ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطانى وتم إعلان قيام دولة إسرائيل من جانب واحد ، وبعثت الدول العربية بجيوشها التى هزمت وحصل اليهود على أكثر من المقرر الذى حدده مشروع التقسيم الميت فى الامم المتحدة،وكانت هذه الزيادة بنسبة ٣٥ ٪ ،ولم يكن هنالك تنسيق يذكر بين الجيوش العربية المختلفة .

وكانت الروح المعنوية منحطة بين صفوف القوات ، وكان عتادهم هزيلا بل فاسداً فى حالات كثيرة وذلك نتيجة للفساد المستشرى داخل أوطانهم (كانت القنابل تنفجر فى وجوه الجنود،وكانت الذخيرة فاسدة) وانتهى القتال فى يوليو عام ١٩٤٩ بعد أن نظمت الأمم المتحدة اتفاقيات الهدنة بين كل دولة عربية ودولة إسرائيل الجديدة .

وفى موجة القتال شرد أكثر من ٦٥٠٠٠٠ مواطن فلسطينى — وعسكروا فى الكهوف والأكواخ والخيام المنتشرة ورفضت إسرائيل السماح لهم بالعودة إلى منازلهم واستئناف أعمالهم والحصول على ممتلكاتهم وعللت رفضها بأسباب اقتصادية وأسباب تتصل بالأمن .

ويمكننا أن نلخص رد الفعل للهزيمة على النحو التالى : الاستقلال .. إن

بريطانيا هى التى أذاعت وعد بلفور عام ١٩١٧، وبريطانيا هى التى كانت تسيطر على فلسطين وترفض السماح للعرب بحق تقرير مصيرهم بينما استمرت هجرة اليهود حتى عام ١٩٤٨ ، واكتشف العرب فى النهاية أن بريطانيا هى التى «نفضت يديها» ببساطة وتركت المشكلة . الاصلاح الاجتماعى.. لقد أثبتت عهود الأجيال القديمة المحافظة أنها عهود بلغت من الضعف والفساد ماجعلها عاجزة حتى عن محاربة الأعداء . الوحدة العربية . . لقد كشف تاريخ فلسطين كله ، والهزيمة المخزية فى الحرب ، كشفا عن التنافس بين هؤلاء الزعماء ، وعن ضعف الأمة العربية التى لا تستطيع جيوشها أن تحارب متكاتفة . الحياد .. ليست بريطانيا وحدها هى التى سعت إلى فرض إسرائيل على فلسطين وانما كانت هناك الدول الكبرى أيضاً ، ولقد أيدت الولايات المتحدة — بشدة — مطلب الصهيونيين ، وبالرغم من اعتراف وفدها بعبث مشروع الأمم المتحدة ، فإنها اعترفت بدولة اسرائيل بعد قيامها بساعات، كذلك فعل الاتحاد السوفييتى .

والواقع أن اسرائيل أصبحت مكاناً آخر انجذب إليه أحد أركان بيت العنكبوت بيت الدول الكبرى، وبذلك دخل هذا الركن المنطقة العربية .

هذه هى الاستنتاجات العامة التى ظهرت بعد أن اتضح معنى الأحداث. وفى صفوف الجيش نبذ الضباط الشبان كل تردد سابق، وكان رد فعلهم أكبر رد مباشر، وفى مارس عام ١٩٤٩ ، وحتى قبل عقد اتفاقيات الهدنة كان هناك انقلاب عسكرى بسورية ، غير أن رد الفعل هذا أثبت فشله ودخلت سورية مرحلة طويلة من مراحل عدم الاستقرار المزمن .

وظلت الأجيال العربية الشابة تنتظر زهاء ثلاثة أعوام أخرى ، واستمر الشكل القديم للحكومة المنهارة ، عمليات القمع الأوتوقراطية ، التنافس بين دول الجامعة العربية ، والضغط الأجنبي (من أجل عقد أحلاف للخوض فى الحرب الباردة) وأقبل شهر يوليو من عام ١٩٥٢ وتناقلت الأنباء خـــبر قيام ثورة فى مصر ، وخلع فاروق ، وألغيت الألقاب القديمة ، وكان هناك وعد باجراء اصلاحات اجتماعية،ونستطيع أن نقول عن هذا الحادث إنه من أخطر الحوادث فى تاريخ العرب فى القرن العشرين . . كانت مصر أضخم بلد فى الشرق الاوسط ، وأكثره تقدماً فى التعليم والصناعة ، وتحولت عيون المنطقة كلها إلى القاهرة ، لتتفحص الزعامة الجديدة .

***

الفصل الخامس

خرافاتنا عن العالم العربى

وصلنا الآن ، فى قصتنا هذه ، إلى حد فاصل ضخم فى العلاقات بين الغرب والعرب ، ويجدر بنا أن نتوقف عن تتبع الأحداث نفسها لنستعرض الانطباعات التى تجمعت لدى الغرب عن « العرب » وهى الانطباعات التى أثرت ـ خلال السنوات التالية الحاسمة ـ على سياسة الغرب بأكلها تجاه العالم العربى . ونشير بصفة خاصة إلى أن ظهور قومية ـ أكثر شمولا ـ بين صفوف الجيل الجديد ، وبخاصة بعد حرب فلسطين ، قد أثار السؤال التالى : كيف تتصرف الدول الغربية ؟ إن الدبلوماسية الغربية فى حاجة إلى صفتين : القدرة على تفهم أذهان هذه الأجيال الجديدة ومشاعرها والقدرة على إعادة النظر فى مصالح الغرب فى منطقة الشرق الأوسط ، والنظر فيما إذا كانت القومية العربية الجديدة تعرض هذه المصالح للخطر غير أننا إذا تطلعنا إلى الوراء ونحن فى عام ١٩٦٠ اتضح لنا أن ساسة الغرب فشلوا فى الناحيتين .

وسنتعرض للأسباب بالتفصيل فى فصول تالية ، ولكن ، لن يضيرنا أن نشير إليها هنا . أولا : لقد ظلت دوائر الغرب الرسمية على طريقتها القديمة فى النظر إلى الشرق الأوسط على ضوء الجيوش ، والقواعد العسكرية

وفى نفس الوقت لم يخفف العرب من شكهم وعدائهم العميق لهذه النظرة الغربية : لقد سادت الحرب لفترة طويلة جداً ، بدلا من أن تسود المساواة والثقة المتبادلة . ثانياً : ظهرت الحاجة إلى حماية الدولة اليهودية نتيجة لقرار الغرب بالسماح بقيامها فى فلسطين ـ وظل هذا الوضع يعرقل أية فرصة ممكنة لحدوث اتفاق بين الغرب والعرب . ثالثاً : تضخمت نظرة الغرب الاستراتيجية نتيجة لازدياد حدة الحرب الباردة مع الكتلة السوفييتية ، وكانت النتيجة جهودا مستمرة لعقد أحلاف جديدة مع الحكام العرب ـ نفس الحكام الذين لا تثق الأجيال العربية الجديدة بسياستهم فى الداخل .. ولكن وراء كل عامل من هذه العوامل التى حالت دون ظهور نظرة غربية جديدة ، وكان هناك عامل آخر ، أشد وطأة ، عامل لا يؤثر على الساسة وحدهم ، وانما يؤثر على الرأى العام فى الغرب كان هناك ضباب من الخوف والمعلومات الخاطئة عن العرب ، وامتد هذا الضباب بين الدول الغربية والأجيال العربية الجديدة . فى أعماق ميراث الغرب الحضارى كله كانت هناك مجموعة من الصور من المنطقة وشعبها ، وعزز هذه المجموعة طابع الاتصالات الجديدة بين الغرب والعرب فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولم تكن هذه الصور دقيقة صادقة بأية حال من الأحوال .

كان العالم الغربى ينظر إلى العرب ، والإسلام نظرة معادية لدرجة كبيرة ، واستمر هذا لاكثر من ١٢٠٠ عام ، وكان إدراكه لها أطول وأعمق من إدراكه لأى منطقة أو حضارة أخرى فى العالم . ولقد

ظهرت منشآت مسيحية غربية فى العصور الوسطى فى نفس الوقت الذى واجه فيه أسلافنا نمو امبراطورية العرب الاسلامية ، وكانت أعظم قصائد أوروبا عن الفروسية تتناول المعركة المسيحية ضد الخطر العسكرى للعرب « المسلمين » وضد هرطقتهم الدينية ، وظل أطفال المدارس فى الغرب يطالعون لقرون عدة **Chanson de Roland** «أغنية رولان» من أن أعداء رولان هم أتباع محمد المتوحشون ذوو الأسلحة الذهبية ، بالرغم من أن أعداءه الحقيقين فى رونسفال كانوا لصوصاً يرتدون شارات مسيحية . واستمر هذا الموضوع الدائر حول الخطر والتهديد الدينى ، بارزا فى أساطير الحروب الصليبية ..

وفى ثقافة الغرب نجد أن مفاهيم الشجاعة والوطنية والشرف والاحساس بالرسالة ، تستمد وجودها من هذا الموقف المعادى للعرب والاسلام .

وحتى بعد أفول نجم هؤلاء العرب بعد أن هزمهم الاتراك العثمانيون ظل هؤلاء الغزاة يكملون الصورة المعادية ، لانهم كانو مسلمين ، وهددوا قلب أوروبا نفسه وأقاموا مذابح شنيعة حتى فى سبعينيات القرن التاسع عشر . ونستطيع أن نحدد الصورة التى كانت لدى الغرب ـ والتى ما زالت مترسبة فى لاشعورهم ـ على النحو التالى : أن العرب بربريون ، وهم أعداء المسيحية لا لأنهم ينادون بالهرطقة فحسب ، وانما لأنهم يقتلون كافة المسيحين (بالرغم من أننا رأينا كيف أن امبراطورية الغرب الأولى كانت قائمة على التسامح) ، وهم أعداء أوروبا الالداء بسبب هذا كله ولانهم

دخلوا بجيوشهم ذات مرة إلى قلب فرنسا نفسها ، واتجهوا بعد ذلك إلى فيينا (والغرب هنا يخلط بين الأتراك والعرب) .

وعلينا ، بطبيعة الحال ، أن نضيف إلى هذه الصورة رد الفعل العام للحضارة الغربية تجاه الشعوب الملونة ، أن الغرب فخور ، لدرجة هائلة بالانتصارات التى حققتها مدنيته ، وبينما استمر فخره وايمانه بقدرته على التقدم ، ازداد اتصاله بالشعوب الملونة «المتأخرة» .

ووصل هذا الاجراء إلى مرحلة اعتقد فيها الغربيون ـ بصورة جازمة ـ أن البشر ذوى البشرة البيضاء يتمتعون بكفاءة متفوقة كامنة ، ومازالت هذه العقدة ، عقدة التفوق الجنسى كامنة ، بالرغم من أن العلم يدحضها اليوم . فعلينا أن نضيفها إلى وجهات النظر التى أثرت على موقف الغرب الحديث من العرب .

ومنذ القرن التاسع عشر تشكلت فى ذهن الغرب صورة ثانية حية ، ونستطيع أن نسميها جاذبية الصحراء والبدو ، لقد علمنا الانجيل ، واتصالات الغرب الأولى بالعرب ، أن الشعوب التى تعيش فى الأرض المقدسة وما حولها هى قبائل رحل تركب الجمال والجياد والحمير ، وتعيش فى فياف من الرمال .

والواقع أن هذا الكلام كان ينطبق تماماً على العرب القدامى ـ كما رأينا ـ وقد ظل ينطبق أيضاً على مساحات شاسعة من العالم العربى فى القرن التاسع عشر .

ومما دعم هذه الصورة للعرب وعالمة تجول الرحالة الغربيين والدارسين .

والمسئولين عبر المنطقة ، وذلك فى القرن التاسع عشر وظهر فى أدب الغرب موضوع جديد يدور حول المغامرات - إنه موضوع الغرب الجرىء الذى يجوب صحارى لا حدود لها ، ويكافح الشمس المحرقة ، والخلق الذى يتوق إلى قطرة ماء ، والسراب والأخطار البشعة التى يمثلها رجال القبائل العربية القساة الذين تنشق عنهم الرمال فجأة ، ودعمت هذا الموضوع حكايات جوردون وكتشنر فى السودان (يكفى أن نفكر فى فيلم «الريشات الأربع» وعدد من القصص عن الفيلق الأجنبى) .

وكما سبق أن أشرنا ، حدث خلال الحرب العالمية الأولى أن فتشت بريطانيا عن زعيم عربى (حسين) ليتزعم ثورة العرب على الاتراك ، وكان حسين ينحدر من إرستقراطيين عرب يقطنون الصحراء ، وكان محاربوه من البدو ، أما البريطانى الذى ارتبط بعد ذلك بهذه القصة فهو الكولونيل لورانس « لورانس الجزيرة العربية » . وفى أعقاب الحرب الكبرى مباشرة شاعت مغامراته فى جميع أنحاء العالم الغربى - عن طريق المحاضرات والعروض السينمائية ، والمقالات الصحفية ، والكتب التى ألفها هو والتى ألفها غيره . والصور التى تمثله وهو يرتدى الرداء الملون لمحارب الصحراء البريطانى الغربى « ملك الجزيرة العربية غير المتوج » وفى نفس الوقت الذى شاعت فيه هذه القصة بين صفوف الجماهير ظهرت قصة رودولف فالنتينو وشيخه ، وأدخلت على هذه القصة فكرة جديدة غريبة : إنها صورة زعيم الصحراء العربى ، النبيل المهيب ، الذى يعيش وفقا لقانون خاص به ، قانون الشرف والفروسية ، والذى يختطف

العذارى الرقيقات (أى البيض) إلى مقره النائى فى الصحراء ، إلى أن يخف لنجدتهن ضباط نبلاء (أى بيض) .

وفى نفس الوقت إلى حد كبير ، تأثر المثقفون الغربيون بالكتب الجاده عن الصحراء العربية التى كتبها لورانس وغيره . إن الصحراء ذات سحر وجاذبية ، إن الغربى فريسة عصر الآلة الممل المزدحم ، وفريسة الدخان والضغط الناتجين عن حياة التصنيع ، أما الصحراء فنظيفة مثيرة . إنها المكان الذى يستطيع الإنسان أن يتنفس فيه بعمق ، ويختبر نفسه إلى أقصى حدود الاختبار ، ويصبح وجها لوجه مع المطلقات الكبرى للوجود الإنسانى ، وكان لهذه الصحراء فى معظم الحالات ، نفس السحر النابع من قمم الجبال الشاهقة أو المحيطات الشاسعة ، أحس بهذا الذين يعرفون الصحراء ، والذين لا يستطيعون سوى تصورها وهم جالسون على مقاعدهم الوثيرة فى مدن الغرب ، غير أن فى الصحراء العربية ما هو أكثر من ذلك ، إنها تحتوى على أناس ، وعلى قبائل من البدو الرحل الذين يبدو أنهم منسجمون مع هذه البيئة الساحرة ، ويبدو أنهم يرون الحياة — إلى حد كبير — فى ظل المطلقات الواضحة للصحراء نفسها ، وبدا للغربى أن البدو ليست لديهم الشكوك والمخاوف والقلق المنطق المتأصل فى جذور حضارة القرن العشرين ، المنطقية المادية ، إن تراث البدو ذو طابع نبيل ويبدو أن الارستقراطية تجرى فى دمائهم ، وهم يعتزون بأسلافهم (والغرب يحن ويتوق إلى إرستقراطية كهذه) ودياناتهم بسيطة ، وهى تظهر على أروع ما تكون فى الصحراء ، وبالنسبة للغالبية من الغربيين ».

كان منظر البدوى الذى يركع تجاه مكة التى لا يراها ، ويصلى لرب لا وجه له أو شكل أو كنيسة أو ايقونة وسط مساحة ضخمة من الرمل النظيف الجميل ، كان هذا المنظر مقلقا ومحيراً لدرجة هائلة .

وهكذا دخلت هذه الصورة الجديدة ، الايجابية نوعا ما ، إلى حضارة الغرب ، وفى نفس هذه الفترة من فترات التاريخ افتتحت الحكومات الغربية الثلاثين عاما الانتقالية التى ارتبطت خلالها بالشرق العربى إرتباطا وثيقاً ، وكان هذا الاتصال خاصة بالنسبة لبريطانيا ، اتصالا بالعرب النبلاء الارستقراطيين الذين يعيشون فى الصحراء . ومنح الملك عبد الله عرشا فى شرق الأردن ، وظل المسئولون البريطانيون — قرابة ثلاثين عاما — يعملون معه ومع جيش من البدو الذى أصبح بعد ذلك « الفيلق العربى » الشهير الذى يعمل تحت قيادة جلوب باشا ، وفى العراق توجت بريطانيا آبنا آخر من أبناء حسين — الملك فيصل الأول — وتعاونت مع هذه الأسرة واعتمدت عليها فى سياستها فى الشرق الأوسط حتى عام ١٩٥٨ ، وكانت هذه الروابط طبيعية للغاية . كانت تعبر عن سحر الصحراء والبدو وأشبعت سعى بريطانيا الغريزى ، وراء تراث وإرستقراطية بين صفوف العرب ، باعتبار هذا أفضل أشكال الزعامة ، وهذا هو ما كان يتوقعه الرأى العام الغربى على وجه التحديد .

ومع ذلك ، كان هناك جانب آخر لهذه الصورة العربية القوية كان هناك المدن التى تنمو بسرعة ، والبلدان والموانى الساحلية داخل العالم

العربى ، والتى اتصل بهـا ملايين الغربيين اتصالا وثيقاً ممثلا فى جيوش حربين عالميتين ، وفى الاحتلال والحاميات الموجودة بمقتضى معاهدات ورحلات رجال الأعمال والسياح ، والواقع أن كل ما تقع عليـه العين فى هذه المدن العربية كان سلبيا ومزريا .

وكانت هذه الانطباعات تتراوح بين باعة مزعجين يبيعون التذكارات والبطاقات القذرة فى عـــدن وبورسعيد وأسواق وأزنة ، بمـا فيها من بشاعة ولصوصية وتجار شرقيين ماكرين وأماكن معتمة مريبة تفتح فى الليل ، وبين رعاع الشارع بعنفهم وعندما يرى رجل الغرب عربياً يصلى وسط هذه الأشياء موليـا وجهه شطر مـكة يتذكر كل ما هو سلبي حول الاسلام ، ويقارن بينه وبين الصورة المثالية للاسلام وسط الصحراء .

أضف إلى هذا أن نفوذ الحضارة الغربية فرض وجودها فى العالم العربى المتحضر بالذات ، وكان رجل الغرب العادى يرى النتيجة فيشعر بالاشمئزاز . وهنا كانت الانطباعات كثيرة ومتعددة أيضاً ، لقد بدا أن الأثرياء يحاولون منافسة المستويات الغربية دون ذوق أو ضابط ، غير أن من الممكن — على الأقل — احتمالهم فمن الواضح أنهم « أفضل الناس سلوكا وتحضرا » وهم يلون فى المرتبة تلك المنازل النبيلة لارستقراطي الصحراء (الذين يتمتعون بهيبة كبيرة . وإن كانوا أقل تعليما) وبعد الأثرياء جدا نجد محدثى الثراء ، ثم تليهم الطبقات الوسطى من التجار والموظفين . ولم يكن هناك مفر من أن ينظر البريطانى إلى هذه الطبقة

باحتقار — وهو متأثر فى هذا بأيام الأمبراطورية ، حين كان الوطنيون من ذوى الياقات البيضاء فى المستعمرات ، أشد الناس عداء ، وعبودية فى نفس الوقت . ومن هذه الطبقة الوسطى وجد الغربى قوانين حضارته تصرخ فى وجهه ، وانزعج وهو يرى حكومته لاتطبق فى العالم العربى ماتنادى به . وما تطبقه فى بلادها .

وكان من الطبيعى أن يخرج « متطرفو » الثلاثين عاما ضد الحكام الاستقراطيين الذين أعجب بهم البريطانيون وأيدوهم ، وكانوا ضد بريطانيا وكانوا « يحرضون دائماً على الفتنة والشغب » ومن بين هذه الطائفة الطلاب الذين تحدثنا عنهم فى الفصل الماضى والزعماء السياسيون الذين يعارضون أو يقضون أيامهم فى السجون، والذين يحركون دائماً «الغوغاء» (الذين يتسألفون من العربى الفقير جدا ، الساخط ، المتطلع إلى هذه الأجيال الشابة) .

وموجز القول أن الغرب رأى فى العربى الشاب الذى يعيش فى المدن شخصاً سيئاً ، أما شيوخه المحافظون « فصالحون » — خاصة إذا كانوا ينحدرون من الارستقراطيين الذين يقطنون الصحراء — ويجب تأييدهم وحمايتهم بما يتفق ومصالح الغرب ، وأخذ هذا الميل الطبيعى ينطبق — باطراد — على الواقع السياسى .

فالعربى « الصالح » هو الذى يسمح لدول الغرب — عن طواعية — باقامة القواعد ، والعربى « الصالح » هو الذى يوقع على الأحلاف ، وهكذا أصبح العربى « الصالح » مواليا للغرب ، أما الذين يعارضونه ، أما العرب

« الأشرار » فعادون للغرب ، وليس من المستبعد أن يكونوا شيوعيين، فاذا حدثت مظاهرة فى بغداد ، قال نورى السعيد للسلطات البريطانية: إنها من صنع « الشيوعيين » وبرر بهذا لقيام قمع تفرضه دولة بوليسية أخذ سلطانها يمتد بمرور السنين .

وأخيراً ، يجدر بنا أن نهتم بعاملين آخرين من العوامل التى أثرت فى فكرة الغرب عن العالم العربى ، فهناك كراهية عميقة لـ « المصرى » متأصلة فى حضارتنا ، ولهذه الكراهية أسباب عدة ، يتصل أحدها بكتبنا المقدسة ، أما الآخر فيتصل بالاشمئزاز الذى تشعر به مدنية غربية متفوقه جداً إزاء شعب انحدر من أول مجتمع منظم ، ومع ذلك تردى إلى هذه الهوة ، وتردى فى مثل هذا الفقر والمرض ، ومع ذلك فهناك سبب آخر لهذه الكراهية للمصريين، ويكمن فى تنوع التيارات الحضارية التى مرت بمصر وخاصة ذلك الطابع « التركى » للطبقة الحاكمة ، وهى الطبقة التى اتصل بها الأوروبيين حتى القرن العشرين .

والمصرى الحديث المثقف أكثر « سفسطة » من أخيه فى العالم العربى ولكن بطريقة محيرة مراوغة ، تزعج كثيراً من الغربيين ، أضف إلى هذا أن عدداً كبيراً من الغربيين ، وبخاصة البريطانيين ، قد مروا فى مصر بتجربة سيئة لم يمروا بها فى أى جزء آخر من أجزاء العالم العربى فالكثيرون من البريطانيين العاديين ـ الجنود ـ قد عرفوا الأخطار والأمراض أثناء احتلالهم لمصر ، وتسربت من مصر إلى الغرب ، المزيد من القصص عن الهجمات العدائية . مثلما كان يحدث فى قبرص ، وعن التعصب الدينى .

فاذا كان لكلمة « مصرى » إستجابة سلبية خاصة فى ذهن الغربى فان هناك عاملا آخر أيضاً ، ان المصريين من أقدم شعوب الأرض . وإذا طبقنا الشعور بالجنس العميق افترضنا بصفة عامة ، أنهم « جنس منفصل عن العرب[١] » (بالرغم من أننا رأينا كيف أن الجنس لا يتصل بمن هو العربى) . ظلت مصر عربية ـ فى الثقافة واللغة ، زهاء ألف عام ، غير أن طبيعة القومية المصرية نفسها دعمت الرأى القائل بأن « مصر ليست عربية » إلى وقت قريب ، فلقد ظلت هذه القومية حتى الخمسينيات تركز جهودها فى مشاكلها مع بريطانيا ، ومشاكلها فى الداخل ومع السودان .

وكان من نتيجة هذه المؤثرات مجتمعة أنه عندما رأى الغرب ضابطاً مصرياً شاباً يتزعم حركة قومية « متطرفة » أخذت تنتشر بمرور الأعوام لتشمل العالم العربى بأكمله ، كان من السهل عليه أن ينتهى إلى استنتاج واحد . لابد أن هذا التيار القومى مصطنع ، وازداد استنتاج الغرب تدعيما حين رأى أن العرب الذين أخذوا يرحبون به باعتباره زعيمهم كانوا من شباب المدن العرب الذين يعارضون شيوخهم عرب « سيئون » يعارضون عربا « صالحين » ، وعندما سارت المظاهرات ضد المستر سلوين لويد عند زيارته للبحرين عام ١٩٥٦ ، سارع تابعوه (وأمراء البحرين الكبار) يؤكدون له أن « ناصرا » هو السبب فى هذا كله » . وبدا هذا الرأى معقولا وجيها .

---

(١) هذه مزاعم الغرب التى دحضها علماؤهم .

وفى خلال الصفحات التالية سنرى كيف أن خرافات الغرب وتحيزه ومخاوفه ومغالطاته عن « العرب » كانت تعمل عملها المرة بعد الأخرى وليس من الغريب على شعب يعيش فى منطقة ـ أو داخل حضارة معينة أن تكون لديه أفكار خاطئة عن شعب آخر ـ والواقع أن قسطاً كبيراً من التوتر العالمى ينشأ عن هذا السبب وقد كانت لدى الغرب أفكار خاطئة عن شعوب أخرى غيرغربية، و« غير بيضاء » . والعكس بالعكس غير أن الحقيقة التى لها دلالتها أن « الصور » التى تكونت لدى الغرب عن العرب كانت مستمرة وملحة وسلبية أكثر من أى صور تكونت لدى الغرب من جماعات حضارية تتحداه ، وفى اللحظة التى اشتدت فيها الحاجة إلى فهم صحيح للعرب عززت مؤثرات جديدة (كأسطورة لورانس) المؤثرات التى تكونت فى القـــرون الأولى ، وظل طابع الحكومات التى ألفتها الدول الغربية هنـاك يعزز هـذا الانطباع الخـاطىء .

ونحن بحاجة إلى أن نسلط الأضواء على ماينطوى عليه الوضع من تناقض مضحك ، إن الغرب نفسه هو الذى قدم لـ « العروبة الفتية » الكثير من ايديولوجيتها ـ وبخاصة النزعة الحديثة لتكوين أمة ذات طابع ، والرغبة الجامحة فى الاصلاح الاجتماعى . . وظل هؤلاء الشباب من الفتية والفتيات يتعلمون فى جامعات الغرب ومعاهد الشرق الأوسط المتأثرة بالغرب ، زهاء ثلاثين عاما ، وعرفوا هناك تلك الأهداف التى أنكرها عليهم ساسة الغرب و « أصدقاؤهم » من العرب ، وخلال كل

أزمة حدثت فى العشر سنوات الأخيرة تلمح هذا الموقف المضحك ، إن الغرب عاجز عن فهم قوميـــة العرب المتحضرين ، والوصول إلى تفاهم معهم .

وما زالت الخرافات القديمة مستمرة إلى اليوم ، بصورها المختلفة ـ ذلك لأن خرافات كهذه يندر أن تكون لها صورة واحدة وحتى لو سألنا اليوم مائة شخص عادى فى الغرب « ماهى فكرتك عن العربى الحقيق » ؟ لكانت الصورة التى ترسمها الغالبية صورة بدوى من القبائل فى ردائه العربى الفضفاض وعقاله ، وقد امتطى صهوة جواد أو ركب جملا، ومعه بندقيته ، ووراءه الرمال والنخيل النامى فى الواحات (وربما بئر من (البترول) ومع ذلك لايزيد عدد رجال القبائل الرحل أو ماشابههم عن ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة من بين ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى الشرق الأوسط ، وفى أكبر المدن (التى يبلغ عددها عشرين مدينة) يعيش خمس سكان الجزء الأوسط والشرقى من العالم العربى ، وليست هذه الظاهرة مجرد تطور مفاجىء حدث فى السنوات القليلة الماضية . فالمجتمع العربى فى تطوره خلال القرن قد تميز بالتحضر ، خطأ أسطورة البدو فى مصر منذ قيام الدولة الحديثة بعد محمد على .

(ومع ذلك حدث فى عام ١٩٥٥ ان كان أحد ضباط البحرية الامريكية المثقفين يتحدث مع ضابط مصرى فى ايطاليا ، فلما عرف منه أنه يعيش فى القاهرة سأله فى لهجة حادة: « صحيح ؟ وهل تضرب خيمتك بالقرب من النيل ؟ »

وفى التطبيق العـام لخرافة البدو ، نجـد أنها موجودة بالفعل فى كل صورة كاريكاتورية سياسية ، وفى معظم قصص الأطفال الحديثة فى حكاياتها عن مغامرات الصحراء .

وبنفس الطريقة أدت مخاوف المسيحية القديمة إلى رد فعل سلبى من جانب الغرب تجـاه « الوحدة العربية » وتجـاه ذلك الشبح ، شبح « امبراطورية ناصر » التى تعتبر فى حد ذاتها ثمرة من ثمار الآراء التى تبيناها فى هذا الفصل . ان العقل الغربى يشعر بالضيق حين يفـكر فى العرب الذين يتحدون فى حركة ضخمة موحدة ، وأن عبارة « القومية العربية من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى » لتثير قلقاً يبلغ من العمر قروناً عدة بينما تترسب فى اللاشعور صورة لمسلمين متوحشين يقطعون رؤوس المسيحيين بسيوف معقوفة. وفى عام ١٩٥٨ نشرت « لايف » مقالا عن دعوة ناصر إلى إقامة إمبراطورية ، ونشرت معه صورة ضخمة لناصر ملأت صفحة كاملة وفيها يتحدث أمام الميكروفونات وأمامه علم ضخم عليه سيف معقوف . وتحت الصورة «جمال عبدالناصر» يمجد مفاخر الجمهورية العربية تحت راية تحمل الاسـلام » (لم يكن التعليق دقيقاً بالمرة : فالجمهورية العربية المتحدة أول دولة فى العالم العربى تضع دستوراً دنيوياً ، والعلم المشار اليه لم يكن سوى علم اليمن) .

يهمنا اذن . ونحن نستعرض التاريخ الحديث للصراع بين العرب والغرب ، أن نضع فى اعتبارنا هذه المؤثرات الحضارية ، وتلك الصور المخيفة الخاطئة . والفكرة القائلة بأن كافة العرب من البدو الرحل فى

الصحراء قد تحولت بمهارة إلى فكرة تجزم بأن كافة العرب «الصالحين» ينحدرون من أرستقراطية الصحراء وكانت النتيجة أن عميت أبصار العرب عن رؤية جيل حضرى جديد يعبر عن قومية عربية متحضرة شاملة، يقف بها فى وجه شيوخه الارستقراطيين والمحافظين، وفى وجه الدول الغربية. ولأن ساسة الغرب أرادوا قواعد استراتيجية واستطاعوا أن يحصلوا عليها من الشيوخ الأرستقراطيين، ولأن الشباب العربى رفض مثل هذه الأحلاف، ولأن زعيمهم لم يكن «عربياً» فى نظر الغرب، اندفعت سياسة الغرب نحو الكارثة. واستمر هذا الاجراء الكئيب حتى ذلك اليوم من عام ١٩٥٨ عندما مات كل «أصدقائنا» أو قضت عليهم الثورة أو حمتهم أساطيل الغرب ومظلاته من سخط الجماهير. وعندما بدأ الغرب يفيق من هذه الصدمة بدأت حركة شيوعية حقة فى نفس البلد العربى الذى تركزت الخرافات والافتراضات العنيفة على سادته الاقطاعيين والارستقراطيين.

الفصل السادس

العروبة الفتيـــــــــة تثور

لم تبسط « العروبة الفتية » سلطانها فى أى بلد عربى إلا بعد مرور ثلاث سنوات على « القشة الأخيرة » فى أحداث فلسطين . وفى السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، وبعد ثورة بيضاء ، أبحر فاروق بعيداً ، إلى منفاه ، وبدأ ضباط الجيش الشباب يحاولون تدعيم هـذا التحول التاريخى الذى حدث فى مصر ، وكان البكباشى جمال عبد الناصر هو الذى تزعمهم فى جميع المراحل .

وبمجرد أن نجحت الثورة برز السؤال التالى : أى شكل من أشكال الحكم يصلح لمصر ؟ وحبذ البكباشى فكرة إعادة الديمقراطية البرلمانية وعارض زملاؤه الضباط فى ذلك . غير أنهم وافقوا فى النهاية ، وطالب من حزب الوفد أن يؤلف حكومة على شريطة أن تجرى هذه الحكومات الاصلاحات الأساسية وبخاصة الاصلاح الزراعى . ورفض الوفد ، ومن هنا بدأت شكوك ناصر فى جدوى التعجيل بالديمقراطية الغربية فى مصر . وصدر قانون الاصلاح الزراعى . وخلال عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ تكالبت على مصر الثائرة أزمة تلو أزمة ، ذلك لأن الجماعات المختلفة — من الشبان المسلمين ، والشيوعيين ، وأحزاب العهد البائد —

كانت تحاول الإمساك بزمام السلطة ، وتأجلت الانتخابات . لقد افترض الضباط الشبان أن الجيش سيلعب دور المراقب فقط ، غير أنهم تأكدوا بمرور الوقت أن انسحابهم من ميدان السياسة أمر مستحيل .

وخلال هذه الفترة كان الوطنيون العرب يراقبون مصر عن كثب ولم يكونوا على يقين من طابع الثورة التى قامت بها ، أو نوع القيادة التى ستظهر فى النهاية . وكان اهتمامهم شديداً ، ومستمراً ، ذلك لأن مصر كانت أكبر البلدان العربية وأكثرها تقدما ، وهى تقع فى قلب العالم العربى ، وفى قلب الحضارة العربية ، وهى أول من ثار على الحكومة الرجعية المنهارة . وما الذى ستفعله مصر الجديدة فى ميدان الشئون الخارجية ؟ .

كانت هناك أربع مسائل كبرى :

١ ـ جلاء الجيوش البريطانية ٢ ـ مستقبل السودان .

٣ ـ دور مصر فى العالم العربى ٤ ـ علاقتها بالدول الكبرى .

وبدأ الوطنيون « يختبرون » مصر فى هذه المسائل ـ كما بدأوا أيضاً يختبرون اهتمام ضباطها ـ الواضح ـ بالاصلاحات الاجتماعية .

وتم الاتفاق أولا فيما يتعلق بالسودان ، فقد اقترحت حكومة الثورة على بريطانيا أن يتاح للسودانيين [illegible] بالاختيار بين الاتحاد مع مصر أو الاستقلال . ووافقت بريطانيا ، وسار السودان سريعاً نحو حكم نفسه بنفسه . غير أن قلق مصر التقليدى على بلد يسيطر على شريان حياتها

(مياه النيل) ظهر مرة أخرى فى صورة تدخل كبيرة فى شئون السودان. ولكن البرلمان السودانى اختار الاستقلال فى النهاية، وقبلت مصر اختياره.

وكان الاتفاق الانجلو مصرى حول السودان بمثابة تعبيد للطريق أمام محادثات الجلاء، وهى أكبر مشكلة شائكة، ورأى ساسة الغرب أن هذه المسألة مرتبطة ارتباطا تاما بالمشاكل الاستراتيجية للحرب الباردة. وفى عام ١٩٥٣، وقبل اتفاقية الجلاء، قام دالاس، وزير الخارجية الأمريكية، بزيارة القاهرة للتباحث مع حكومة الثورة (التى رحبت بها أمريكا فى البداية) وأوضح للبكباشى ناصر مدى الحاجة إلى حلف دفاعى جديد عن الشرق الأوسط، وبهذه الطريقة، وبطرق أخرى صغيرة وكثيرة، تضغط أمريكا على بريطانيا لكى تنسحب من مصر، ورد ناصر عليه قائلا إنه يعارض اية أحلاف بين دول كبرى وأى جزء من أجزاء العالم العربى. واستطرد متسائلا : ما جدوى « استراتيجية الخطوط » عندما يكون الخطر الحقيقى هو وجود « هجوم من الداخل »؟ وقال ناصر لوزير الخارجية الأمريكية إن الدفاع السليم عن العالم العربى ضد أى سيطرة خارجية يجب أن يتمثل فى « قوة تجمع شمل العرب » وهم يبنون مجتمعهم الحديث - انها قوة القومية. وعاد المستر دالاس وهو غير مقتنع، وقد أحس بخيبة أمل، غير أنه استمر يضغط على انجلترا لكى توقع على اتفاقية الجلاء.

وأخيراً تم الاتفاق فى عام ١٩٥٤، وتضمن الاتفاق تسوية من جانب مصر، تسمح للمدنيين البريطانيين أن يحتفظوا بقاعـــدة منطقة القنال الضخمة لمدة سبع سنوات، كما تسمح للبريطانيين بالرجوع اذا ما تعرضت تركيا، أو أى بلد فى الجامعة العربية، لهجوم من دولة أجنبية. ووقع

ناصر على هذه التسوية التى لم تجد ترحيباً (إن تسوية مع بريطانيا بعد ٧٢ عاما كان لابد ألا تجد ترحيباً) . وأكد أمام الجميع أن مصر حيادية فى زمن السلم، وعارض كافة الاحــلاف غير العربية . غير أن سياسته لم تذبت.واستغل الاخوان المسلمون الاتفاقية التى لم تلق ترحيباً.وفى صيف عام ١٩٤٥ ،وبعد أحداث متكررة، منها محاولةاغتيال ناصر فى مؤتمر شعبى عقد بالاسكندرية ، تم قمع الاخوان المسلمين بصفة نهائية .

وفى هذا العام نفسه ظهرت دلائل تصميم جديد بين صفوف الوطنيين العرب فى أنحاء المنطقة.وتضاعفت المقاومة ضد الحكم الفرنسى فى مراكش. وكانت هناك مقاومة مماثلة فى تونس، مما أجبر منديس فرانس على التفاوض مع التونسيين لكى يحكموا بلدهم بانفسهم. وفى نوفمبر سنة ١٩٤٥ بدأت ثورة الوطنيين الجزائريين التاريخية . وأبدت مصر تعاطفاً كبيراً مع هذا التوتر فى المغرب العربى ، وفى مايو من عام ١٩٥٤ ألف الوطنيون فى بلدان شمالى افريقية الثلاثة لجنة التحرير التى انعقدت فى القاهرة. وفى أقصى الشرق وفى الاردن ظهرت بوادر ضغط قوى على النظام السياسى القديم الذى أقرته بريطانيا . لقد تغير طابع السياسة الأردنية بأكمله منذ عام ١٩٤٩ ، عندما ألحقت الضفة العربية - البقية الباقية من فلسطين (الواقعة بين خط الهدنة الشرقى لاسرائيل ونهر الاردن) ألحقت بما كان يسمى شرق الاردن . وأصبح ثلثا السكان من العرب الفلسطينيين ، وكانوا يمثلون القومية العربية المتحضرة، ونصفهم من اللاجئين ، غير أن لهم حق التصويت . وفى عام ١٩٥٤ كان هناك تصويت عام تم تنظيمه بمهارة لكى يخفى مطالب هــذه الغالبية القلقة . وكانت له دلالة كبيرة .

فى سورية ، فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤ أعادت الانتخابات إلى البرلمان عدداً كبيراً من نواب حزب البعث ، الذى ألفه المثقفون والساسة الذين تعلموا على يد الغرب ، والذين نادوا بالحياد ، والاشتراكية والوحدة العربية العاجلة المتماسكة . . وفى العراق ، رأى نورى السعيد حل جميع الأحزاب السياسية ، وتعطيل البرلمان الذى تم اختياره فى الماضى للمحافظة على الوضع الراهن .

موجز القول أن علينا أن نلاحظ وضوح الدلائل التى تشير إلى قيام عروبة فتية وازدياد نفوذها فى كل منطقة حساسة بالعالم العربى .

حدث هذا عام ١٩٥٤ والبكباشى ناصر قد برز كزعيم للعروبة الفتية ورمزها الشعبى . . وإذا لم تكن قومية المغرب داعية إلى الوحدة بالصورة الموجودة فى الشرق الأوسط ، إلا أنه كان من الواضح أن المغرب وصل إلى مرحلة جديدة عنيفة وكانت هذه المرحلة تحرك وتتحرك بالأحداث الدائرة فى الوسط والشرق ..

ومع ذلك كانت دول الغرب مشغولة بنظرة مغايرة تجاه مشاكل المنطقة . . لقد انتهت الحرب فى الهند الصينية ، وتم الوصول إلى الحل الأخير فى جنيف ، وفتح هذا مرحلة جديدة فى سياسة الحرب الباردة .

وصارهم الغرب الأول ربط حلف الاطلنطى فى أوروبا بمواقع الغرب الاستراتيجية فى آسيا .. وفى اليابان والفليبين واستراليا ..وألح المستر دالاس على تكوين منظمة حلف جنوبى شرقى آسيا ، وسارعت باكستان بالانضمام إلى هذا الحلف ، وهى التى كانت تتلقى معونة عسكرية من الولايات المتحدة

وظلت هناك بعد ذلك حاجة إلى استكمال هذه الشبكة الاستراتيجية بين باكستان وتركيا (فى منظمة حلف شمال الاطلنطى) وفى الشرق الأوسط وفى أواخر عام ٩٥٤. كانت تركيا وباكستان قد عقدتا معاهدة، ووقعت العراق على اتفاقية تتلقى بمقتضاها معونة عسكرية من الولايات المتحدة . وارتأى الغرب مد شبكة الاتفاق إلى العراق وإلى حقول البترول الهامة هناك ، وكان يأمل أيضاً أن تؤدى عضوية العراق إلى تشجيع الدول العربية الأخرى على الانضمام .

وعند التطلع إلى الوراء (ذلك لأن الغرب لم يفهم تلك النقطة فى حينها) نجد أن دول الغرب الثلاث جوبهت فى نهاية ١٩٥٤ بقرارات قد تؤثر على العلاقات بين الغرب والعرب لسنين عدة.

ولقد كانت الدلائل واضحة (لولا أن الساسة لم يلتفتوا إليها) على أن النظام السياسى بأكمله كان يمر فى العالم العربى باهتمام جديد من القاعدة . وفى قلب العالم العربى ، فى مصر ، كانت القيادة الثورية قد عقدت مع بريطانيا اتفاقات فتحت الباب أمام تحسين العلاقات، غير أنها كانت تخضع للاتجاهات المصرية التى لا يمكن أن يكون هناك شك كبير فيها . وإذا كان المسئولون فى لندن قد مالوا إلى التشكك فى جدية ادعاءات ناصر الحيادية ، إلا أن أحداث عام ١٩٥٥ أكدت أن حكومته لن تصبر بأية حال من الأحوال على سياسة غير حيادية .

أما فى المغرب العربى ، فقد كانت القومية تتحدى ـ بصراحة ـ سلطات فرنسا فى الأقاليم الثلاثة . . وفى الشرق العربى ـ محور السياسة البريطانية

التقليدى ـ كانت حكومة نورى السعيد مكروهة بصورة كبيرة ، بالرغم من أنها لم تدخل فى أحلاف جديدة مع الدول الغربية .

كان من الضرورى إذن أن يسأل الغرب نفسه هل سيخدم مصالحه أو يعرضها للخطر ، إذا هو ألح على عقد أحلاف جديدة مع دول المنطقة مع العلم بأن الأحلاف القديمه لا تلقى تأييداً شعبياً ؟ . . ولقد كان من الواضح أن مصالح الدول الغربية تتطلب منها أن تعيد النظر ـ بصورة عميقة جداً ـ فى دورها التقليدى بأكمله فى هذه المنطقة ، وأن تتفهم أفكار وميول جيل جديد بدأ يصل فعلا إلى مراتب السلطة . . ولقد كان من الممكن أن يشعر الغرب بحاجته إلى إعاده النظر ، على أن يفصل هذه المسألة عن المصالح السوفييتية فى العالم العربى . . ولقد زادت الدلائل التى تشير إلى اهتمام السوفييت بالمنطقة ، ومن أجل هذا تساءل الغرب : هل يجدر به أن يحتفظ بأحلافه عن طريق التعاون مع الحكام العرب المكروهين . . ؟

فى ذلك الحين كانت الحكومة الفرنسية برياسة منديس فرانس ، هى التى وضعت رداً جزئياً على هذه التساؤلات ، فمثلا فى قضية مراكش وتونس ، ولكن الفشل كان حليفهما نتيجة لردفعل الجماهير إزاء ماوصفه بسياسة « الاهمال » فى شمال أفريقية ، بعدما حدث فى افريقيه ، وبعدما حدث فى الهند الصينية من ورطات ، وفى عام ١٩٥٦ كان لرد الفعل هذا صدى خطير فى بقية أنحاء العالم العربى ، وكان ذلك عن طريق الجزائر .

وفشلت حكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا فى مواجهة التحدى

الجديد . وظهر أول دليل واضح على هذا الفشل فى أوائل عام ١٩٥٥ ، ممثلا فى حلف بغداد .

وفى ديسمبر عام ١٩٤٤ أعلن نورى السعيد أنه لن يعقد أى حلف جديد مع دولة أجنبية دون أن يستشير أولا أعضاء الحلف الدفاعى الذى ألفته الجامعة العربية . ومع ذلك عقد ، فى يناير عام ١٩٥٥ ، حلفاً مع رئيس وزراء تركيا ، وكان ذلك الحلف التركى ـ العراقى مقدمة لحلف بغداد (للدفاع المتبادل وبخاصة ضد السوفييت) الذى ضم فيما بعد إيران ، وباكستان ، وبريطانيا . وأشارت بريطانيا ، على الفور إلى موافقتها . وبعد أربعة أيام شنت مصر هجوماً دعائياً مجلجلا ضد نورى السعيد والحكومة البريطانية .

وإذا كان لنا أن ننظر فى صدى الحملة المصرية عند العرب ، وصداها فى الغرب ، لرأينا الهوة التى فصلت بين الطرفين نتيجة لوجود سوء فهم . ولقد كانت معارضة رئيس الوزراء ناصر الصريحة لحلف بغداد أول « دليل » كبير دامغ ، على أنه الزعيم الذى كانت العروبة الفتية فى انتظاره . ومنذ تلك اللحظة ارتفعت مكانته بسرعة حتى أصبح رمزاً لهذا الجيل الصاعد .

غير أن الغرب شعر بالغضب والسخط . . لقد رأى الوطنيون العرب فى هذه الخطوة استئنافا من جانب مصر لمركزها الكبير فى العالم العربى ، غير أن الغرب فسرها على أنها استعمار وليد لدكتاتور عسكرى « غير عربى » يريد أن يلفت الأنظار إلى الخارج لكى يسيطر بذلك على مصر القلقة

وبما أغضب بريطانيا أيضاً أنها ظنت أنها « أحسنت إلى ناصر » عندما وافقت على الجلاء عن منطقة قناة السويس .

لقد بلغ من اتساع الهوة بين أفكار الغرب السائدة وبين واقع العالم العربى ، أن ظنت بريطانيا أن اتفاقية الجلاء (١٩٥٤) ستجعل الحكومة المصرية تعترف لا محالة بالجميل . ومن المؤكد أن بريطانيا لم تطق هجوم حكومة مصر على السياسة البريطانية فى الأقطار العربية التى لا يصح لمصر - كما زعمت - أن تتدخل فى شئونها .

وتم إعلان حلف بغداد رسميا فى الرابع والعشرين من فبراير عام ١٩٥٥ ، وبعد أربعة أيام وقعت حادثة تاريخية ثانية ، فقد شنت إسرائيل على قطاع غزة (الذى يضم ٢٠٠,٠٠٠ لاجئاً عربياً فلسطينياً) هجوما عنيفاً ، ووصفته بأنه انتقام من جانبها لغارات الحدود . وفقدت مصر أرواحاً كثيرة . وكانت « إغارة غزة » أخطر حادث عربى إسرائيلى منذ عام ١٩٤٩ . ولقد كانت حكومة الثورة ، حتى هذه اللحظة تؤكد ما يدل على الأقل - على أنها لا ترغب فى استئناف التوتر العربى الاسرائيلى . وبينما استمرت فى انتهاج هذه السياسة على الحدود الواقعة بين مصر واسرائيل « فى صورة سلسلة من الاقتراحات للجنرال بيرنز مراقب الهدنة من قبل الأمم المتحدة) جعلتها إغارة غزة تصمم على تسليح نفسها من جديد . وبعد هجوم اسرائيل الذى وقع فى شهر فبراير ، أخذت الحوادث تتزايد بانتظام ، وارتفعت الصيحات تطالب باتخاذ إجراء ايجابى . وفى أغسطس عام ١٩٥٥ ، وبعد أن رفضت اسرائيل عدة مقترحات قدمتها مصر

ولجنة الهدنة لتخفيف حدة التوتر على الحدود ، اتخذت الحكومة المصرية قراراً خطيراً ، يتضمن تأليف وحدات فدائية شبه عسكرية (الفدائيين) للتسلل داخل إسرائيل .

فى إبريل عام ١٩٥٥ انضمت بريطانيا إلى حلف بغداد ، وبذلك جلبت على نفسها سخط الوطنيين العرب التام وفى نفس الشهر عزز ناصر حماسة العرب لزعامته للدور الذى لعبه ـ كسياسى كبير ـ فى مؤتمر الشعوب الافريقية والآسيوية التاريخى المنعقد فى باندونج . وفى باندونج عرض شواين لاى على ناصر تزويده بأسلحة صينية . ومع ذلك استأنف طوال صيف عام ١٩٥٥ وأوائل الخريف جهوده الاولى من أجل الحصول على كميات من الأسلحة الجديدة من بريطانيا والولايات المتحدة ، دون قيود سياسية ا ومع ذلك جابهت دول الغرب موقفاً محيراً للغاية، ممثلا فى البيان الثلاثى (عام ١٩٥٠) . فقد حاولت فيه المحافظة على الوضع الراهن للهدنة فى فلسطين وذلك بالتأكد من وجود توازن عسكرى بين العرب وفلسطين . وعلاوة على ذلك لم تكن الدولتان تميلان إلى التفكير فى تصدير الأسلحة إلى حكومة مصرية تعارض سياستهما (سياسة الحرب الباردة) فى المنطقه بكل اصرار وشدة .

وفى سبتمبر عام ١٩٥٥ بلغ التوتر بين مصر وإسرائيل ، والتنافس على الأسلحة ، ذروته . وفى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر غزت قوات إسرائيل الأراضى المثلثة الواقعة حول العوجة واحتلتها ، وكانت هذه المنطقة واقعة على خط الهدنة مع مصر ، وسجلت رسمياً أنها

منطقة منزوعة السلاح. وفى الثامن والعشرين من شهر سبتمبر أعلن ناصر أن مصر تعاقدت مع تشيكوسلوفاكيا على شراء كميات ضخمة من الأسلحة الجديدة ، بما فى ذلك مصانع للذخيرة ، وشاع القلق فى الغرب نتيجة لهذا الارتباط المالى الكبير من جانب مصر، ونتيجة لدخول الكتلة السوفيتية - على هذه الصورة - إلى الشرق الأوسط . وأكد ناصر أمام الجميع أن هذه الصفقة لا تؤثر على حياد مصر ، وأن القومية العربية لن تعتنق المذهب الشيوعى ، وأنه لم يقبل عرض الكتلة السوفيتية - باعتباره عملية تجارية صريحة - إلا بعد جهود كثيرة بذلها لكى يحصل على السلاح من مصادر غربية . غير أن الغرب رأى أن هذا القرار يفتح أبواب الشرق الأوسط ، وبالتالى افريقية ، على مصاريعها أمام التغلغل السوفييتى .

وقد افترض الغرب ، بعد ذلك، أن صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية التى عقدتها مصر قد قلبت ميزان القوى المسلحة مع إسرائيل، وأن إسرائيل لم تعمد إلا أخيراً - وأخيرا فقط - إلى إعادة التوازن عن طريق الحصول على أسلحة جديدة من فرنسا . غير أن ناصر ذكر لمراسل مجلة «لايف» فى أوائل عام ١٩٥٥ ، أن مصر لم تقرر شراء الأسلحة التشيكوسلوفاكية بناء على قوة إسرائيل فى ذلك الحين ، وإنما بناء على قوتها عندما تكمل اتفاقيتها السرية مع فرنسا لشراء السلاح منها . وذكر بالتفصيل أنواع وكميات الأسلحة الفرنسية التى ستصدرها فرنسا إلى اسرائيل . وفى اليوم التالى أنكر متحدث إسرائيلى وجود أية اتفاقية لشراء الأسلحة من فرنسا ولكن عندما أميط اللثام فى عام ١٩٥٦ ، عن الأسلحة المرسلة من فرنسا كان من الغريب أنها مشابهة ، فى الكم والنوع ، للتفاصيل التى ذكر ناصر أنه يعرفها عام ١٩٥٥ .

وفى عام ١٩٥٦ تفاقم الصراع بين سياسة الغرب القديمة والحديثة . والقومية الجديدة القوية التى يتزعمها ناصر . ووصل الجنرال تمبلر إلى عمان فى ديسمبر عام ١٩٥٥ ، ليحث الأردن على الانضمام إلى حلف بغداد . وعم الاحتجاج والفوضى واضطر إلى التخلى عن محاولاته . وتم استخدام جيش الأردن ـ الفيلق العربى الذى يقوده السير جون جلوب ـ لقمع الاضطرابات ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح جلوب باشا أكبر هدف للحنق الموجه للبريطانيين . ومرة أخرى مال الغرب إلى إرجاع هذه القلاقل إلى تدابير القاهرة وحدها . وعزز الزعماء السياسيون ، الكبار ، المحافظون فى الأردن والعراق وغيرهما ـ أولئك العرب « الطيبون » ـ عززوا هذا الاتجاه فى مناقشاتهم مع الدبلوماسيين الغربيين والصحفيين .

وفى نفس الشهر أيضاً ، فى ديسمبر من عام ١٩٥٥ ، صممت الولايات المتحدة وبريطانيا على الوقوف أمام مركز الكتلة السوفييتية الجديد فى مصر بأن وافقتا على النظر فى تقديم قرضين كبيرين لبناء مشروع السد العالى الضخم فى أسوان .

وكانت النية متجهة إلى جعل القرض الأول عبارة عن عرض انجلو أمريكى مشترك ، أما القرض الثانى فيقدم من البنك الدولى الذى قال خبراؤه إن مشروع السد سليم . وبدأت محادثات تفصيلية مع مصر ، ووصفها المعلقون المطلعون فى الغرب بصراحة قائلين : إنها لعبة تلعبها الولايات المتحدة وبريطانيا لتخسرا شيئاً فى مقابل كسب أشياء ، بالرغم من أنهما يلعبانها مع حكام تزداد كراهيتهما لهم .

وجلب شهر مارس من عام ١٩٥٦ ، جلب معه سلسلة من الأحداث في أرجاء العالم العربي ، وكانت هذه الأحداث انعكاساً دراميا للأشواط السريعة التي تقطعها القومية . كانت هناك ، في مراكش وتونس، احتفالات تقام ابتهاجا بحصول هاتين الدولتين على الاستقلال ، بعد أن كانتا تابعتين لفرنسا . ولقد ازداد تصميم فرنسا على الاحتفاظ بالجزيرة نتيجة لفقدانها تونس ومراكش ، بالرغم من عدم وجود دليل يثبت أنها قررت ذلك عن عمد . كما ازداد سخط فرنسا على مصر التي تساند الثورة الوطنية فى الجزائر . ومن ناحية أخرى . كان لابد أن ترتفع روح القومية المعنوية فى جميع ربوع العالم العربي نتيجة لاستقلال مراكش وتونس .

وفى الشرق العربي نسقت مصر وسورية والعربية السعودية سياستها الحيادية بصورة رسمية ، وذلك فى الاجتماع الذى عقد بالقاهرة ، وهكذا ازداد التحدى السافر لحلف بغداد الغربي غير أن أكبر أحداث مارس وأكثرها نتائج إنما وقعت فى الأردن ، فبعد « مظاهرات تمبلر » لم يكن هناك أمل جدى فى انضمام الأردن إلى حلف بغداد . غير أن الوطنيين الأردنيين — الذين ظلوا مدة عامين يحاولون إقناع الملك حسين الصبي بانهاء ارتباطات الأردن ببريطانيا . قد ازدادوا اليوم إلحاحاً .

ولم يعد فى مقدور هذا الشاب — الذى يعد جزء منه ارستقراطيا لأنه ينحدر من الهاشميين العريقين فى الصحراء ، والذى يعد جزء منه بريطانيا لأنه تعلم فى هارو ، وساند هيرست وخضعت بلاده لوصاية بريطانيا

الطويلة — لم يعد فى مقدور هذا الشاب أن يتجاهل وجهة نظر القوميين الذين يكرهون عرشه لأنهم يكرهون بريطانيا .

غير أنه وقف متردداً ، فى يناير وفبراير ومارس ، بين الحاح القوميين المتصلين به ، والالحاح المضاد من جانب جلوب باشا ، والدبلوماسيين البريطانيين ، ودائرة ساسة الأردن القديمة . وفجأة ، وفى نهاية شهر فبراير قرأ حسين فى إحدى المجلات البريطانية أن جلوب هو « ملك الأردن غير المتوج » حقاً . وفى أول مارس عام ١٩٥٦ سارع الى طرد ذلك الجندى البريطانى الشهير الذى وهب معظم حياته لبلد قد تغير الآن بحيث لم يعد يعرفه .

طار جلوب باشا إلى لندن ، وقال لأنتونى أيدن : إن طرده جاء نتيجة لتدبير مصر وحفنة من « المتطرفين » فى الأردن ، غير أنه التزم جانب التعقل ونصح بعدم اتخاذ أى إجراء مفاجىء عنيف وفى نفس الوقت كان سلوين لويد ، وزير الخارجية ، يقوم بجولة فى الشرق الأوسط وكان يتناول العشاء مع ناصر عندما جاءت أنباء طرد جلوب إلى رئيس الوزراء المصرى وهو على المائدة . ونقل ناصر النبأ للمستر لويد الذى استنتج على الفور أن ناصرا قد اختار ، وهو فى القاهرة ، الفترة التى يطرد فيها جلوب لكى يذل بريطانيا عن طريق وزير خارجيتها .

وبينما كان هناك بركان من الاحتفالات فى الأردن ، طار المستر لويد إلى البحرين حيث وجد المزيد من مظاهرات الاحتجاج ، واستنتج ، وقال

له مستشاروه وأصدقاء بريطانيا القدامى من العرب ، إن هذه المظاهرات حدثت فى ذلك الوقت بالذات بناء على أوامر من القاهرة . وشيئاً فشيئاً رسم الغرب صورة لعالم عربى يعيش فى هياج نتيجة لتدابير أوامر زعيم مصرى ، وأنه لولا تدخله البشع لما تعرضت للخطر مصالح فرنسا التقليدية فى المغرب العربى ، ومصالح بريطانيا التقليدية فى الشرق ، ولما تعرضت للتحدى سياسة دول الغرب الثلاث فى الحرب الباردة .

ولقد كان من سوء حظ عام ١٩٥٦ أن تدخل كل دولة من دول الغرب الثلاث فى هذا الصراع عبر طرق منفصلة ولو جزئيا : فرنسا عن طريق الجزائر ، بريطانيا عن طريق حلف بغداد وطرد جلوب وما تعرضت له من التحدى لوضعها التقليدى فى المنطقه ، والولايات المتحدة عن المشاكل الشاملة المتعلقة بحياد العرب (الذى أعتبره مستر دالاس منافياً للاخلاق) وعن طريق التغلغل السوفييتى .

وفى منتصف شهر يوليو قررت حكومة الثورة قبول عرض الغرب الخاص بتمويل السد العالى ، وطار السفير عائداً إلى واشنطن ومعه هذا القرار ، وأذاعه لدى وصوله إلى نيويورك .

وأكد البنك الدولى من جديد موافقته على مشروع السد وعلى العرض الذى تقدم به منذ أيام . وفى التاسع عشر من شهر يوليو ، عندما قابل السفير المصرى المستر دالاس ليبحث معه القرار أكد متحدث بلسان وزارة الخارجية البريطانية أن بريطانيا على استعداد لتمويل المشروع .

ومع ذلك حدث فى مساء ذلك اليوم، بعد أن ترك المبعوث المصرى المستر دالاس، أن أذاعت وزارة الخارجية الأمريكية على الصحفيين بياناً تسحب فيه عرضها بتمويل السد، زاعمة أن أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت .

ومن المفروض أن الحكومة البريطانية لم تبلغ بهذا النبأ قبل ذلك ، وإذا بها تنتهج نفس الطريقة ، كذلك فعل البنك الدولى . إن حقيقة الدور الذى لعبته بريطانيا مازال يلفه الشك والغموض . .

ولم يعرف بعد – بصورة كاملة – حقيقة الدوافع التى حدت بالمستر دالاس إلى إذاعة هـذا القرار الذى لم يسبق له مثيل فى إيجازه وإذلاله . والاعتقاد العام هو أن دالاس ، بصرف النظر عن معارضة الكونجرس للقرض ، أراد أن يوجه صفعة قاسية ، علنية للحياد العربى . وأشارت التعليقات الصحفية المسئولة إلى أن ناصرا يلعب بالشرق ضد الغرب فى مسألة القروض لكى يستفيد هو ، ذلك لأن الاتحاد السوفييتى قد أذاع فيما مضى أنه قد يشترك فى التنافس من أجل تقديم العروض . وكان الهدف من العروض الغربية الاولى ، بطبيعة الحال ، أن تتنافس بنفس الطريقة ..

وفى الحادى والعشرين من شهر يوليو ، وبلهجة غاضبة واضحة ، قال الرئيس ناصر للجماهير المحتشدة : إن مصر ستبنى السد العالى برغم كل شىء (كانت موسكو قد أومأت إلى أن عرضها ليس فى الطريق) .

وأورد آية قرآنية وهو يتحدث عن الولايات المتحدة ، وصدمت هذه الآية الأمريكيين . وعندما تم ترجمة هذه الآية دون مراعاة للاختلاف فى دلالة الألفاظ بين لغات الغرب والمبالغة التى تقوم عليها اللغة العربية وصلت إلى الأمريكيين على هذا النحو فليختنقوا إلى أن يموتوا

والواقع أن مضمون الآية القرآنية : قل موتوا بغيظكم » . بالنسبة للمستمعين العرب لايعدو فى وقعه وقع العبارة التالية على الأمريكيين : « فليقفزوا إلى البحيرة سنستأنف نحن ماشرعنا فيه . » وكانت هذه الحادثة دليلا على تفاقم مشكلة دلالة اللفظ فى الصراع بين الغرب والعرب . وفى هذه المرة كانت تنذر بأزمة خطيرة . .

وفى السادس والعشرين من شهر يوليو ، عندما كان السير أنتونى إيدن والمستر سلوين لويد يتناولان طعام العشـــاء مع نورى السعيد فى لندن وصلت إليهما أنباء قرار ناصر . ستؤمم شركة قناة السويس ، وسيتم تعويض المساهمين ، وستستخدم مصر رسوم القناة من العملات الأجنبية فى بناء السد العالى . .

ودهش الكثيرون من العرب ولم يصدقوا . هاهو زعيم وطنى جديد شاب (كان ناصر فى الثامنة والثلاثين فقط) سبق غيره ورد على إهانة غربية كبرى عن طريق تأميم قنـاة ارتبطت طويلا بسيطرة الغرب . لم يكن العرب قد اعتادوا هذا الطراز من الشجاعة ، وعلى هذا التصميم الأكيد ، والسلطة الباقية ، وفى مجتمع يتـأثر بسرعة بالقيادة القوية أكمل هذا الإجراء الفاصل صورة ناصر ، صورة كانت تتضمن ،

قبل هذا الإجراء الفضائل النادرة الرئيسية التقليدية من عيشة بسيطة ، وبعد عن الفساد ، وكلام بسيط مباشر ، وقدرة على التعبير عن مشاعر الشعب . وحتى المثقفون العرب ـ الكثيرون ـ الذين فسروا إجراء ناصر المفاجىء الغاضب على أنه إجراء غير حكيم أعجبوا به ، وشعروا بالعزة والكرامة . .

أما رد فعل الغرب فقد كان على عكس هذا تماماً . إن قناة السويس ممر مائى دولى ، حيوى ، والشركة التى كانت تديرها كانت متعاقدة مع مصر . وقارن إيدن بين ذلك الاستيلاء المفاجىء الذى تم فى ظرف واحد وأعقب أحداثاً ماضية .. فسرها الغرب ببشاعة ، قارن إيدن بين هذا وبين هتلر و«ميونيخ» . وكان لزاماً أن يجزم موليه بضرورة خلع ناصر ، فلقد كانت فرنسا تشعر جيـــداً بأنها هى التى حفرت القناة ، وكانت غاضبة من أجــل مصالحها المالية والإدارية فى الشركة ، وكانت مراجل الغضب مازالت تغلى لأن القاهرة تؤيد الوطنيين الجزائريين . وفى بريطانيا وصل السير أنتونى إيدن إلى نفس النتيجة ، وهو الذى اعتاد على العرب فى عهدهم الارستقراطى القديم ، والذى اعتاد أن يرى القناة « جزءاً من انجلترا تقريبـاً » . وفى واشنطن لم يكن دالاس بأقل منهم دهشـــة إزاء ما اعتبره انتهاكاً طائشاً للأخلاق والقانون الدوليين . وبالرغم من أنه وصف غضب الرئيس ناصر من أجل سحب العرض على أنه « حنق مفتعل » إلا أنه التزم جانب التعقل وعارض منذ البداية فى استخدام القوة . وبينما أرسلت انجلترا وفرنسا قواتهما إلى شرقى

حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبينما بدأ أركان الحرب يعدون خطط الحملة ، بذل المستر دالاس كل جهـــد لـكى يثنى زملاءه عبر الاطلنطى عن هذه الإجراءات .

ونحن الآن نعرف الكثير من الاتجاهات الرسمية إزاء أزمة السويس ومنها نتيقن من أن هذه الاتجاهات لاترجع إلى ١٩ من يوليو يوم سحبت الولايات المتحدة عرضها بتمويل السد) أو إلى ٢٦ من يوليو (يوم أعلن ناصر فى خطابه نبأ التأميم) وإنما ترجع إلى ماقبل ذلك .

لقد رأينا كيف أن الصراع الطاحن بين الغرب والعرب قد وصل مداه . ولـكننا قد نقول إنه إذا كان المستر دالاس قد أخطأ ولم يدرك خطورة الرئيس ناصر ، ومدى الدور الذى يلعبه كزعيم لهذا الجيـل ، وثمرة من ثماره ، ومتحدث باسمه فإن الرئيس ناصرا ـ بدوره ـ لم يقدر خطورة الغرب . فهو لم يدرك عظم الســخط والانزعاج اللذين أحس بهما الغرب بسبب طابع زعامته ودعايته . وإن السياســة التى رسم خطوطها فى أوائل عام ١٩٥٥ قد تحدث الـكثير من افتراضـات الغرب واتجاهاته التقليدية الراسخة ، وكانت فى تحديها للغرب أخطر مما تصور هو وزملاؤه فى وضعهم الرفيع .. وإذا كان سوء الفهم المتبادل واضحا قبل يوليو عام ١٩٥٦ إلا أنه قد أصبح أكثر وضوحاً نتيجة لطابع استجابة ناصر للمستر دالاس .

إن فـكرة تأميم شركة قناة السويس لم تـكن جديدة بأية حال من الأحوال، فلقد طالب المصريون بهذا حتى قبل الحرب العالمية الأولى، قبل

أن يولد ناصر . . ويبدو أنه لم يكن هنــاك مفر من أن تختلف نظرة المصريين عن الغرب فيما يتعلق بالرباط التعــاقدى الذى تدير به الشركة القناة . . ولكن لو كان هناك زعيم مصرى أكثر تعقلا ورزانة لأدرك قيمة هذا الممر المائى أمر حساس جداً لانجلترا وفرنسا وأن إلغاء العقد مع الشركة فى ظل الظروف السياسية التى كانت سائدة آنذاك يثير انزعاجاً كبيراً ، ويتيح لإيدن عذراً ينتحله لـكى يشن هجومه .

لقد كان من الواضح ، فى بيانات الإنجليز والفرنسيين الرسمية ، أن هناك بحثاً وراء عذر ينتحل ، وأقل ما يمكن أن يقال إنها كانت خداعة فى الثلاثة أشهر التى مضت فى المفـاوضات . . ولقد كان الضمان القانونى الأساسى الذى يضمن حرية المرور فى القناة موجوداً فى اتفاقية عام ١٨٨٨ التى وقعت عليها مصر ، وأن هنـاك ضماناً آخر بالنسبة لبريطانيا يتمثل فى حقيقة ملموسة . . حقيقة احتلالها لمصر (حتى عام ١٩٣٦) ومنطقة قنـــاة السويس (حتى عام ١٩٥٦) وفى ذلك اليوم من شهر مايو عام ١٩٥٦ الذى غادر فيه آخر بريطانى منطقة قنـاة السويس ، أصبح الضمان الوحيد لحرية المرور فى القناة كامناً فى اتفاقية ١٨٨٨ ، واحترام مصر لهذه الاتفاقية (فى ظل أية حـكومة) . . وقدرة الدول البحرية على تأكيد هـذا الاحترام عن طريق محـكمة العدل الدولية ، وميثاق الأمم المتحدة .

ولم يؤثر تأميم الشركة على هذا الوضع .. غير أنه أثار مع ذلك أسئلة قانونية فى ذهن الدول المستخدمة للممر المـائى :

١ — هل ستؤكد مصر من جديد احترامها لاتفاقية عام ١٨٨٨ ؟
٢ — هل ستحصل على الرسوم على أساس المساواة وعدم التمييز ؟
٣ — هل ستدير القناة وتصونها بما يتفق وأهميتها المعروفة بالنسبة لتجارة العالم البحرية ؟
٤ — هل ستعمد إلى تحسينها حتى تجارى البواخر التى تتزايد بانتظام ؟

والواقع أن الحكومة المصرية فى الفترة من ٢٧ يوليو — ٢٤ أكتوبر ١٩٥٦ قد قدمت إجابات مرضية عن كل سؤال من هـــذه الأسئلة القانونية ، ومنها العرض السابق الرئيس ناصر بعقد معاهدة جديدة لحرية المرور وإيداعها فى الأمم المتحدة . .

وإذا كان التاسع والعشرون من شهر أكتوبر قد شهد هجوم سيناء الذى أعقبه الهجوم العسكرى الانجلوفرنسى على مصر فإنه كان أيضاً اليوم المقرر لاجتماع أطراف النزاع الرئيسية فى جنيف تحت إشراف الأمم المتحدة . . فى ذلك اليوم كانت هناك دلائل وافرة تثبت أنه من الممكن حل مطالب المنتفعين العالميين عن طريق التفاوض السلمى مع مصر .

لم تحقق الحرب القصيرة الأمد ما كانت ترمى إليه . . لم تقض على حكومة ناصر ، وانما وضعت حدا لعهد من العلاقات بين الانجليز والفرنسيين من جانب ، والعالم العربى من جانب آخر . . لقد كان من الواضح أن خطط انجلترا وفرنسا العسكرية وضعت فى اعتبارها الهجوم الاسرائيلى ، وأكد هذا الهجوم فى أذهان العرب خوفهم (الذى استمر أربعين عاماً) من الصهيونية ، والدولة اليهودية « كقوة معتدية توسعية » .

تستغل الدول الاستعمارية وتستغلها هذه الدول .

وحظى الاتحاد السوفيتى بهيبة فى نفوس العرب للدور الذى لعبه فى وقف الهجوم الثلاثى ، ومن المؤكد أننا لا نغالى حين نقول إنها هيبة لم يكن الزعماء السوفييت ليحصلوا عليها إذا بذلوا الجهد وحدهم لعدة سنين ، وشعر العرب بعرفان مماثل للولايات المتحدة ، لمدة قصيرة جداً ، وأصبح هناك رصيد هائل من الآمال العربية ، لا لأن الولايات المتحدة نددت باستخدام القوة من جانب انجلترا وفرنسا فحسب ، وإنما لأن الرئيس الأمريكى عارض أيضاً الإجراء الصهيونى، بالرغم من أنه كان فى أتون حملة انتخابية .

ولم يتزعزع الدور الذى يلعبه الرئيس ناصر ، بوصفه زعيما للقومية العربية ، لم يتزعزع هـذا الدور نتيجة للهجوم الثلاثى أو هزيمة مصر المزعومة فى سيناء ، أو القول بأن الحرب إنما أوقفت لتدخل دولة أجنبية .. وثبت خطأ السلطات الانجلو فرنسية حين توقعت أنه سيستقيل أو يتم خلعه : لقد أعلن عن نيته فى البقاء بالقاهرة ، ووزع البنادق على المدنيين ، وسار فى حرية وسط الشوراع المكتظة بالجماهير ، ولم تعترف حكومته بأنها هزمت فى سيناء ، غير أن الحقائق سرعان ما شاعت فى العالم العربى .

وإذا كان الكثيرون من معاقل الغرب قد دهشوا حين رأوا أن هذا لم يضعف من هيبة مصر إلى حد كبير ، فإن الأمر لا يدعو إلى كل هذه

الدهشة . . والواقع أن المصريين لم يهزموا ، وإنما صدرت إليهم الأوامر فى النهاية بأن ينسحبوا من الصحراء ليواجهوا الخطر الانجلو فرنسى القادم من الخلف عند منطقة القناة .

لم يكن من الغريب على الاطلاق أن تخرج الحركة الوطنية من الازمة كلها وقد حققت انتصارا أدبيا ، وأن يخرج ناصر وقد ازدادت مكانته بصورة كبيرة .

والواقع أننا قد نستطيع وصف الأزمة والحرب بأنهما فلسطين أخرى . . لقد حركت هذه الحادثة كل الآمال الأساسية : التحرر الكامل من كل نفوذ خارجى اصلاح اجتماعى عاجل ، مزيد من الوحدة العربية وحياد يشمل المنطقة بأكملها ، والاختلاف الوحيد الذى ظهر فى أعقاب الأزمة إنه لم يبق غير دولة غربية وحيدة تستطيع أن تتفاهم مع العروبة الفتية . . فعلى كاهل الولايات المتحدة وقع عبء الدبلوماسية الخلاقة التى تسعى إلى الوقوف أمام هيبة السوفييت الجديدة وتعيد بناء الروابط بين الغرب والعرب على أساس جديد .

مبدأ أيزنهاور

فى يناير عام ١٩٥٧ صاغت الولايات المتحدة « مبدأ أيزنهاور » فى ذلك الفراغ ، الذى لم يكن فراغا من « النفوذ » . . بل فراغاً من آمال العرب وفى الوقت الذى ظل فيه هذا المبدأ مستعصياً على التعريف الواضح ،

إذ اتخذت السياسة الأمريكية ، سريعاً شكلين ، وهى التى أعلنت أنها تنتهج مبدأ أيزنهاور .

فهناك من ناحية ، ما يمكن وصفه بأنه « تذكرة دواء » ضد الشيوعية الدولية ، والحكومات العربية التى توقع عليها ستتلقى معونات الولايات المتحدة الاقتصادية والعسكرية وانسجمت هذه السياسة الأمريكية التى ظهرت فى أعقاب السويس ـ انسجمت والبيانات المتكررة التى تقول : إن هناك بالفعل « فراغا » فى الشرق الأوسط ، وكانت تومئ إلى أن أمريكا أو روسيا هى التى قد تملأ هذا الفراغ .

واعتبر الوطنيون هذه القضية اهانة ومعاداة لهم ، فالوطنيون ، فى العالم العربى وفى أى مكان آخر ، يستمدون آمالهم من ايمانهم بأن فى مقدورهم ، ومن واجبهم أن يحلوا محل أى نفوذ أجنبى ، فإذا أضفنا إلى هذه القضية الأمريكية طابع « تذكرة الدواء » التى جعلتها الولايات المتحدة شرطاً لمساعداتها الاقتصادية والعسكرية ، وجدنا أن الوطنيين العرب سرعان ما اقتنعوا بأن مبدأ أيزنهـــاور أداة للضغط فى الحرب الباردة .

أما الوجه الآخر لسياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط بعد أزمة السويس ، فيتلخص فى بذل الجهد من أجل تحقيق ماوصف بعد ذلك بأنه « عزل ناصر » لقد أكدت الولايات المتحدة ـ من جديد ـ تأييدها لحلف بغداد وكان موقف حكومة نورى السعيد العراقية من

الحكومة المصرية ومؤيديها واضحاً جلياً ، وفرضت سياسة « العزل » هذه وبصورة قوية على العربية السعودية ولبنان والأردن .

وفى أوائل عام ١٩٥٧ استقبلت واشطن الملك سعود ، وشمعون وولى العهد عبد الإله ، أما أسلوب أمريكا فى الأردن فكان ، بالضرورة ذا طابع آخر ، وسنرى هذا بعد لحظات ، لقد كان الهدف العام هو تأييد الحكام العرب الراغبين فى قبول المبدأ ، على أمل خلق قوة مضادة تقف فى وجه « الناصرية » .

ولقد سبق أن أشرنا إلى أن هؤلاء الحكام كانوا ملوكا وأوتوقراطيين وأقليات ، ذلك النظام السياسى القديم المغرق فى المحافظه ، لقد كانوا من العرب الذين كانوا يعارضون دعاوى الاصلاح والوحدة ، وهى الدعاوى التى عبرت عنها الحركة التى يتزعمها «ناصر» وكان هؤلاء الحكام غير محبوبين ، غير أنهم عرفوا فى تعليقات الغرب ، « بالموالين للغرب » وهكذا اعتبروا محبوبين عن طريق تكوين صور مثالية من هذه العبارة وهكذا ورثت حكومة الولايات المتحدة من بريطانيا جميع العلاقات التقليدية والتفسيرات التى أدى قدمها إلى أزمات عام ١٩٥٦

وأخيراً أضيف إلى السياسة الأمريكية خارج مصر سياسة احتكاك داخلى ، وكان من الواضح أنها تهدف إلى إضعاف حكومة ناصر فى الداخل . لقد ظلت أرصدة مصر ، من الدولارات مجمدة (إلى جانب تجميد أرصدتها من الفرنك والاسترلينى) ولم تستأنف الولايات المتحدة مساعداتها الاقتصادية والفنية .

وفى يناير من عام ١٩٥٧ تعرضت مصر لأزمة خطيرة، لم يكن لدى مصر من القمح ما يكفى لأكثر من أسبوعين ، ومن البترول لأكثر من أربعة أيام، وكانت مصر قد استنفدت كل ما لديها من البنسلين وغيره من المواد الطبية الهامة . وطلبت الحكومة المصرية من واشنطن مساعدة عاجلة ، غير أن واشنطن رفضت طلبها ، فطلبت الافراج عن أرصدتها المجمدة هناك ، لكى تستطيع شراء هذه الموارد ، ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض أيضاً ، وحينئذ اتجهت مصر إلى روسيا وحصلت منها على مساعدة عاجلة غير مشروطة .

وفى نهاية شهر فبراير كان المصريون قد عرفوا أن روسيا قد أثبتت مرة أخرى أنها صديق فى الشدة .

وفى الشهور التالية وما بعدها ، حتى أوائل عام ١٩٥٨، اضطرت مصر إلى قلب ميزان تجارتها الخارجية نظراً لاستمرار تجميد دولاراتها ، وتجميد الاسترلينى والفرنك ، وبعد أن كانت نسبة تجارتها الخارجية مع الغرب ٧٥٪ قبل السويس ، أصبحت هذه النسبة مع الكتلة الصينية السوفيتية . وطوال هذا الاجراء كان ساسة الغرب يعارضون من وقت إلى آخر هذا الإجراء فى تعليقاتهم، ولكن لم تتضح الطريقة التى يحاول الغرب بها إصلاح هذا الخطأ .

بصرف النظر عن تيار الآراء العام فى العالم العربى (والذى يبدو أن واضعى السياسة الأمريكية لم يعرفوه) كان التعبير الرسمى عن هذه السياسة -فى أوائل ١٩٥٧- صادرا من مصر وسورية والأردن . وسرعان

ما تدهورت علاقة أمريكا بالحكومة السورية بعد مضى أسابيع قليلة من حرب السويس ، نتيجة لموجة عاملة ، خاطئة ، من التوجس خارج سورية فقد قيل : إن عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثانى ، شيوعى وإنه ينوى تحويل سورية إلى بلد يسير فى الفلك السوفييتى . وكانت النتيجة ضياع أية فرصة لتحسين العلاقات بين الولايات المتحدة والوطنيين السوريين .

لم يبق إلا مملكة الاردن هدفا للأغراض الأمريكية السالف ذكرها وقبيل حرب سيناء والسويس أدت أول انتخابات نزيهة فى الأردن إلى أن عادت إلى البرلمان أغلبية تعبر عن المبادىء الأساسية للعروبة الفتية .

وسرعان ما أعلن سليمان النابلسى ، رئيس الوزراء الجديد ، عن اجراءات سياسية متعددة ، لتنفيذ هذه الآراء ، وحظى بموافقة البرلمان وكانت هذه الاجراءات تتضمن الاعتراف بالاتحاد السوفييتى والصين ، وقد كان ذلك محرما من قبل ، وعدم الانحياز فى الحرب الباردة ، والغاء المعاهدة الانجليزية الاردنية التى تكفل لبريطانيا قاعدة عسكرية فى الأردن واحلال معونات مالية من مصر وسورية والعربية السعودية محل المعونة البريطانية ، والتفاوض من أجل التحالف الفيدرالى مع سورية (الذى كان سيتضمن مصر لأن الحكومة السورية رغبت فى الاتحاد الفيدرالى مع مصر) .

وأكد رئيس وزراء الأردن أن الأردن لن يسمح لنفوذ بلد أجنبى آخر أن يحل محل النفوذ البريطانى .

وعبر عن أمله فى أن تقدم الولايات المتحدة مساعدة غير مشروطة

إلى الأردن ، وأعلن أن حكومته ستسعى إلى شراء أسلحة جديدة ، وأنه يفضل شراءها من الغرب ومهما بلغت المخاوف من عقد روابط دبلوماسية بين موسكو وبيكين ودولة عربية أخرى ، إلا أن وزارة النابلسى لم تكن شيوعية أو موالية للشيوعية ، سواء من حيث تكوينها أم من حيث سياستها .

غير أنه لم يكن من الغريب أن يشعر الملك الصغير حسين بضيق وهو يفكر فى احتمال اتحاد الأردن مع سورية « الجمهورية » واحتمال اتحادها مع مصر « الجمهورية » .

وإذا تذكرنا الاطار الذى عاش فيه ، وتنشئته ، كان من الطبيعى أن يخشى على عرشه ، وكان لا يفرق بين عرشه وبين مصير شعب الأردن وكان مخلصاً فى عدم التفرقة هذه .

وكان من الطبيعى أيضاً أن يشجعه فى آرائه الزعماء السياسيون القدامى زعماء العهد البائد ، غير أن شعبية « حسين » بين مواطنيه ، وهى الشعبية التى حصل عليها منذ رحيل جلوب باشا انما كان مرجعها أنه أبدى تأييداً لآمال شعبه .

لقد سمح باجراء أول انتخابات حرة ، وأقر الوزارة التى جاءت بعد هذه الانتخابات ، ويبدو أنه وافق على سياستها ، بما فى ذلك الاتحاد مع سورية ، والغاء الارتباط الخاص مع بريطانيا .

وموجز القول فإن الملك الصغير أطلق العنان للأهداف الشعبية

واعتبره شعبه ممثلا لها ، غير أن خوفه أخذ يتزايد نتيجة لتأثر مركزه بهذا الاتحاد .

من أجل هذا الموقف الذى لا يحسد عليه وجد حسين ومستشاروه الكبار — وجدوا فى مبدأ ايزنهاور حلا — لم يكن الملك يستطيع أن يعارض فى الغاء المعاهدة مع بريطانيا ، وانهاء المعونات البريطانية .

وما لم يجد الأردن مصدراً آخر يساند اقتصاده الصورى ، فستضطر البلاد إلى الاقتراب أكثر وأكثر من الوحدة مع الجمهوريتين اللتين وافقتا على تعويض المعونات البريطانية .

وفى يناير عام ١٩٥٧ ، رفضت حكومة الولايات المتحدة طلب النابلسى بشأن تقديم معونة غير مشروطة . غير أنها أشارت إلى القصر على انفراد بأن الأردن يستطيع الحصول على مساعدة أمريكية إذا هو ابتعد عن الارتباط بموسكو وبيكين ، وظل بعيداً عن فلك مصر وسورية الحيادى ،

وأكثر من هذا فإن حكومة الولايات المتحدة أكدت أنه ليس من الضرورى أن يعلن الأردن عن قبوله لمبدأ أيزنهاور صراحة (وكان المبدأ قد فقد سمعته بسرعة بين صفوف الوطنيين) طالما أن أمام الكونجرس الأمريكى ما يقنعه بأن هناك إشرافا قوياً ـ معادياً للشيوعية على الأردن .

وفى الأسابيع التالية تدهورت علاقات الملك حسين بمجلس وزرائه

تدهوراً متزايداً - ومن بين الأسباب التي أدت إلى ذلك إذاعة الملك لخطاب ذي مغزى بعث به لرئيس الوزراء ، وحذره فيه من « الشيوعية الدولية » .

وقد أذيع هذا الخطاب دون موافقة سابقة ، ودستورية ، من جانب الوزارة الأردنية . . ومع ذلك ، كان هذا الصراع المتزايد - بين القصر والوزارة - طي الكتمان .

وظل الملك حسين محبوباً ، وكذلك ظلت وزارته ، وعززت احتفالات البلاد بالغاء المعاهدة الانجلو أردنية . . عززت أوهام الناس في وجود أهداف وطنية مشتركة بين الملك والوزارة .

وما أن حل شهر مارس من عام ١٩٥٧ ، حتى وصلت السياسة الأردنية إلى نقطة يتعذر حلها .

لقد كان لدى الملك تأكيدات أمريكية خاصة ، تعده فيها أمريكا بمساعدته ماليا ، لكي يحافظ على استقلاله ، غير أن مجلس وزرائه كان يستعد للاعتراف بموسكو وبيكين ، والاتجاه نحو الوحدة مع سورية ، ولم يكن بمقدور الملك أن يعارض هذه السياسة علانية . . كذلك لم يكن بمقدور مجلس الوزراء - إذا رغب - أن يخلع الملك الصغير المحبوب .

وفي أبريل عام ١٩٥٧ وصل الصراع بين القصر والوزارة ذروته وذلك عندما أذاع حسين نبأ وجود « مؤامرات » ضده وضد عرشه وعندما أقال حكومة النابلسي ، وبتأييد من ساسة العهد البائد اتهم

النابلسى والأحزاب الوطنيـة المختلفة ، ومصر وسـورية ، بأنهم جلبوا الشيوعية ، ومبدأ أيزنهاور ، والسيطرة المصرية ، بل والخطر الاسرائيلى إلى الأردن . .وكان فى مقدور الملك الصغير أن يعتمد على ولاء وحدات البدو الموجودة فى الجيش ، وانتشر هؤلاء فى البلاد . . وألقى القبض على الوطنيين ،وغاروا فى السجون أو أجبروا على النفى .. وأسرعت الولايات المتحدة بارسال الأسطول الخامس إلى شرقى حـــوض البحر الأبيض المتوسط ، وحذرت من أنها قد تستخدم رجال المظلات لتحافظ على «استقلال الأردن وكيانه .

وفى نهاية شهر أبريل، والمملكة الصغيرة خاضعة لأحكام عرفية صارمة انتهت « أزمة الأردن » . . وتلقى الملك حسين معونة عاجلة من واشنطون مقدارها ١٠ ملايين دولار .

وقبلت أوساط الغرب المتطرفة تصوير الملك للمؤامرات ، ويكفى هنا أن نقول : إن التحريات الدقيقة تشير إلى أنه من الجائز أن الملك نفسه هو الذى اصطنع هذه المؤامرات لـكى يثبت زيف وزارة النابلسى ويوجه إليها تهمة تثير عطف الجماهير،غير أنها لم تثر فيهم هذا .. والأمر الذى له دلالته (بالرغم من أن الغرب لم يلحظ هذا) أن راديو القاهرة لم يهاجم الملك طوال الأزمة، إن هذا الصمت وحده يجعل «المؤامرات» أمراً مشكوكا فيه .

ومنذ ذلك الحين ظل الاردن خاضعاً للاحكام العرفية ، واستمر هذا لمدة عامين تقريباً . وعندما بدأت مصر وسورية تشنان حملة دعاية

رنانة ضده وضد الولايات المتحدة ، فسر الغرب اجراء حسين بأنه اجراء قام به ملك شاب شجاع من أجل انقاذ بلده من «السيطرة الموالية للشيوعية».. غير أن انتصار « القوى الموالية للغرب والمعادية لناصر » - وهو الانتصار الذى رحب به الغرب أكبر ترحيب - أكد للوطنيين العرب فى كل مكان أن الولايات المتحدة قد انتهجت سياسة أمريكا: سياسة الدبلوماسية المسلحة. وإذا نظرنا إلى الامور فى ظل أزمة سوء الفهم التى نتابعها هنا ، وجدنا أن الذى يلفت النظر هو أن الدولة الغربية الوحيدة التى كانت تستطيع آنذاك تبديد شكوك العرب فى الغرب : قد ساعدت فى الواقع على خلع أول وزارة فى تاريخ الاردن تحظى بشعبية وتتألف بعد انتخابات نزيهة. أما الصدى الثانى الكبير لسياسة الولايات المتحدة التى انتهجت باسم مبدأ أيزنهاور ، فقد وقع فى لبنان . ان نصف هذه الجمهورية (١ر٤٥٠٠٠٠ نسمة) مسيحى ، ونصفها مسلم ، ومعظم المسيحيين من اتباع الكنيسة المارونية (وهى تتمتع باستقلال ذاتى ، غير أنها تتصل بكنيسة الرومان الكاثوليك) .. وظهر اللبنانيون المسيحيون هناك منذ ظهور المسيحية نفسها .. وهكذا يشعرون بأن جذورهم ضاربة فى الشرق الأوسط ، ولكنهم - منذ أول مذبحة للمسيحيين فى عام ١٨٦٠ - يتطلعون إلى الغرب، ينشدون عنده الثقافة والحماية . . أما اللبنانيون المسلمون ، فليسوا بأقل من المسيحيين شعوراً بوجود رباط وثيق من الثقافة والمشاعر السياسية، وهو رباط يجمعهم بجيرانهم العرب .

وفى عام ١٩٤٣ ، عندما تحرر لبنان من سيطرة حكومة فيشى، ولاح

الاستقلال فى الافق، عقد الزعماء المسيحيون والمسلمون «اتفاقية الجنتلمان» والتى عرفت باسم حلف ١٩٤٣ ، وتنص هذه الاتفاقية - فى جوهرها - على قيام جمهورية مستقلة تتفق طوائفها الدينية على التوفيق بين مشاعر كل طائفة، والعيش معاً فى وئام .. ويجب أن يكون رئيس جمهورية لبنان مسيحيا ، أما رئيس الوزراء فمسلم .. وكان هناك تقسيم مماثل أصبح بعد ذلك تقليدا لشكل الحياة السياسية والادارية برمتها ، مع استمتاع بالتحالف مع الغرب ، وفى مقابل ذلك يوافق المسلمون على أن يكون لبنان بعيداً - بسيادته - عن جيرانه العرب .

وسببت حرب سيناء والسويس عام ١٩٥٦ توترا حادا فى الجمهورية .. فالوطنيون الساخطون من المسلمين (وبعض المسيحيين) طالبوا بأن يقطع لبنان - على الأقل - علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا.. وعارض الزعماء المسيحيون الموجودون هذه الخطوة معارضة عنيفة . ولحسن الحظ تم انقاذ البلاد من كارثة داخلية نتيجة لقصر فترة الهجوم على مصر، وما صاحبها من ضبط أعصاب متبادل داخل لبنان، واجراءات للامن العام غير متحيزة بصورة صارخة.. وتم تأليف مجلس وزراء جديد.

تم تأليف مجلس الوزراء اللبنانى الجديد وسط شعور بالارتياح لأن « حلف عام ١٩٤٣ » مازال صامداً ، . كما قالت الصحف اللبنانية . غير أن الرئيس كميل شمعون الذى يؤيده محافظون أثرياء ونسبة كبيرة من المسيحيين . قد ظل معاديا للدور الذى يلعبه ناصر كزعيم لقومية عربية تزداد حيوية وانتشاراً وخشى أن تؤدى مغريات هـــذه الحركة

إلى أن يطالب اللبنانيون المسلمون بمزيد من الوحدة مع جيرانهم . بل وخشى أن تؤثر على الوضع الاجتماعى والاقتصادى داخل لبنان نفسه .

وعندما صاغت الولايات المتحدة سياسة مابعد السويس . تم اتخاذ قرار خطير . لقد احست واشنطون ان زعامة شمعون ووزير خارجية لبنان الجديد . الدكتور شارل مالك « صديق أمريكا الحميم » تتيح فرصا ممتازة أمام لبنان لكى يصبح المعقل الرئيسى لمبدأ ايزنهاور . . وسرعان مابذلت جهود عاجلة لكى تصدق الحكومة اللبنانية الجديدة على مبدأ ايزنهاور أمام الجميع وتحقق النتيجة المطلوبة بناء على رغبة الرئيس شمعون والدكتور مالك . وتأثر الرأى العام المسيحى فى لبنان بالتحذير الخرافى من وجود شيوعية فى سوريا والامل فى الحصول على معونات اقتصادية وعسكرية هائلة بمقتضى مبدأ أيزنهاور .

وبدأت مساعدات الولايات المتحدة تتدفق إلى لبنان،وزارت بوارج الولايات المتحدة ميناء بيروت زيارات ودية . وأجريت انتخابات عامة فى ربيع عام ١٩٥٧ ، وكانت النتيجة المتوقعة : أغلبية موالية للغرب . غير أن التوتر أخذ يتزايد بانتظام ، قبل الانتخابات وبعدها،لان المعارضة ندت بارتباط الحكومة بمبدأ أيزنهاور واعتبرته انتهاكا لحياد لبنان المتفق عليه من قديم الزمان . ومن سوء الحظ ، مرة أخرى . أن يعتبر الغرب هذه المعارضة « موالية للشيوعية » أو مدبرة من قبل الهدامين فى مصر وسورية ، وندر أن أدرك الغرب أن الكثيرين من المسيحيين البارزين عارضوا مبدأ أيزنهاور ـ بما فيهم أول رئيس جمهورية فى لبنان ـ

وهو الذى أعلن حلف عام ١٩٤٣ ـ وبطريرك الكنيسة المارونية (لايمكن لاحد أن ينكر بشدة ان حلف عام ١٩٤٢ قد تخلى عن كثير من التزاماته، اذ ان من أسس الحلف ، والتقاليد التى وضعها ، ألا تتسبب سياسة لبنان الخارجية فى أن يرى الجيران ان هـــذه الجمهورية قاعدة لضغط الدول الكبرى) .

وفى شتاء عامى ١٩٥٧ - ١٩٥٨ تزايدات الانباء القائلة بوجود فساد خطير ، ونهب للاسلحة واسع النطاق، بما فى ذلك ـ لسوء الحظ ـ أسلحة حصل عليها جزب فاشستى جديد كان منحلا منذ زمان بعيد . وفى ربيع عام ١٩٥٨ وصلت الأزمة ذروتها عندما اعلن الرئيس شمعون انه ينوى تجديد مدة رئاستة . ونظرا لأن هذا القرار غير دستورى، حاول مؤيدوه تعديل الدستور . اما المعارضة فسرعان ما فسرت هذا النبأ بأنه محاولة لاستمرار سياسة مبدأ ايزنهاور ، والعهد الموجود . وفى غمرة الاحتجاج اغتيل صحفى مسيحى مناهض لمبدأ ايزنهاور، وبذلك وصلت الأمور ذروتها. وكان هناك اضراب عام عبر فيه المضربون عن احتجاجهم ثم سرعان ما اندلع وأصبح حربا أهلية . لم تكن حربا طائفية ، ولكن ما أن تفاقم الصراع حتى باب الخطر واضحا فى الأفق .

فى ذلك الحين كانت حرب سيناء والسويس قد جعلت الوطنيين السوريين يلحون فى المطالبة بالاصلاح الاجتماعى ،وشراء أسلحة جديدة، ومزيد من الوحدة مع مصر . وفى عام ١٩٥٧ بدأت المباحثات مع مصر، وتركز الاهتمام على الوحدة الوظيفية فى ميادين الضرائب والتعريفات

الجمركية والمقررات الدراسية، وجوازات السفر، والتنسيق الاقتصادى. وفيما يتعلق بالمساعدات الخارجية، كانت الفرصة متاحة أمام الولايات المتحدة عقب السويس فوراً، غير انها سرعان ما ضاعت. لقد كانت سورية منذ زمن طويل، اكثر الدول العربية شكا فى الغرب. ومع ذلك فان حرص الوزارة الجديدة «البعثية» على تنمية الاقتصاد السورى جعلت سوريه تفكر فى طلب معونه من البنك الدولى. وكان لهذه الحادثة أقوى دلالة، فلم يسبق لحكومه سورية ان قبلت مساعدة رسمية من أية مصدر أجنبى. غير ان عرض البنك الدولى كان مشروطا إلى حد بالغ. ولقد كان من الممكن أن تظل الفرصة متاحة أمام مساعدة أمريكية حذرة غير مشروطة، غير أن طابع مبدأ ايزنهاور - الذى أخذ يتكشف حينذاك - جعل السوريين يبتعدون. وبناء على ذلك اتجه مجلس الوزراء، فى عام ١٩٥٧ إلى الكتلة السوفيتية يطلب منها معونة غير مشروطة، ومع ذلك ضاعت فرصة أخرى كبرى من الولايات المتحدة.

وكما يحدث فى أماكن أخرى من العالم تحين الشيوعيون العرب — وبخاصة، على مايبدو، فى سورية حتى عام ١٩٥٨ — تحينوا الفرص طويلا لكى يحصلوا على مطالب سياسية بفضل أحلاف تكتيكية مع عناصر غير الشيوعية. وعندما اتجهت سورية إلى موسكو طالبة معونة غير مشروطة، وعندما تعزز مركز روسيا بعد السويس بدأ الشيوعيون من جانب، ومجموعة الساسة المحافظين من أتباع المدرسة القديمة فى تأليف مثل هذا التحالف. وكان خالد العظم من أغنى رجالات الشرق العربى، ورأى فى مركز السوفييت المتزايد فرصته التى طال انتظاره لها،

والتى خاب أمله فيها فى الماضى ، وهى أن يصبح رئيساً للجمهورية السورية . وكان وزيراً للدفاع فى مجلس الوزراء عندما وقع فى موسكو فى أغسطس عام ١٩٥٧ اتفاقية معونة كبرى بين سورية والسوفييت . وعندما عاد إلى دمشق أحل بمجلس رئيس هيئة أركان الحرب ضابطاً أكثر التصاقاً باتجاهاته والاتجاهات الشيوعية .

وعندما أشرف عام ١٩٥٧ على نهايته اتضح للبعثيين وللضباط اللاشيوعيين أن خالد العظم ينتوى استغلال مركز السوفييت لكى ينتصر فى الانتخابات النيابية القادمة التى ستجرى فى عام ١٩٥٨

لقد ظلت سورية ، منذ عهد طويل ، مركز الاتجاه نحو مزيد من الوحدة العربية ، وكانت المصدر الرئيسي لهذا الاتجاه : وكان البعثيون ـ بصفة خاصة ـ يؤمنون أن الانقسامات التى يعانى منها العالم العربى هى انقسامات بلغ من رسوخها وتدخل دول الغرب فى خلقها أنه لا يمكن إزالتها إلا بانتهاز فرص تاريخية نادرة .

واليوم حانت هذه الفرصة ، ولاح الخطر الكبير .

وفى يناير من عام ١٩٥٨ طار الزعماء البعثيون والضباط الوطنيون إلى القاهرة ، وشرحوا لناصر خطورة خالد العظم وخطورة الشيوعية ، وطلبوا منه أن يوافق على إعلان الوحـــدة العاجلة الكاملة للبلدين باعتبارها الحل الوحيد الأكيد المطلوب من الجميع .

كان اقتراحاً جديداً كل الجدة على ناصر . لم تكن لديه أية خطة

لتحقيق وحدة عضوية مع الدول الأخرى . وفى الظروف المعاصرة ، فى تلك الثورة المستمرة ، كانت الوحدة العربية فى نظره معناها قبل كل شىء « التضامن » - إنها وحدة فى أهم خطوط السياسة مثل الحياد ، ووحدة فى الإصلاح السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى سيحرم الدول الكبرى من تأييد العهد البائد لهم . وكانت هناك مباحثات بشأن الاتحاد الفيدرالى مع سورية . وحتى هذا الاتحاد الناقص كان سيتم ببطء وبأناة .

موجز القول - وهذا شىء لم يدركه الغرب - أن الرئيس كان محافظاً فيما يتعلق بهذا الهدف الحيوى ، هدف الوحدة . غير أن الخطر الذى يمثله السوريون لم يكن غريباً عليه وعلى زملائه . وأدرك أيضاً أن اتجاه سورية نحو الشيوعية قد يؤدى إلى تدخـــل من جانب نورى السعيد والدول الغربية .

من أجل هذا كله أثمرت المباحثات التى أجريت فى القاهرة . وبدأ ناصر وزملاؤه الخطة بأن حثوا الثوريين على تحقيق ثورة حقة ، وأن « يعودوا إلى ترتيب بيتهم » .

غير أن السوريين ظلوا على صلابتهم فيما يتعلق بالخطر . وعندئذ وضع ناصر شروطاً حاسمة ، وبمقتضى هذه الشروط ، وهذه الشروط وحدها ، توافق مصر على تحمل مسئولية اتحاد حاسم كالذى تطالب به سورية . وكانت مصر تأمل أن تكون هـــذه الشروط بمثابة « فرملة » للتفكير السورى .

غير أن الوفد السورى عاد إلى القاهرة فى ظرف أسبوعين وقد قبل كافة الشروط ـ وأهمها حل جميع الأحزاب ، بما فيها حزب البعث ـ وحل معه أيضاً دعوات الرئيس المريض شكرى القوتلى الذى دعا من قديم إلى الوحدة العربية .

وفى الرابع من شهر فبراير عام ١٩٥٨ تم إعلان قيـــام الجمهورية العربية المتحدة ـــ وكانت أول وحدة عضوية لبلدين عربيين فى التاريخ الحديث واهتز العالم العربى للنبأ ، لقد كانت الوحدة أول تعبير ملموس عن حلم « القومية »[١] وعن مفهوم الشعب الواحد ، والأمة الواحدة . وكانت الجموع التى هللت للحادث فى مصر وسورية أضخم جموع سجلها التاريخ : ومع ذلك ظل الرمز الشعبى لهذا الحادث التاريخى وزعيمه ، ظل متشككاً من السرعة التى تمت بها الوحـــدة ، ومن افتقارها إلى التخطيط .

وفى الخامس من فبراير أعلن ناصر أمام مجلس الأمة المصرى : أن قرار الوحدة يجب أن يثير الحرص لا البهجة وحدها . وقال : إنه ربما أثبتت أحلامنا الجامحة أنها أعظم خطر علينا مواجهته ، فلقد انطلقت كالفيضان بدافع من الكبت الطويل . . ومن واجبنا الأول أن نلتزم جانب الحكمة ، ونقيم سداً أمام هذه المطامح . . يجب التحكم فى هذا التدفق ، وإلا فإنه سيكتسحنا .

---

(١) كتبها المؤلف بحروف لاتينية .

والواقع أن الغرب لم يلتفت إلى هذا البيان الهام ، وإنما فسر الوحدة على أنها تمت فى سورية على يد ناصر ، وعلى الطريقة الألمانية .

(وقد نضيف أيضاً قائلين : إن العالم العربى نفسه لم يلتفت فى غمرة ابتهاجه إلى أهمية هذه العبارات ـ ومن بين الأسباب أنها جاءت فى ثنايا خطبة الرئيس التى تتسم بالطول ، والتى لولا هذه العبارات لكانت جدلية) . لقد كان اهتمام الغرب مركزاً فى النقطة التالية : أثر الوحدة فى البلدان الأخرى بالمنطقة فالحكومات التى تخضع لذلك النظام السياسى القديم الذى سبق أن عرفناه فى الكتاب بأنه نظام « العرب الصالحين » هذه الحكومات كانت تتوجس خيفة من أثر الوحـــدة الكبير . وسرعان ما أكدت لمبعوثى الغرب ومراسليه تفسير الغرب الغريزى لهذه الوحدة : إنها وحدة على الطريقة الألمانية . وسرعان ما ألف نورى السعيد والملك حسين اتحادا هاشميا ـ منافسا ـ يجمع بين مملكة العراق ومملكة الاردن التى تجمعهما صلات أسرية . وكان من الواضح أن الولايات المتحدة وبريطانيا وافقتا على هذا الاجراء .

وفى غمرة هذه الأزمة السياسية الجديدة فى العالم العربى ، دخلت سياسة العربية السعودية مسرح الأحداث ، وبالرغم من أن مملكة العاهل سعود ـ الغنية بالبترول ـ كانت تفتقر إلى الكثير من أبسط نظم الدولة والمجتمع الحديث ، إلا أنه أصبح يواجه تذمراً متزايداً فى المدن والقرى المستقرة. وكانت القلاقل ذات طابع اقتصادى واجتماعى ، وسياسى ، ولم يكن من قبيل المصادفات أن زعامة ناصر الرمزية أثرت فى شبه الجزيرة العربية

تمثلما أثرت فى خارجها . ولم يرحب الشعب بارتباط الملك سعود المبدئى، بمبدأ ايزنهاور عام ١٩٦٧ ، كذلك لم يرحب الشعب بتأييده السافر، بعد ذلك ، للملك حسين ابان أزمة الأردن عام ١٩٥٧ . ولم يكن التذمر وقفاً على المتعلمين وأنصاف المتعلمين الذين أخذ عددهم ، على قلتهم ، يزداد .

لقد سافر فيصل ، ولى العهد وشقيق الملك ، إلى بلاد كثيرة ، وازداد أطلاعه على مفاهيم الغرب الحديثة للمجتمع . وازداد تعاطفه مع أهداف الحركة الوطنية العربية السائدة .

وبينما كانت مصر وسورية تحتفلان بالوحدة ، أعلنت حكومة الجمهورية العربية المتحدة الجديدة نبأ اكتشاف مؤامرة سعودية للحيولة دون قيام الوحدة واغتيال الرئيس ناصر . ولم يصدق الغرب هذه التهمة واعتبرها خبراً مفتعلا الهدف منه صرف الأنظار عن الضيق الناجم عن الحاق سورية بمصر . غير أن التحريات الدقيقة التى قام بها عدد ضئيل من مراسلى الغرب بعد شهور اثبتت وجود مؤامرة سعودية بالفعل (من بين الأدلة الأخرى استقالة خال الملك من اللجنة السعودية الملكية التى ألفت للتحقيق فى التهمة ، والتى لم تمط اللثام عن نتائج التحقيق) . وفى أبريل عام ١٩٥٨ ، أعلن فى الرياض ، العاصمة السعودية ، أن ولى العهد فيصل سيضطلع بمعظم مهام الحكم التى كان يضطلع بها الملك . وبالرغم من أن السياسة السعودية الخارجية لم تتحول بصورة ملحوظة إلا أنه كان من الواضح أن السعودية تصالحت مع القاهرة ودمشق .

وفى الشهور التالية ، بات من الواضح أن ولى العهد مصمم على إحداث ثورة فى نظم الحكم العتيقة ، ومحاولة توسيع رقعة التوزيع الآتى من دخل البترول بقدر الامكان ، وداخل نطاق القانون ، مع استمرار نفوذ الأسرة المالكة (كان هناك ألف أمير وأميرة يستنفدون خمس الدخل السنوى ٢٠ مليون دولار ، فى صورة نفقات شخصية) .

ومن بين الدلائل الملموسة التى أثبتت وجود انقلاب داخلى ، هادىء تدريجى ، تكوين أول خزانة منظمة للمملكة ، وتكوين بنوك مركزية ، ووضع ميزانية سنوية .

سبق أن ذكرنا أن حرب لبنان الأهلية اندلعت فى مايو عام ١٩٥٨ ، ووجه الرئيس شمعون والدكتور شارل مالك ، أمام الأمم المتحدة ، التهمة إلى الجمهورية العربية المتحدة قائلين : إنها تدخلت فى شئون لبنان بصورة ضخمة ، وإنها تهدف إلى هدم هذا البلد وادماجه بالوحدة المصرية السورية . وأيدت أمريكا وبريطانيا هذه التهمة ، ونتيجة لهذا تألفت هيئة المراقبين الدوليين فى لبنان للتحقق مما إذا كان هناك تسرب للرجال أو الأسلحة أو كليهما معاً ، والعمل على الحيلولة دون مزيد من التسرب فى المستقبل . وأصبحت هذه الهيئة تضم فى النهاية أكثر من ٥٠٠ ضابطاً من بلاد كثيرة ، وفى سلسلة من التقارير التى بعثت بها الهيئة من لبنان إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، نفت تهمة وجود أى تدخل كبير . وليس هناك ما يؤكد أن الثوار المعارضين فى لبنان حصلوا على السلاح من الخارج . غير أن زعماء المعارضة قالوا : إن هذه الأسلحة ما هى إلا

صفقات تجارية ، وبرروا شراء أسلحة من الخارج بأن الحكومة نفسها وزعت أسلحة حكومية على الطوائف غير الرسمية التى تؤيدها ، وأن بعض هذه الأسلحة من المعونة الامريكية . ومن السمات الخاصة المميزة لتلك الحرب الأهلية أن جيش لبنان الرسمى ، الذى يرأسه الجنرال فؤاد شهاب المحايد رفض أوامر الحكومة الخاصة بسحق الثوار ، وهى مهمة كان الجيش يستطيع تحقيقها .

وبالرغم من عدم ثبوت تهمة التدخل الجماعى الضخم ، إلا أنه لم يكن هناك شك فى وجود دعاية مضادة تؤيدها القاهرة ودمشق ، ضد مبدأ ايزنهاور فى لبنـان ، وهو جانب الثوار المعارضين . هذه الدعاية بالذات هى التى مهدت لظهور القضية الانجلو أمريكية الرسمية ، هذه القضية القائلة بوجود « عدوان غير مباشر » من جانب الجمهورية العربية المتحدة ـ لاضد لبنان وحده ، وانما ضد الأردن ، والعراق وعدن ، وغيرها من الدول العربية . ولقد لخص ظهور هذه القضية مشكله القومية العربية كلها ، وافتقار الغرب إلى موقف شامل تجاهها .

لقد كان العرب ينصتون الى إذاعات القاهرة ودمشق (وكثيراً ما يطلبون من متعهدى بيع الاجهزة أن يضبطوا جهازهم الجديد على « صوت العرب » حتى يلتقط الراديو هذه المحطة بصورة كامـلة منذ البداية) .

هكذا كانوا ينصتون ، ويبلغ عددهم الملايين ، بالرغم من أن لحكوماتهم محطات إذاعية ناجحة ، وبالرغم من أن بعض الحكومات تهدد بسجن كل من يستمع إلى «صوت العرب».

وكانت الآراء والنداءات التي يسمعونها من القاهرة ودمشق تتجاوب إلى حد كبير مع مشاعرهم وآلامهم ، ومن أقوى هذه الآراء ، رأى كان يتحدى فى ذاته قضية العدوان المباشر بأكملها . فهذا الرأى يطالب بأمة عربية ، وبشعب عربى يتخطى الحدود الرسمية التى . كثيراً ما اعتبرت من صنع الأجنبي (أى الغرب) .

وهكذا إذا سمع الأردنيون معلق راديو القاهرة يشير إلى الملك حسين بعد مايو عام ١٩٥٧ ، على أنه « يخون رسالة العرب » فانهم يضبطون مؤشر أجهزتهم على محطة القاهرة فى اليوم التالى ذلك لأن هذا الوصف يعكس مشاعرهم تجاه ملك خلع وزارة محبوبة وأخذ يحكم فى ظل الأحكام العرفية . ولم يكونوا يعتبرون راديو القاهرة محطة « أجنبية » بالمعنى الذى يفهمه الغربى من الكلمة .

لنعد ، مع ذلك ، إلى الحرب الأهلية فى لبنان : بقى أن نشير إلى أن زعماء المعارضة أنكروا مراراً وتكراراً - مثلما فعلوا قبل الصراع - أية رغبة من جانبهم لضم لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة . ولقد تجسد هذا الانكار خير تجسيد فى طابع الثوار من المعارضين . فلقد كانت قواتهم تضم جماعات مسيحية وجماعات من الدروز الذين يعارض زعماؤهم بكل تأكيد ، أى إجراء كهذا . ومن الدلائل الهامة أيضاً أن كل وزير خارجية لبنانى ، منذ عام ١٩٤٣ . كان يرفض - علانية - التهمة التى رفعها شمعون وشارل مالك إلى الأمم المتحدة ضد الجمهورية العربية المتحدة .

ولسوء الحظ أهمل العرب هذه الدلائل الهامة .

وبينما استمرت الحرب الأهلية فى لبنان ، ازداد التوتر فى الشرق الأوسط بصورة سريعة . لقد اقتنع ساسة أمريكا وبريطانيا بصحة تفسيرهم للأحداث فظلوا يتهمون مصر بالعدوان غير المباشر وبالاستعمار وازدادت الجماهير حنقا لأنها تأثرت بالوحدة بين مصر وسورية، والحرب اللبنانية ، وتأييد انجلترا وأمريكا ، الواضح ، للرئيس شمعون ، والملك حسين ، ونورى السعيد . وفى ظل هذه الظروف بالذات وصل نورى السعيد (الذى كان اتفاقه مع شمعون وثيقاً منذ أمد) وصل إلى القرار الحاسم . ويتلخص هذا القرار فى دخول قوة عسكرية عن طريق الأردن؛ وانهاء الوحدة مع مصر ، والعمل على سحق الثورة فى لبنان .

(لم يذع هذا القرار فى حينه بطبيعة الحال ، وإنما أميط عنه اللثام فيما بعد، وذكره اللورد بيردوود الذى كتب سيرة نورى السعيد بعد مقتله ، وأشار إلى أن بريطانيا كانت تعلم ، رسمياً بنبأ الخطة) .

ظلت المعارضة بالعراق مستمرة لعدة سنين، وكانت تستهدف الثالوث الذى يمسك بأزمة الحكم : عبد الإله ولى عهد العراق ، ونورى السعيد ، وشيوخ القبائل الاقطاعيين ، غير أن الخصوم من المدنيين كانوا عاجزين عن اتخاذ أى إجراء نتيجة للاجراءات البوليسية التى اتخذها نورى السعيد وحملات التطهير فى الجيش ، كما لم يستطع ضباط الجيش والوطنيون أن ينظموا أنفسهم . وكان نورى السعيد يحتفظ بالوحدات التى يشك فيها بعيدة عن بغداد. ولكن حدث فى ٨ مايو عام ١٩٥٨ أن وصل عدد من الضباط العراقيين ، برتبة لواء ، إلى اتفاق سرى من أجل اتخاذ اجراءات

عنيفة ، فأيهم يجد نفسه فى بغداد أو بالقرب منها مع وجود الذخيرة والعتاد المطلوبين فعليه أن يضرب ضربته ضد الحكومة .

وفى مساء اليوم الثالث عشر من شهر يوليو أصدر نورى السعيد أوامره إلى اللواء عبد الكريم قاسم وتابعه عبد السلام عارف . وتقضى هذه الأوامر بأن يتوجها ، بوحداتهما إلى الأردن عن طريق بغداد . وفى الرابع عشر من شهر يوليو قاد عبد السلام عارف طوابيره إلى المدينة ، وكان لهذه المسيرة نتائجها الحاسمة التى عرفها العالم الغربى بعد ذلك بعدة ساعات ففوجىء وذعر . وعندما حاولت إحدى الفرق إلقاء القبض على الملك الصغير فيصل ، وعلى ولى العهد عبد الإله ، اطلق الأخير الرصاص وأعقب ذلك معركة بالبنادق . قتل فيها معظم أفراد الأسرة المالكة العراقية ، وقتل نورى السعيد وهو يحاول الهرب ومثل بجثته .

(لم تثبت بعد ـ بصورة كاملة ـ نيات ضباط الثورة الحقيقية ، غير أننا لا نغالى إذ افترضنا أن الملك الصغير كان موضع الرثاء أكثر مما كان موضع الكراهية ، أما ولى العهد عبد الإله، الذى ظل الملك الفعلى قرابة عشرين عاما ، فلاشك أنه كان سيلاقى حتفه بأى حال من الأحوال، ومن المؤكد أنه كان سيحاكم) .

ومرت ساعات من النهار وظروف بغداد تعيد إلى الأذهان سقوط الباستيل عندما اندلعت نيران الثورة الفرنسية .

لقد سيطر فقراء المدينة على الشوارع ، وقد أعمتهم شهوة الغضب الذى انطلق من عقاله ، والرغبة البشعة فى الانتقام . وفى هذه الساعات

بالذات ، وقبل أن ينجح الجيش فى إعادة النظام ، وقعت أشياء بشعة ، واختفى الكثيرون من الأبرياء ، اختفوا إلى الأبد . كانت أنباء الثورة ، من حيث تأثيرها النفسى فى الجماهير ، أشبه باطاحة الغطاء عن بركان كان يغلى منذ زمن طويل ، ما أبشع الظروف التى كان يعيش فيها فقراء بغداد، وما أعنف معارضتهم لحكم عبد الاله ونورى .

وعندما تم اعلان قيام الجمهورية العراقية ، وانتهاج سياسة حيادية جديدة، ذهب الثائر عبدالسلام عارف ، نائب رئيس الوزراء إلى دمشق ليحيي الرئيس «ناصر» باسم الثورة . كانت عواصم الغرب قد شعرت على التو بالانزعاج لأنباء الثورة التى كانت غامضة فى البداية. وطالب الرئيس أيزنهاور بانعقاد مجلس الأمن ، غير أنه أمر قوات الأمم المتحدة بالنزول لبنان قبل أن ينعقد مجلس الأمن . وبالمثل أمرت الحكومة البريطانية جنود مظلاتها بالهبوط فى الأردن وما زالت النيات الحقيقية وراء هذه الاجراءات غامضة ، ولكن يبدو أن الغرب ظن أن الثورة العراقية تمت بتدبير من القاهرة (وأضافت مخابرات الولايات المتحدة اسم موسكو) وأنه سيتم « الحاق » العراق بالجمهورية العربية المتحدة بعد خلع الملك حسين وحكومة شمعون ومالك فى لبنان . وفى الساعات التى أعقبت ذلك كانت الأزمة الدولية الحادة قد وصلت بالعالم إلى « شفاء الهاوية » وفى الأيام التالية قالت حكومة اسرائيل ، محذرة، انها ستعتبر أى تغير للوضع الراهن بالأردن تهديداً يعطى اسرائيل « حرية التصرف كاملة » .

وبعد ذلك أخذت الأزمة تخف فى الشرق الأوسط رويداً رويداً

لقد انتهت الحرب الأهلية فى لبنان، بعد أن أبدت قوات الولايات المتحدة تعقلا ونظاما يحتذى بهما، ولكنها لم تقم بأى وظيفة أخرى. وتخلى السيد شمعون عن نيته فى تجديد مدة رئاسته. ووافق الطرفان على رئاسة الجنرال شهاب الذى يلتزم - بحرص - جانب الحياد، وفى ظل قيادته غير المتحيزة تسلم مجلس وزراء صغير زمام الحكم، وكان يمثل الطرفين.

وانسحبت القوات الأمريكية. أما مشكلة وجود القوات البريطانية فى الأردن فكانت أكثر تعقيداً، نظراً لتحذيرات بريطانيا له وأخيراً صار إنسحاب القوات البريطانيه ممكنا بعد قرار صوت عليه كافة العرب فى الجمعية العامة، وتعهدوا فيه بعدم التدخل بين دولة عربية وأخرى.

وعندما استعاد الجيش العراقى النظام، واجهت عبد الكريم قاسم وزملاءه مسألتان هامتان. فالمسألة الاولى الحيوية، هى كيفية تأليف الحكومة الجديدة، أما المسألة الأخرى فهى: علاقة الجمهورية الجديدة بالجمهورية العربية المتحدة والرئيس ناصر. وأثبتت الأيام أن هاتين المشكلتين متشابكتان، وأدت قرارات قاسم بصددهما إلى نتائج خطيرة فى العام الاول للجمهورية.

وفيما يتعلق بالمشكلة الأولى، انحصر الاختيار بين تأليف حكومة من العسكريين فقط، أو ادخال بعض زعماء الأحزاب المدنية التى كانت مضطهدة فى الماضى. ولم يكن قاسم سياسياً محنكا، كما لم يكن من الممكن فى ظل عهد نورى، تنظيم جماعة متماسكة للضباط لها مجلس يضطلع بمهام الحكم، ولو مؤقتاً ونتيجة لهذا كله، وبناء على مشورة الموثوق بهم الذين

لم تكن ميولهم السياسية واضحة بادىء الأمر ، تم تأليف وزارة معظم وزرائها من المدنيين .

وعلى الفور مست مسألة علاقة العراق بالعرب جوهر السلطة نفسها فى العهد الجديد. وفى يوليو من عام ١٩٥٨ كانت مشاعر الشعب المنادية بالوحدة العربية ترتفع بشدة . وكانت الكثرة الغالبة من العراقيين تؤمن بأن نوري السعيد قد عزل العراقيين عن إخوانهم العرب ، ومن أجل هذا اعتبروا الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ضرورة لا غنى عنها . وكان من الواضح أن على المسئولين أحد أمرين : تلبية أمل المواطنين ، المبكر ، فى الوحدة أو رفض الوحدة ، وتخفيف وقع ذلك على الجماهير بأن يشرح المسئولون لهم لماذا لا تعتبر الوحدة أمراً غير مرغوب فيه .

ولكى نفهم الأحداث التى وقعت بعد ذلك ، علينا أن نصف بإيجاز الاتجاهات المختلفة التى ولدت الصراع حول هذه المشكلة . ونستطيع أن نبدأ بالرئيس ناصر لقد تزايدت شكوكه ، السابقة ، بشأن الاتحاد بين مصر وسورية ، ذلك الاتحاد الذى تم بسرعة .

وفى الثانى والعشرين من شهر يوليو ، وفى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها آمال العراقيين فى الوحدة إلى الذروة ، أشار بصراحة ، فى خطاب كبير له ، إلى المثالب الخطيرة التى نجمت عن هذه السرعة ، مشيراً إلى المتاعب التى تعانى منها الميزانية السورية التى لم تكتشف إلا بعد تنفيذ الوحدة ، لأنها كانت تفتقر - سابقاً - إلى دراسة ملائمة . ولم يكن راغباً فى تحقيق وحدة العراق العضوية بالجمهورية العربية المتحدة فى القريب

العاجل ، وأرسل إلى رئيس الوزراء سراً ينبئه بذلك .

أما السياسة التى اتفقا عليها فتقضى بأن تكون الوحدة وظيفية فقط ، لأجل غير معلوم . وكثيراً ما قال قاسم إنه بالرغم من أن العراق « جزء لا يتجزأ من الأمة العربية » إلا أنه سيجرى استفتاء فى موعد غير محدود يحدد فيه الشعب طبيعة علاقاته بالعرب .

وفى العراق نفسه كانت هناك قوتان تتحديان سياسته تحديا سافراً . أولاهما القيادة الرمزية ، المحبوبة للغاية ، والتى يتزعمها عبد السلام عارف نائب رئيس الوزراء والذى قام بتنفيذ الانقلاب بنفسه . كان عبدالسلام عارف متحمساً جامحا ، ولم يكن يلتزم جانب الاتزان فى تصريحاته السياسية .

وكان حياديا للغاية ، ولذلك كان معاديا للشيوعيه عداء سافراً ، كما كان يندد فى الوقت نفسه بالدول الغربية . ونظراً لأن عبد الكريم قاسم كان متحفظا بطبيعته ـ بل وخجولا أمام الجموع الثائرة فى الشهور الأولى لحكمة ـ انتقل دور خطيب الثورة إلى عبد السلام عارف بالريف « بطل بغداد » . وطاف الشاب عبد السلام عارف بالريف مطالباً ـ بل يكاد يكون واعدا ـ بالاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ، وهو الاتحاد الذى كان يتوق إليه .

وفى نفس الوقت قطع على نفسه وعوداً ضخمة فى ميدان السياسة الداخلية ، وعوداً لم يصدق عليها مجلس الوزراء ، كما كانت تعبر عن عدم

شعور بالمسئولية (مثال هذا : إلغاء جميع الديون الخاصة التى أبرمت قبل الرابع عشر من شهر يوليو » .

أما القوة الأخرى التى كانت تطالب فى العراق بالوحدة فى صراحة فهى حزب البعث ، وهو الجناح العراقى للحزب العربى الذى ألح زعماؤه السوريون على مصر بالاتحاد مع بلدهم . لم يكن حزب البعث يطالب فدرالية ، وإنما وحدة عضوية .

ووقف ضد مطالب عبد السلام عارف وحزب البعث قوتان سياسيتان ذات طابع خاص أطلقتهما أحداث ١٤ يوليو من عقالهما . فالحزب الديمقراطى الوطنى الذى يتزعمه الاشتراكى العقيد كامل جادرجى يلتزم النظرة التاريخية القائلة بأن العراق لم يكن فى يوم من الأيام جزءا من الكيان العربى العريض، ومن ثم فإن له شخصيته المستقلة . كان الجادرجى يؤمن، هو وزملاؤه من الزعماء الديمقراطيين ، بوجوب تطبيق ديمقراطية حزبية برلمانية على الطراز الغربى ، وأن من الممكن ارساء قواعدها فى الجمهورية الجديدة فى الحال .

ونظرا لأن الجمهورية العربية المتحدة ألغت النشاط الحزبى فإن الديمقراطيين الوطنيين صمموا على الوقوف أمام عبد السلام عارف وحزب البعث اللذين يطالبان بوحدة يخشى الديمقراطيون أن تؤدى إلى إلغاء الأحزاب بالعراق . ولم يفهموا أن ثورة تقوم ضد دكتاتور (نورى السعيد) يجب أن تكون صورة أخرى من صور الدكتاتورية .

وكان من بين الزعماء والأعضاء الديمقراطيين مثقفون وموظفون ذوو

آراء ماركسية ، وعلى الأخص ابراهيم كبه ، رجل الاقتصاد . وازداد نفوذ هذا الجناح الماركسى للديمقراطيين عندما ألف الحزب ـ كما سنرى حالا ـ تحالفا تكتيكيا فعلياً مع الشيوعيين بالعراق .

لقــد رأى الشيوعيون العرب فى الثورة العراقية تطوراً هاما للغاية . لقد مرت الحركة بمراحل كبرى متعددة منذ الحرب العالمية الثانية ولكن لم تنجح أية مرحلة من هذه المراحل . ولقد كانوا يأملون ، فى البداية ، فى أن تكون مصر هى مركز النشاط ، غير أن هذا الأمل تبدد لأن ناصرا كان يقمع أى نشاط للحزب الشيوعى منذ زمن طويل .

وكانت هيبــة الاتحاد السوفييتى قد حققت نموا كبيراً فى الشرق الأوسط منذ عام ١٩٥٥ ، وكانت هذه ميزة واضحة . غير أن الاستفادة من هذه الميزة تتطلب وجود قاعدة داخل المنطقة العربية ، وبفضل هذه القاعدة تستطيع الشيوعية العربية المحلية أن تحرز لنفسها مركزاً شعبياً ضخما ، لتمسك فى النهاية بأزمة الحكم . وتبدد هذا الأمل فى سورية بعد اتحادها مع مصر .

فأشارت كل الدلائل إلى العراق ، باقطاعه البشع ، وارتفاع نسبة التحضر ، وثروته البترولية الكفيلة بتحقيق تطور مذهل . كان العراق يمثل فرصة هائلة ، لابد من انتهازها على الفور . .

وتم إعداد البرنامج الشيوعى للعراق الثائر فى حرص ودقة ، وظهر بصورة واضحة فى الخامس عشر من شهر يوليو ، عندما دخل الحزب الميدان وعلق شعاراته على الحوائط ، ونظم المظاهرات ، وأعيد وضع كميات

من المنشورات تدعو إلى « الاتحاد العربى والصداقة السوفييتية » . كانت الاشارة إلى « الاتحاد العربى » قرارا حكيما يواجهون به رغبة الشعب فى الوحدة ، ولكن على أساس أبسط صور الوحدة . .

ولم يكن الحزب بأقل من الديمقراطيين الوطنيين تصميما على عدم تحقيق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة فى ظل زعامة ناصر اللاحزبية المعادية للشيوعية ، تلك الوحدة التى يشجعها عارف وحزب البعث . وهكذا نستطيع أن نفهم أن أهداف الشيوعيين والديمقراطيين التقت فى نقطتين حيويتين : عدم الوحدة — والحرية الحزبية الكاملة . وكان الحزب الشيوعى ينوى تعزيز مركزه بين صفوف الجماهير بالتدريج ، والتسلل إلى المناصب الرئيسية والمراكز التنظيمية الجماعية ، وفى الوقت نفسه يؤيد ، أمام الناس ، الزعامة الرمزية لعبد الكريم ، تلك الزعامة التى هى « فوق كل حزب » وكثير من أصحاب الميول الشيوعية الذين ظهر نشاطهم فى الرابع عشر من شهر يوليو ، لم يكن يعرف حتى زملاؤهم هذه الميول عنهم ، ولم يميطوا اللثام ، فى البداية ، عن هذه الميول . وهكذا استطاعوا أن يحصلوا على مراكز حساسة بما فى ذلك منصب نائب رئيس شرطة بغداد ، ومدير إذاعة بغداد ، والرقيب على الصحف ، ورئيس محكمة الثورة . .

غير أن التغلب على العقبات الخطيرة التى تعترض هذه الخطة الدقيقة يتطلب كسر شوكة عبد السلام عارف ، وحزب البعث ، وكبار الزعماء السياسيين الذين قد يتعاطفون مع الوحدة العربية والرئيس ناصر . ومن

الفئة الأخيرة زعماء حزب الاستقلال الذين نستطيع أن نصف سياستهم بأنها تميل إلى الوحدة غير أنها على استعداد للسير فى الطريق الذى رسمه ناصر وقاسم . ولكن ، أهم من هذا كله أن الشيوعيين قرروا إزالة عبد السلام عارف ، كانت خطبه المنادية بالوحدة خطرا فى حد ذاتها وشعر الشيوعيون والديمقراطيون بأن شعبيته وطبعه الحاد قد يهددان رئيس الوزراء قاسم المطيع . وإلى جانب هذه الاعتبارات ، كان هناك قلق كبير بشأن وعود عارف فى الداخل ، التى تنم عن عـــدم تحمل للمسئولية . .

وهكذا تم إبعاد نائب رئيس الوزراء الشاب عن مراكز النفوذ شيئا فشيئا ، وفى النهاية تم إبعاده إلى بون ، وعندما عاد إلى بغداد فى ظروف مازالت غامضة ، تم القاء القبض عليه بتهمة الخيانة . وسرعان ما أعقب ذلك إبعاد أعضاء حزب البعث وزعماء حزب الاستقلال من وظائفهم ومن كل نشاط عام . وهناك من الأدلة ما يجعلنا نعتقد أن الحزب الشيوعى سارع إلى تنفيذ خطته الأصلية فى غمرة إحساسه الزائد بالثقة. والمسئولون الذين لم يكونوا منحازين من قبل قد أخذوا يميطون اللثام عن ميولهم الشيوعية بصورة متزايدة ، وذلك فى رقابتهم للصحف ، ودعايتهم فى الاذاعة ، وطريقتهم الشاذة فى المحكمة وازدادت سطوة المحاربين الذين يتزعمهم الشيوعيون ، والموجودين فى قوات المقاومة الشعبية (أنصار السلام) . .

وأهم من هذا كله أن مرحلة أخرى من مراحل الخطـة قد سبقت

موعدها على ما يبدو، فتم تنفيذها فى ديسمبر عام ١٩٥٨ . كان من الواضح أن النية متجهة إلى شن حملة دعاية تاريخية ضد زعامة ناصر لحركة القومية العربية ، والايحاء ـ بصورة متزايدة ـ بأن رئيس الجمهورية العربية المتحدة « ميوله غربية » ، والعمل بصورة منتظمة على خلق رأى فى سورية يناهض الوحدة مع مصر ويحبذ « مصير سورية الطبيعى فى اتحادها مع العراق » ، ورأوا أن من الممكن مد حركة الشيوعية لتشمل الهلال الخصيب، بعد تضامن العراق كقاعدة شيوعية قوية ومعرض «للديمقراطية الشعبية ، العربية » ، مع انعــزال سورية عن مصر وارتباطها شيئاً فشيئاً بالعراق .

وفى ديسمبر عام ١٩٥٨ بدأ الهجوم العانى على ناصر ـ سواء عن طريق أجهزة الدول العراقية أو الصحافة الخاضعة ـ وأوحوا بأنه « صديق واشنطن الجديد » .

ونتيجة لهذه التطورات بدأ رئيس الجمهورية العربية المتحدة هجومه المضاد ، ووجهه فى البداية إلى الشيوعيين العرب عامة وإلى الشيوعيين فى مصر وسورية بصفة خاصة، ثم وجه هجومه بعد ذلك إلى حكم عبد الكريم قاسم بالعراق .

وفى الشهور الأولى لعام ١٩٥٩ تطور الصراع بين القومية العربية التى يتزعمها ناصر ، والشيوعية التى يرتبط بها قاسم .

وفى مارس عام ١٩٥٩ تم إرسال قطار يحمل « بأنصار السلام » الذين يقودهم الشيوعيون لكى يتظاهروا فى الموصل ، شمالى العراق . وعندما

اشتبكوا بالوطنيين فى شوارع المدينة اتصل قائد حامية الموصل - تليفونيا - برئيس الوزراء فى بغداد ، وطلب منه أن يأمر أنصار السلام بالعودة إلى بغداد .

ولم يتلق أى رد من رئيس الوزراء . وعندئذ بدأ قائد الموصل فى شن ثورة تلقائية تفتقر إلى الاعداد ، وفشلت بالطبع لأن الضباط المعادين للشيوعية فى مناطق العراق الأخرى لم يكونوا منظمين أو على استعداد للانضمام إليه . .

وفى الفترة من مارس حتى سبتمبر عام ١٩٥٩ ، بدا من قاسم - بعد فوات الأوان - أنه أدرك أن الشيوعيين سيسيطرون على العراق سيطرة كاملة ورفض طلباً للشيوعيين والديمقراطيين الماركسيين بأن يكون للشيوعيين تمثيل قوى فى مجلس الوزراء .

وفى العيد الأول للثورة (يوليو ١٩٥٩) أعلن قاسم عن إيقاف أى نشاط حزبى سياسى حتى عام ١٩٦٠ . ولكن فى نهاية شهر سبتمبر وقع حادث هز الشرق الأوسط العربى وأغضبه ، وغطى هذا الحادث على بوادر التعقل من جانب قاسم ، وادراكه للخطر الشيوعى . .

لقد تم الحكم بإعدام ١٢ ضابطاً عراقياً بتهمة التواطؤ مع ثوار الموصل ، بعد محاكمة علنية خرج فيها ممثلوا الاتهام بأدلة مزيفة قالوا إنهم حصلوا عليها بعد تعذيب المتهمين ، ورأى العرب من غير الشيوعيين ، داخل العراق وخارجه ، أن هذا الحادث دليل دامغ على أن قاسما مازال يخضع لمطالب الشيوعيين . .

وبعد ذلك بدأ رصيد رئيس الوزراء الغريب في الهبوط المنتظم ، وفى أكتوبر ، ووسط الدلائل السافرة التى تنم عن القلاقل داخل العراق جرح قاسم أثناء محاولة لاغتياله . وخرج من المستشفى بعد فترة طويلة من النقاهة التى خضع فيها لحراسة قوية . وفى يناير ١٩٦٠ أعلن استئناف الاحزاب المشروعة لنشاطها . غير أن الجناح القومى والمعادى للشيوعية فى ميدان السياسة العراقية كان قد فقد حماسته ونظامه ، بعد أن نفى معظم زعمائه البارزين ثم أو أشكالهم . ومن بين هؤلاء البعثيون الذين حاولوا الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة (بصرف النظر عن رغبات ناصر) والقوميون العرب المعتدلون مثال ذلك أن عميد الحقوق فى جامعة بغداد وهو شخصية محترمة للغاية ، كان قد عانى من السجن فى ظل نورى السعيد ، ولكنه هرب من البلاد بعد ذلك وعبر علانيه ، عن قلقه ازاء سير الأمور فى ظل قاسم .

أما دور رئيس الوزراء نفسه طوال هـــذه الشهور الأولى الحرجة من تاريخ الجمهورية العراقية ، فما زال لغزا . وهناك دلائل كثيرة تثبت أن تسيير قاسم لدفة الأمور تأثر جداً بمشكلتين تنبعان من شخصيته : تعصبه حول موضوع واحد ــ وقد أخذ هذا التعصب يتطور منذ زمن طويل ــ وعقدة الاضطهاد .

فإذا أضفنا إلى هذا عدم درايته السياسية وسذاجته ، وجدنا أن نواحى الضعف هذه جعلته فريسة لمشورات الشيوعيين والموالين لهم

الذين وصلوا إلى المراكز الحساسة فى الحكومة الجديدة عقب ثورة عام ١٩٥٨ مباشرة. لقد استطاعوا أن يقنعوه بأن يظل « فوق كل حرب» (وهذا ما يكرره المرة بعد المرة) ، وأكثر من هذا أنهم اقنعوه بأن كل زعيم أو طائفة غير شيوعية يدبرون مؤامرة لاغتياله ، ومن ثم يجب تصفيتهم .

ولقد صور له عقله أنه خلق ليكون « زعيم العراق الأوحد » - وهو اصطلاح لم يسبق له مثيل فى لغة الوطنيين العرب الحديثة، ومن ثم حاول من حين لآخر استنفاد طاقة كافة الأحزاب السياسية الموجودة تحت إمرته ، وذلك بتشجيعها على الصراع السافر فيما بينها. غير أن الشيوعيين استفادوا من الامتيازات الممنوحة لهم منذ البداية فى موجة القمع الأولى التى تعرضت لها العناصر الأخرى من غير الشيوعيين .

ويبدو — من واقع الدلائل الموجودة — أن هذا يفسر لنا لماذا تدهورت ثورة كهذه. ثورة تدفعها آمال القومية العربية بأهدافها المألوفة وميولها اللاشيوعية ، لتصل إلى درجة يخشى عندها أن يصبح العراق أول دولة عربية - فى العالم العربى - تسيطر عليها الشيوعية . وأهم من هذا كله أن خضوع قاسم لنداءات الشيوعيين وحدها يفسر لنا لماذا لم ينتهز الفرصة المبكرة للاجتماع بناصر . ليعلنا عن سياسة تعاون معتدلة . ومن حقائق عام ١٩٥٨ الساخرة أنه لو كان قاسم قد وافق على رسائل ناصر الأربع المتتالية والتى يقترح فيها على قاسم عقد اجتماع فى أى مكان يختاره قاسم ، ووفقا لأية شروط ، لو فعل هذا لحصل من زعيم الجمهورية

العربية المتحدة على تأييد عام سواء لنفسه أو لسياسة الحذر ازاء أية اجراءات نحو الوحدة .

وفى الوقت الذى أكتب فيه هذا الكتاب (*) لا أستطيع أن أتنبأ بنتيجة تلك الشهور التراجيدية الدموية فى العراق . إن البلد يمر بانتفاضة شاملة ، انتفاضة اجتماعية واقتصادية ، وكان لابد أن يمر بها ، وإذا وضعنا فى اعتبارنا تلك القوى التى إنطلقت من عقالها بعد هذه السنوات العديدة من الاقطاع الصارخ ولكننا مع ذلك ، نستطيع أن نتنبأ بأن الأمل ضعيف فى أن تستقر الجمهورية العراقية الجديدة ، بعيداً عن الشيوعية ، فى ظل قاسم ما لم يقدم على القرارات الايديولوجية الجوهرية التى يتجاهلها مبدؤه بصورة خطيرة ، مبدأ « الارتفاع عن الأحزاب » .

تغير فى السودان

وفى نفس الوقت ، وفى أماكن أخرى من العالم العربى ، تلاحقت الثورة السياسية والاجتماعية ـ ويرجع هذا ، إلى حد كبير لثورة العراقية وأثرها الكهربى . فى نوفمبر عام ١٩٥٨ ، قاد عبود انقلابا عسكريا فى السودان ، وخلع الحكومة المدنية وعطل الدستور والاحزاب نظراً « لحال الانحلال ، والفوضى ، وعدم الاستقرار القومى ... الذى اتسمت به الحكومات الحزبية المتوالية » . وأعلن عبود عن اتجاهه لسياسة الحياد فى الخارج ،

* نشر هذا الكتاب عام ١٩٦٠ (المترجم)

واعترافه بالصين الشعبية ، والتعاون مع الدول العربية، والعزم على توثيق العلاقات ، بصفة خاصة ، مع الحبشة والجمهورية العربية المتحدة . وقال رئيس الوزراء العسكرى : إن وجود «توتر مصطنع» مع الجمهورية العربية المتحدة هو من بين الأسباب الكبرى التى جعلتهم يقومون بهذا الانقلاب. ومع ذلك لم يشر عبود إلى أنه ينتوى ما هو أكثر من التعاون مع القاهرة. وكان من الواضح أنه حريص على أن يصل البلدان إلى اتفاق فى المستقبل ازاء مشكلة مياه النيل (وتم توقيع الاتفاق بالفعل فى أواخر عام ١٩٥٩).

والأمر الذى له دلالته ، والذى يشير إلى ميول أعرض، أن عبودا أكد أن السودان « لم يكن مهيأ - فيما يبدو - للديموقراطية الغربية عندما غادره البريطانيون » . وكما هو الحال فى أى مكان آخر يتسلم فيه الضباط زمام الأمور ، رحب الشعب السودانى بقائد منفذ قوى، بعيد عن الفساد، غير متحيز .

ثورة فى اليمن ؟

وفى منتصف عام ١٩٥٩، كانت هناك أيضاً دلائل تشير إلى وجود انتفاضات سياسية ضخمة فى اليمن ، ذلك البلد القديم الذى ينتمى بحق إلى العصور الوسطى ، والواقع فى جنوب غربى شبه الجزيرة العربية . وبالرغم من أن إمام اليمن العجوز ، البالغ من العمر سبعين عاما ، كان أقل تهوراً حتى من عاهل المملكة العربية السعودية ، الا أن ابنه، الأمير البدر ، تشبع بآراء القومية العربية الحديثة . وبينما كان الامام المريض

فى إيطاليا للعلاج — وبصحبته زوجاته وجواريه وعبيده ، شرع ولى العهد فى حملة تطهير ضخمة فى سلك الوظائف العامة الكبرى ، وأعلن أنه مصمم « على الارتقاء بهذه الأمة » .

ولقد كان لولى العهد دخل كبير فى تحقيق الاتحاد الفدرالى لليمن مع الجمهورية العربية المتحدة فى أوائل عام ١٩٥٨. وليس الأمير البدر عصريا بالمعنى الكامل على الاطلاق ، غير أنه معجب بالرئيس ناصر . وتتضمن اصلاحاته تأليف مجلس نيابى ، وخزانة مركزية وميزانية مركزية وقد كانت هذه الأجهزة الثلاثة غير موجودة من قبل، ولم يكن هناك مايدل على أن ولى العهد ينوى الاستيلاء على سلطان أبيه . والاحتمال الأكبر أن هذه الاصلاحات جاءت استجابة لموجة من عدم الرضا ،وهى الموجة التى عبرت عن نفسها بمزيد من الحرية أثناء غيبة الامام،والتى قد تتحدى النظام الملكى بأكمله . لقد فتح هذا الركن من الجزيرة العربية ، فتح بابه على العالم الحديث عن طريق اتحاد اليمن مع الجمهورية العربية المتحدة ، وتأثره بالاذاعات الخارجية،ووصول فنيين من الكتلة السوفيتية لتنفيذ برامج المعونة ، وذلك فى عام ١٩٥٧ .

دول عربية أخرى

كان للثورة فى البلدان العربية المتقدمة صداها أيضاً فى سلسلة الأمارات التى تحف بشبه الجزيرة العربيـــة شرق اليمن وحولها حتى الخليج العربى . إن القومية العربية موجودة وآخذة فى النمو فى اتحـاد

عدن ، المتاخم لليمن والخاضع لروابط خاصة مع بريطانيا طبقاً للمعاهدة ومن الأمثلة البارزة على هذا الاتجاه ما حدث عام ١٩٥٨ عندما أبعدت الحكومة البريطانية — بالقوة — سلطان لحج الشباب ، وحاكم إحدى الامارات الأربع والعشرين التابعة لمحمية عدن آنذاك ، والسلطان الأكبر اسمياً . لقد التهب السلطان على عبد الكريم حماسة للقومية العربية وزعامة ناصر . ونفذ صبره ازاء الروابط الخاصة التى تربط لحج ببريطانيا وأصبح — بصورة متزايدة — مصدرا للمؤامرات السياسية ضد حاكم مستعمرة عدن الموفد من حكومة صاحبة الجلالة . وشرع على عبد الكريم فى تطوير امارته الصغيرة .

وفى عام ١٩٥٨ ذهب السلطان إلى لندن لإجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية ، وبينما كان فى طريق العودة إلى بلاده ، صدر مرسوم بخلعه من قبل بريطانيا وقوات الاحتلال الموجودة فى لحج .

وبعد ذلك أنجزت بريطانيا اتحاد امارات عدن ، وذلك لكى تقف أمام تيار القومية . غير أن مستقبل هذه الامارات مازال مستعصيا على الحل - ومما يزيد المشكلة تعقيداً أن اليمن ، يطالب بسيادته على جزء من المنطقة الغربية ، وأن بريطانيا تريد الاحتفاظ بمستعمرة عدن الفعلية (الميناء والقاعدة الجوية) للأغراض الاستراتيجية . ولقد تضاعفت أهمية عدن بانتظام نظراً لاختفاء القواعد الاستراتيجية البريطانية فى أقصى الشمال .

والدليل الثانى على نفوذ القومية الحديثة فى تلك المنطقة التى تحف بالجزيرة العربية ، ماثل فى الكويت ، تلك الامارة ذات الثروة الخيالية

(الدخل السنوى من البترول مائة مليون جنيه استرلينى. وعدد السكان ٢٠٠٠٠٠ر٢٠٠) والتى تقع على الخليج الفارسى جنوب العراق مباشرة وأمير الكويت مرتبط مع بريطانيا بمعاهدة ، غير أنه خصص مبالغ ضخمة جداً لاحداث ثورة فى التعليم ، والاسكان ، والصحة ، والخدمات العامة . غير أن تحضر الكويت السريع لم يخفف من حدة القومية بين سكانها - وبخاصة العرب من غير الكويتيين (مصريين ، فلسطينيين ، سوريين ، وغيرهم ممن جاءوا لتوفير المهارات التى يفتقر إليها الكويتيون) ويمثلون ٥٠٪ من مجموع السكان . وهناك عدم ارتياح كبير - الداخل - ازاء التفاوت بين دخل الكويت والبذخ الذى تعيش فيه أسرة الحاكم ، ومما يضاعف من هذا الشعور ولا يخففه استثمارات الحاكم العامة ، وهى ضخمة . وهناك أسباب أخرى للتوتر ، ليس مبعثها سلوك الحاكم نفسه ، وانما سلوك الكثيرين من أقاربه الاوتوقراطيين . ومما يضاعف من حدة الحنق أن الحاكم يستثمر فائض رأس المال الكويتى الضخم فى لندن ، وإلى جانب هذا الحنق ترتفع المطالبة بتوثيق عرا الوحدة مع بقية بلدان العالم العربى .

وكانت ثورة العراق فى يوليو عام ١٩٥٨ تمثل خطراً مباشراً للحاكم ، الذى قابل الرئيس ناصرا صراحة وأمام الجميع ، فى دمشق ، وعبر عن تعاطفه مع القومية العربية . وقد أحس بقلق كبير أيضاً ازاء النشاط الشيوعى بالعراق . ونستطيع أن نتنبأ بحدوث تغير كبير فى الكويت ، فى الحكم والعلاقات الخارجية .. وستتعرض بريطانيا لأزمة

خطيرة نتيجة لتأثر لندن بهذا التغير (عندما يعاد توجيه رأس المال الكويتى إلى التنمية العربية) ، وقاق بريطانيا على بترول الكويت . وتنطبق هذه المشكلة العامة على بقية الامارات العربية فى المنطقة . والاقتراحات المتكررة المنادية باستخدام القوة ليست إلا ضرباً من التكهنات المألوفة التى لا تحتمل نتائجها التفكير . وقد كان حرياً ببريطانيا ، منذ أمد طويل ، أن تعيد النظر فى سياستها فى هذه المنطقة ، ولا يمكن أن تؤجل بريطانيا هذه الخطوة إلى أجل غير مسمى .



الفصل السابع

الثورة العربية الداخلية

كانت الأضواء مسلطة ، فى الفصول السابقة ، على المسائل الخارجية ـ على الصدام بين القومية العربية والدول الكبرى ، والسعى وراء الوحدة العربية ، والصراع مع اسرائيل . غير أن المبدأ الذى سارت عليه هذه الدراسة هو أن وراء هذه الازمات الدولية تيارات قومية فى داخل العالم العربى ، ممثلة فى تغييرات اجتماعية واقتصادية ، وإننا لو فهمنا هذه التيارات لكان من الممكن تفادى جزء كبير من العاصفة . لقد غاب عن ذهن العالم أن هناك ثورة عربية عميقة ومستمرة فى داخل العالم العربى ـ ويرجع هذا إلى أن الزعماء الوطنيين أنفسهم كانوا يوجهون تصريحاتهم العامة ـ على الدوام ـ نحو المسائل الخارجية ، ومن المؤكد أن هذه المسائل الخارجية كانت تشغلهم ، وهناك سبب آخر ، وهو أن فكرة الغرب عن المجتمع العربى ظلت خاضعة لتصوراته وحريم ليالى ألف ليلة وليلة ، وعن ساسة فاسدين لا يكترثون للفساد والفقر ، و « الرعاع الجهلة » .

والواقع أن أسلوب التغير الاجتماعى والاقتصادى فى العالم العربى ، والمشاكل التى يثيرها ، إنما يشمل كل مظهر من مظاهر الحياة الانسانية

وعلى مستويات تتراوح بين مستويات عصور وسطى إلى مستويات حديثة.

فما زال فى اليمن نسوة تنغرز فى أذرعهن حلقات حديدية عقابا لهن. وفى مصر نجد أن النقاب التقليدى يختفى بسرعة بحيث نستطيع أن نحس بالتطور عاما بعد عام. وفى العربية السعودية مازالوا يقطعون يد السارق غير أن الطبيب يستطيع الآن تعقيم الجزء الباقى. والواقع أن النظم القانونية فى كثير من بلدان العالم العربى، هى نظم حديثة، وبرامج الصحة العامة والخدمات الطبية قد قطعت أشواطا مذهلة إلى حد أن زيادة السكان صارت مشكلة خطيرة.

ولقد كانت هناك أشواط سريعة فى ميادين التعليم العام، والصحة، والمواصلات، والصناعة، وذلك فى ظل الانتداب وغيره من الحكومات، خلال ما عرف قبل بالثلاثين سنة الانتقالية من ١٩٢٢ حتى ١٩٥٢. غير أن هذه الاجراءات لم تكن كافية، وبخاصة فى المناطق الريفية، وكانت الفلسفة السياسية والاقتصادية لتلك العهود فى هذه الفترة تؤمن بمبدأ عدم تدخل الدولة فى شئون الفرد، وكان الفساد مستشريا. وبينما تضاعفت ثروات كبار الملاك والشخصيات البارزة، لم تخف وطأة الفقر التى تعانى منها الكثرة الغالبة فى الدول العربية. وازاء هذه الاوضاع. ونتيجة لتاثير الافكار الغربية الحديثة عالج الوطنيون، فى الجيل الجديد. عالجوا ثورانهم وهم مدركون الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية التى لا يجب أن يرفضها الغربى النافد الصبر، على أساس أن المجتمع العربى لم يترك بعد فترة الانتقال.

فاذا انتقلنا للطابع الاشتراكى للقومية العربية الحديثة ، تعذر علينا وصفه - والواقع أن المراقبين الغربيين كثيراً مايبذلون جهداً كبيراً لكى يعثروا على أى عقيدة اجتماعية اقتصاديه متماسكة فى الحركة وهذه العقبة التى تحول دون ظهور مثل هذه العقيدة ليست وقفاً على الجزء العربى من العالم الافريقى الآسيوى . ولكن مما لاشك فيه أن الاهتمام - لعشرات من السنين - للمشاكل الخارجية قد حال دون ظهور فكر ناقد صامد بين صفوف القادة العرب . والمشكلة أنه بينما نجد للاشتراكية أغراضاً وأفكاراً واضحة فى المجتمع الغربى المتطور تاريخياً الصناعى ، المتدرج اقتصادياً ، نجد أن هذه الأشياء ليس لها معنى فى العالم العربى . أو ليست ممكنة على الاطلاق . والمعنى المتواضع عليه بالطبع هو استخدام الدولة فى توجيه الطاقات البشرية والمادية للأمة ، والسير بها إلى الأمام ولكن بينما تسعى اشتراكية الغرب إلى إعادة توزيع الثروة الموجودة ، يواجه الاشتراكيون العرب المشكلة التالية : باستثناء العنصر « الاقطاعى » المحدد - نجد أن « الثروة » الوحيدة المتبقية هى ثروة الأقلية المثقفة ، هى ثروة الأقلية . والموظفة ، والتجارية ، التى يتوقف عليها ، بالذات ، جهاز الدولة وجهاز الحكم . وليست هناك مرافق متعددة تغل ثروة . أو صناعات كثيرة يمكن تأميمها . وبينما نجد أن التركيز موجه للاستثمار العام من أجل الصناعة ، إلا أن الاشتراكى العربى يدرك أنه إذا خنق الرأسمالية الخاصة ، فإنه يخنق رقعة حيوية من المهارات التى لايستطيع أن يجندها ببساطة فى السلك المدنى .

واشتراكية الزراعة قد تكون مثلا أعلى رائعاً ، غير أنها تؤدى - فى

ميدان التجربة ـ إلى صراع مع غريزة تأصلت فى الفلاح ، وهى غريزة الامتلاك ـ ومما يعزز هذه الغريزة أن الفلاح أمى ويشك إلى حد كبير فى « الحكومة » . وإذا أردنا أن نصور هذه المشكلة بطريقة مبسطة ذكرنا حال رجل يشترك مع إخوته الخمسة فى ثمار شجرة تين واحدة . وهو يعانى من صعوبات كثيرة من أجل انتزاع مايمسك رمق أسرته من شريط من الأرض يحرثه بطريقة بدائية ، وتعرضه للسلطة علمه أن هناك ضرائب وإيجارات باهظة ، ومرابين يؤيدهم البوليس . غير أن مثل هذا الرجل لن يرحب ، ببساطة ، بالانضمام إلى جمعية تعاونية .

موجز القول أنه لكى يخفف من حدة الشكوك فى دعاوى « المجتمع الاشتراكى التعاونى » الذى تنادى به القومية العربية ، فعلينا أن ندرك أن الوصفة الغربية لايمكن أن تحل مشاكل العرب الاجتماعية والاقتصادية والواقع أن الوطنى الحديث (أو الاقتصادى المثقف) رضـــع روح الاشتراكية الغربية ولم يتشبع بطريقة التطبيق نفسها وهو يريد تحقيق اشتراكية الغرب هذه فى بلده. إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بالتجربة والذكاء إنه لا يستطيع أن يقلد .

إنه يبدأ بتسليط الأضواء على التعليم ، وهو من الخطوات الأولى التى تتم فى سرعة وحماسه بعد الحصول على الاستقلال الكامل . ويكفى ، لكى نلقى نظرة على هذا ، أن نقول : إن عدد الطلاب المراكشيين ارتفع من ٢٨٧٫٠٠٠ فى عام ١٩٥٥ إلى أكثر من ٦٢٥٫٠٠٠ فى عام ١٩٥٦ . وفى مصر قطعت الحكومات أشواطاً هائلة فى ذلك الميدان فى فترة الثلاثين عاماً الانتقالية التى ذكرناها فى فصل سابق ، ومن بين النتائج أن نسبة

خريجى الجامعات المصرية عام ١٩٤٦ إلى عدد السكان زاد على النسبة الموجودة فى بريطانيا بأحد عشر ضعفاً ، وكان التعليم فى فلسطين أيام الانتداب البريطانى جديراً بالاهتمام، فلقد تخرج على يديه سكان فلسطينيون (معظمهم لاجئون الآن) يعدون من أكبر المثقفين سياسياً فى المنطقة بأكملها ، وفى ربوع العالم العربى كله كان الهدف من السياسة التعليمية الوطنية هو جعل اللغة العربية اللغة الأساسية إلى جانب جعلها لغة الثقافة .

ومع ذلك فإن الصورة العامة مازالت صورة أمية ترتفع إلى ٧٥٪، وتحتاج إلى المهارات الفنية الحديثة ، مما يعرقل سير التطور الاقتصادى السريع ، أضف إلى هذا أن تزايد السكان بصفة دائمة سريعة يثقل كاهل البرامج الخاصة بتشييد المدارس بل إن هناك سباقا رهيبا من أجل مواجهة هذه الزيادة مستقبلا فما بالك بالرغبة فى تحقيق الهدف العام من جعل التعليم متاحاً للجميع فى المستويات الأولية . والعليا فى النهاية . وبالاضافة إلى ذلك ليس هناك عدد كاف من المدرسين المؤهلين .

ومنذ عام ١٩٣٦ اضطرت معظم البلدان العربية إلى استعارة المزيد من المدرسين المصريين أو الفلسطينيين والسوريين أو منهم جميعاً .

ومن المقاييس المباشرة التى تدل على وجود حكومات وطنية حديثة الإصلاح الزراعى واعادة توزيع الأرض ، وقبل الاستقلال كان الأوروبيون يمتلكون ربع الأرض التونسية ، غير أن الحكومة تشترى الآن هذه العقارات فى الوقت الذى يتضاءل فيه عدد هؤلاء الأوروبيين (ومعظمهم من الفرنسيين) وستقوم الحكومة بتوزيع هذه الأرض على

المعدمين ، ومازالت تلك الأراضى الجزائرية المزرعة ملكا لحوالى ٢١٠٠٠ أوروبى ، ويعيش ٦ مليون مسلم (جزائرى عربى) على الجزء الباقى ، منهم ٣ مليون معدم ، لا يشتغلون إلا أياما قلائل كل عام . وفى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ : كان خمس الأرض المزرعة ملكا لالفى شخص (من بين ٢ر٧ مليون شخص) وقد صارت الدولة ذلك، وأعادت توزيع الأرض على حوالى ١ر٢ مليون مزارع (كما أصدرت قانوناً بتحديد ايجار الأرض) وقد وفر هذا على المستأجرين حوالى ٤٠ مليون جنيه سنوياً) ولقد أقدمت الثورة العراقية على إجراء مبكر مماثل ، فصادرت عقارات شيوخ القبائل الضخمة ، وقبل عام ١٩٥٨ ، فى ظل حكم نورى السعيد ، كان ٩٦٪ من المزارعين معدمين .

وما اتحدت سورية مع مصر عام ١٩٥٨ حتى بدأ الاصلاح الزراعى فى سورية أيضاً . ولم تنفذ الاصلاحات فى لبنان بعد ، فنصف الأرض المزرعة فى يد حوالى ٢٠٠ مالك كبير من ذوى النفوذ السياسى الضخم .

غير أن النتائج الاقتصادية للاصلاح الزراعى هى نتائج محدودة بالضرورة ، إن الاصلاح الزراعى يعيد توزيع السلطة السياسية ، ويتيح قسطاً وفيراً من الكرامة للزارعين المضطهدين وبالنسبة للعراق نجد أن إعادة توزيع الأرض أمر حيوى جداً، لأن الملكية القديمة كانت ذات طابع اقتصادى تام ، وستكون النتائج الاجتماعية والاقتصادية ذات طابع ثورى تماما ، غير أن الاصلاح فى حد ذاته لا يحل مشكلة تضخم السكان الريفيين .

ونظراً لان الملاك الجدد غير ملمين بفنون الزراعة الحديثة كان من الضرورى تنظيمهم داخل جمعيات تعاونية اجبارية ، وجعلهم يزرعون بطريقة موحدة ، وواضح أن التعاونيات الزراعية فى حاجة إلى التوسع لكى تشمل جميع الأراضى الزراعية العربية باعتبارها الوسيلة الوحيدة الناجعة لمد المزارعين بالبذور والسماد والآلات ، وتوفير محاصيل عالية لمواجهة تقسيم الأرض ، وضمان تسويق ملائم ، وهذه الأهداف واضحة فى مصر وسورية والعراق وتونس والقوميون العرب يكرهون الفكرة الشيوعية للمزارع الجماعية ، والتعاون هو الحل البديل ، ويجب نشره عن طريق الاقناع .

إن المشكلة الكبرى هى توسيع الرقعة المزرعة إلى أقصى حد يمكن أن تسمح به المياه المتوفرة ، والمطر المباشر لا يوفر سوى فرص محدودة . ويحدث فى مناطق كثيرة (فى أجزاء من مراكش على سبيل المثال) أن تتراوح نسبة الأمطار من عام الى عام بحيث تحول دون استقرار الحضارة . وهناك بصفة عامة مصادر كبيرة للماء فى العالم العربى : جبل الأطلس فى المغرب . مياه النيل فى مصر والسودان . مشروع وادى نهر الأردن الذى يؤثر على لبنان وسورية والأردن وإسرائيل . ونهرا دجلة والفرات فى سهل العراق الكبير اللذان يؤثران أيضاً على شمالى سورية . ومن مآسى العالم العربى فى منتصف القرن العشرين أن الاستغلال السليم المنسق لهذه المياه لم يتم فى وقت مبكر عاجل .

غير أن هناك مشروعات استغلال عديدة فى الطريق فى الأقطار المختلفة . ومن أهمها السد العالى ، ويهدف هذا المشروع العملاق إلى تخزين

مياه النيل أثناء الفيضان، وسيروى المزيد من الأراضى . والفرص المتاحة فى السودان لتوسيع الرقعة المنزرعة هى فرص أكبر ، وفى مقدور مشروعات الرى السورية لتوسيع الرقعة المنزرعة إلى النصف ، واليوم يستعيد العراق نظامه فى الرى (وهو النظام الذى حطمه غزو المغول فى القرن الثالث عشر) عن طريق السدود والقناطر التى تتحكم فى الفيضان ، ومن الممكن زيادة نسبة الأراضى المروية حوالى ٥٥ ٪ غير أن فائدة مشروع وادى نهر الأردن موقوفة بسبب النزاع مع إسرائيل .

وإذا استخدمت مياه هذا النهر استخداماً صحيحاً أمكن توفير أرض جديدة لحوالى ١٦٠,٠٠٠ أردنى (بخلاف مايظنه البعض من أن كافة اللاجئين (٥٠٠,٠٠٠) سيستفيدون) .

وتختلف قدرة هذه المشروعات على حل مشكلة السكان من بلد عربى إلى بلد آخر ، وهى لاتدعو إلى كبير الأمل كما قد يتبادر إلى الذهن . وحتى لو زادت نسبة الأرض المزروعة فى الجزائر بمقدار ١٠٠ ٪ ووزعت توزيعاً عادلا واستغلت استغلالا كاملا ، فإن هذا لن يحل مشكلة تزايد السكان .

وفى مصر يتزايد السكان كل عام بمقدار ٥٠٠,٠٠٠ نسمة ، ولا يمكن أن يحل السد هذه المشكلة فى المستقبل ، والواقع أنه عندما تتحقق الزيادة فى الأراضى بعد تنفيذ المشروع ، فإنها ستعود بنا إلى النسبة الموجودة حالياً بين عدد السكان والرقعة المنزرعة .

هذه هى الاحتمالات التى تواجه المنطقة كلها بصفة عامة . وهى تؤكد

لنا أن الحل الكامل الوحيد هو التصنيع الضخم أيضاً . على أمل الوصول إلى مستوى معيشى رغم تضخم عدد السكان ، وسيؤدى هذا إلى انخفاض نسبة المواليد الأمر الذى حدث فى الغرب .

غير أننا إنما نرسم المثل الأعلى هنا . فالتصنيع فى حاجة إلى الطاقة ، والطاقة الكهربائية المتولدة من وحدة السد العالى مثلا تتطلب استثمار رؤوس أموال ضخمة .

ومما يميز المناطق المتأخرة عادة أن نسبة تكوين رأس المال فى الداخل منخفضة : أما العراق فيتمتع بمركز ممتاز بين البلاد التى تقدر على التصنيع ؛ وذلك بفضل الدخل الذى يأتيه من البترول .

وإذا استقلت الجزائر واغتنمت ثروات بترول الصحراء فإنها ستتمتع بدورها بمركز ممتاز . وبخلاف هذا لابد من جلب رأس المال من الخارج ومن المناطق العربية المنتجة للبترول عند الخليج العربى ؛ والتى يقل فيها عدد السكان ، ويتزايد فائض رأس المال (وبخاصة الكويت الذى يبلغ تعداد سكانها ٢٠٠،٠٠٠ ، ويبلغ دخلها السنوى من البترول ما يزيد على ١٠٠ مليون جنيه) .

الأنظمة السياسية

إن العالم العربى الذى يعانى آلام أزمة خارجية ، ويواجه هذه المشاكل الاقتصادية الخطيرة يجد نفسه أيضاً هدفاً لثورة سياسية داخلية ضخمة . وكما هو الحال بالنسبة للمعركة الاقتصادية لانجد اختياراً واضح المعالم بين الأنظمة السياسية المتفق عليها .

ومن أعقد الدروس التى يجب أن يتعلمها الغرب من أحداث أفريقية وآسيا فى العشر سنوات الأخيرة أنه يخطىء حين يظن أن هناك اختياراً واضحاً بين « الديمقراطية » أو « الشيوعية » ولقد فهم من « الديمقراطية » أنها حكم برلمانى حزبى على الطراز الغربى .

ولقد كانت هناك دساتير سليمة على الطراز الغربى فى مصر والسودان وسورية والعـــراق وباكستان وغانا وبورما ، وغيرها من البلدان الأفريقية والآسيوية .

وفى العالم العربى كانت ديمقراطية الغرب هى التراث الغالب للمبادئ السياسية بين أوساط المتعلمين الذين تعلموا فى مدارس الغرب وكلياته ، أو فى المدارس والكليات المتأثرة به . وفى الثورات المتلاحقة التى قامت بها الحركات القومية الحديثة ، كان هذا النوع من الديمقراطية هو الهدف الأساسى . سواء فى ذلك الثورة التى قادها ناصر أو الثورات الأخرى .

غير أن الحقيقة المذهلة هى أن الديمقراطية النيابية ذات الطابع الغربى أخذت تنهار بصورة متزايدة ، ولقد اختفت أو تم تعطيلها فى أنحاء هذه المنطقة الضخمة .

وبالنسبة للعـالم العربى نجد أن أكبر وآخر صدمة للأمل التقليدى الحر ذلك الانقلاب الذى قام به ضباط الجيش فى السودان .

وفى الوقت الذى أدون فيه هـــذا الكتاب أستطيع أن أصف الأشكال السياسية فى البلاد العربية فى إيجاز على النحو التالى :

مراكش :

نص الميثاق الملكى الذى أصدره الملك محمد الخامس عام ١٩٥٨ على أن يحتفظ الملك بالسلطة التشريعية. ويجب إجراء انتخابات للمجالس البلدية والقروية، وتقوم هذه المجالس باختيار ممثليها فى مجلس أمة يصوت على الميزانية. وفيما عدا ذلك يكون رأيه استشارياً، وفى النهاية، وفى تاريخ لم يحدد سيتم انتخاب نواب المجلس عن طريق التصويت العام للجميع.

الجزائر :

مازالت الجزائر فرنسية حتى الوقت الذى أكتب فيه، ولهذا لا تكاد أنظمتها السياسية تتصل بهذه الدراسة.

تونس :

تم انتخاب الرئيس بورقيبة دون معارضة فى نوفمبر ١٩٥٩ وهو يمارس سلطات ضخمة للغاية، وليست هناك حرية صحافة بالمرة، ويحتمل أن يوفر الدستور الذى يعد الآن سلطة تنفيذية قوية ينتهجها الشعب، وتظل لفترة محدودة، ومجلساً نيابياً تدل الظروف الراهنة على أن سلطانه ستكون محدودة للغاية.

ليبيا :

يشرع الملك إدريس الأول عن طريق المراسيم الملكية إلى حد كبير بالرغم من وجود برلمان، وإجراء انتخابات عامة مرتين، ولا مفر فى هذه المرحلة المبكرة للغاية من حدوث صراع بين القصر والبرلمان.

السودان :

منذ نوفمبر من عام ١٩٥٨ أخذت ثلة من ضباط الجيش تحكم بمرسوم، وعطلت الدستور النيابى ، وحظرت قيام الأحزاب . ولم تتضح نيات عبود فى الصورة السياسية للمستقبل ، غير أنه أشار إلى أن السودان لا يعتبر « مهيأ للديمقراطية الغربية » .

الأردن :

فى أبريل ١٩٥٧ خلع الملك حسين الوزارة التى انتخبها أول برلمان أردنى ، والتى كانت قد عادت بانتخابات حرة فى أكتوبر ١٩٥٦ وبعد مضى أكثر من عام على الأحكام العرفية أصبح النشاط السياسى قاصراً على الأشخاص والأحزاب الذين يوافق عليهم الملك وهو يعتمد على جيش تم تطهيره من الضباط الوطنيين ، ويعتمد بصفة خاصة على البدو المخلصين له .

لبنان :

كانت آخر انتخابات منظمة هى انتخابات عام ١٩٥٧ ، وفى أعقاب الحرب الأهلية يلعب الرئيس المحايد شهاب دور الحكم فى مجلس وزراء أعضاؤه من الطرفين المتناحرين والانتخابات البرلمانية فى حاجة إلى قسط معقول من الثقة والهدوء .

العراق :

منذ عام ثورة يوليوعام ١٩٥٨ تولى قاسم سلطات رئيس الوزراء . وفى يناير ١٩٦٠ صرح بقيام نشاط سياسى للثلاثة أحزاب الشيوعية أو الخاضعة للشيوعيين (ومنهم طائفة كردية) والحزب الوطنى الديمقراطى . ووعد بإجراء انتخابات للبرلمان الجديدفى يوليوسنة ١٩٦٠

العربية السعودية :

ملكية إسلامية مسيطرة دون مجلس تشريعى ، يقوم فيها بالدور الاستشارى مجلس وزراء يتألف أعضاؤه من الأسرة المالكة ، أما السلطة القضائية الوحيدة فتتمثل فى السلطة الإسلامية (طائفة الوهابيين المتزمتين)

أما البلدان الأخرى ، ومنها اليمن ، فتسير على نظام أوتوقراطى إلى حد كبير ، فى ظل أسر حاكمة خاضعة أو غير خاضعة لإشراف بريطانى بمقتضى معاهدات .

وموجز القول أننا لا نستطيع أن نجد فى أى مكان بالعالم العربى أثراً للديمقراطية كما يفهمها الغرب فى النظرية والتطبيق .

ولكن من الخطأ الفاحش أن نظل عند الافتراض القديم القائل بأن انعدام الديمقراطية سببه مطامع شخصية تسعى وراء السلطان أو أن انعدام الديمقراطية راجع إلى عيوب كامنة فى العرب . إن المشكلة ليست بهذه البساطة مطلقاً ، كما أن الزعامة القومية المتسلطة لا تخضع لمجرد الأنانية . فهناك شعور متزايد بأن نظام الديمقراطية الغربية القائم على حرية النشاط

للأحزاب ، لا يمكن نقله إلى المجتمع العربي بكل بساطة ، وأن المحاولات السابقة لتقليد النظم الغربية فشلت لا بسبب طابع الزعامة السياسية وحدها وإنما ظروف المجتمع العربي تختلف كثيراً عن الظروف التي تعيش فيها الديمقراطية الغربية .

وجدير بنا أن نقول إن الذين عبروا عن شكوكهم لم يقدموا بعد تفسيراً واضحاً أو فلسفة جديدة متماسكة للديمقراطية . ومرة أخرى نرجع بعض هذا الضعف إلى الانشغال – في الماضي – بالمشاكل والازمات الخارجية ، ونرجعه أيضاً إلى أن الكثيرين من المتشككين ليسوا من المفكرين المثقفين وإنما من الضباط النشطين المثقفين .

ومن بين الأسباب أيضاً عدم وجود نظام أجنبي بديل غير شيوعي ، يسترشدون به ، وعدم خضوع الدكتاتوريين لما يجعلهم يدافعون عن هذه الشكوك أو يبحثونها . غير أن الدراسة المتفحصة لمجرى السياسة العربية الحقيقي ، إلى جانب المناقشة الدقيقة مع المتشككين ، تستطيعان أن تفضيا بنا إلى مجموعة من الاستنتاجات .

إن الغالبية العظمى من الناخبين العرب أمية (ولبنان هو الاستثناء الوحيد) وهي فقيرة للغاية ، ولا تشعر – كما يشعر المواطنون الغربيون – بأنها جزء من دولة تتألف من أمة كما أن معظم العرب يفتقرون إلى تنظيم اجتماعي يشعرهم بأنهم مواطنون في أمة . وليس هناك وجه للمقارنة المجدية بين الحكم التركي العثماني (أو السلطات القبلية المحلية المنفصلة) ونظام الحكم الذي ظهر في أوروبا خلال نفس القرون . كما أن العالم العربي

لم يعرف الروابط بين الفرد ومجتمعه ممثلة فى البرلمان أو الحكم الذاتى المحلى ، أو النقابات ، أو غيرها من الهيئات التى تقوم بوظيفة أو الكنائس - هذه الروابط التى كانت لها أهميتها فى ظهور الديموقراطية الغربية .

والذى حدث أن القلة العربية المثقفة استوردت إطار الدولة الغربية المؤلفة من أمة ، واستوردت نص الدستور وروح الديمقراطية الغربية ومبادئها ، وأدخلت هذا كله على مجتمع مشلول سياسياً . وما زالت هناك أغلبية زراعية تعيش فى فراغ اجتماعى حقيقى . والروابط والالتزامات التى يعترف بها المزارع العربى موجهة إلى رئيس الأسرة (وقد تضم الأسرة الآلاف) والاقرباء ، والعلماء ، وصاحب الأرض . وإذا كان مسلما فإنه يشعر بأنه جزء من الامة ، أو المجتمع الإسلامى ، ولكنه بالرغم من أنه قد يبجل شيخ الازهر أو الملك سعودا ، فإنه يفتقر إلى التدرج الوظيفى الذى يشعره بأنه جزء عامل من مجتمع أكبر .

ومن المؤكد أن أفق المزارع العربى أتسع نتيجة لظهور القومية وفكرة إمكان تحقيق التقدم . إنه يعجب بزعيم مثل بورقيبة ، أو ناصر ، أو قاسم غير أنه يعجب به كبطل لا كرئيس لدولة ديمقراطية مؤلفة من أمة هو فيها مواطن له حقوق وعليه واجبات والقومية قـــد قربته من فكرة ديمقراطية تتصل بالكرامة والرخاء المادى أكثر مما تتصل بالمسئولية فى الحكم . والواقع أنه لن يرحب كثيراً بفكرة كون زعيمة « حكومة » — بالمعنى الغربى — لأن الحكومة ترتبط فى ذهنه برجل يجىء ليجمع الضرائب ويصدر الأوامر .

وعلى هـذا النوع من الناخبين تعتمد الديمقراطية الغربية ، غير أن النظام في حاجة إلى القلة المتعلمة . ولهذه القلة مستوى معيشي تريد الاحتفاظ به ويؤدي إلى تصارع مع مطالب الجماهير . وقد يتطلب الأمر استصدار قانون الإصلاح الزراعي وبذلك تشرع الاقلية ضد نفسها .

والأحزاب السياسية لا تستطيع أن تكون تمثيلية في عضويتها وزعامتها . ولا يمكن تقسيمها طبقاً للطبقات . والتقسيم طبقاً للدخل يحول دون التقدم والوحدة . والاحزاب تميل إلى التعبير عن قوى تقليدية وجماعات مثقفة ليس هناك فائدة من نظرياتها .

وإزاء هذه الأوضاع ، وإزاء الحاجة إلى سلطة تنفيذية قوية مستقرة غير فاسدة ، لا يمكن أن نطمئن إلى جدوى ديموقراطية على الطراز الغربي ولقد دلت التجربة على عدم جدوى الديمقراطية النيابية الحزبية . وليس هناك دليل واضح محدد المعالم .

والمشهد الذي يصور هذا السعي هو مشهد ضابط وطني عربي تحيط به كتب الغرب عن السياسة في النظرية والتطبيق ، إذ ينحي هذه الكتب جانباً ويقول « لا أستطيع أن أسترشد بهذه الكتب في حل مشاكلنا » إنه متشبع بآراء ديمقراطية ، ومشكلته هي ترجمتها إلى نظام سياسي متطور أبدا ، نظام يكفل وجود حكومة مستقرة ونظام داخلي ، ووحدة قومية ، واضطلاع المزارعين بالمسئوليات الديموقراطية .

والواقع أن الاتجاهات التجريبية الجديدة نحو الديمقراطية في العالم العربي تتصل بآراء ثلاثة : أولاها أنه يجب انتخاب السلطة التنفيذية

ـ انتخاباً شعبياً ـ لفترة محددة ، ويجب ألا تتعرض هذه السلطة لخطر برلمان حزبي ، موجز القول أن النظام الدستورى البريطانى أقل الأنظمة ملاءمة ، والرأى الثانى أن الديمقراطية لا يمكن أن تنمو من القمة وانما من القاعدة ، من مزارعين عرفوا ماتفرضه الديمقراطية من حقوق وواجبات ، ومعنى هذا أنه إلى أن يتم تدريب هؤلاء المزارعين على الديمقراطية ، فإن حرية الأحزاب السياسية الوطنية غير مرغوب فيها ، ولا تؤدى فى الواقع إلى الديمقراطية ، والواقع ، فى غمرة الشك المعاصر ، أن الأضواء تسلط على مخاطر ديمقراطية قائمة على الأحزاب وعدم إمكانية ذلك ، ويرجع هذا إلى نفاد صبر ضباط الجيش بالسياسة المدنيين فى وقت يتطلب تقدماً صريحاً ، غير أن المدنيين المثقفين أنفسهم لا يثقون الآن فى الدور الذى يمكن أن تلعبه الأحزاب .

أما الأسلوب الثالث، فهو أسلوب الرئيس جمال عبد الناصر وزملائه لم يتخل ناصر لحظة عن مثله الأعلى القديم المتفائل الذى يدور حول أمة متحررة من الاستعمار والاستغلال الداخلى ، أمة تتجه ـ وهى متحدة صامدة ـ نحو مجتمع عادل يسوده الرخاء ، وهو يعترف بأن هذه الصورة الوردية كانت لديه قبل ثورة ١٩٥٢ وأنه أصيب بخيبة أمل عندما رأى تناحر الأحزاب القديمة واليوم يعتمد على اللاحزبية .

ولقد تم انتخاب لجان القرية لتدريب الفلاحين على الديمقراطية ، كما تم أيضاً انتخاب لجان المركز والمديرية .

وإذا قامت هذه اللجان بوظائف نافعة ملموسة فإن هذا سيكون — فى حد ذاته — خطوة ضخمة إلى الأمام ، ذلك لأن الجماهير — فى مصر وسورية وغيرهما — لم تعرف معنى الارتباط بالحكومة عن طريق المسئولية المحلية .

ويعلن الاتحاد القومى أنه من هذه القاعدة فى الهرم الاجتماعى يمكن إضافة دوائر للتمثيل الديمقراطى حتى نصل إلى السلطة التنفيذية عن طريق المرحلة التشريعية الاستشارية ، إلى أن تظهر — فى تاريخ لم يحدد — أحزاب جديدة نيابية ، وإلى أن يحين ذلك ليس من شك فى أن السلطة التنفيذية ستظل قوية ، وستثبت شعبيتها عن طريق الانتخابات فقط ، ولن تكون هـــذه الانتخابات ديمقراطية إلا فى ظل جو معقول من المناقشة وحرية اختيار المرشح والتصويت السرى .

وختاماً نقول إنه سيكون هناك انتقال تدريجى جديد من ناحية الديمقراطية مادامت السلطة التنفيذية متنورة . . وما دامت تتسامح وتهتم بالنقد فى الصحافة وغيرها ، وتقدر على كسب ثقة الأقلية المثقفه التى تعلمت من الغرب ، ومن المؤكد أن هذا العنصر الأخير هام جداً . يجب استغلال المطامح الشخصية ، والاهتمامات الخاصة والرغبة المخلصة فى تقديم الآراء والطاقات المتوفرة لدى الأقلية المتعلمة فى العالم العربى ، يجب استغلالها كاملة فى الحكم والتنمية .

وما زال البحث مستمراً عن أشكال جديدة للديمقراطية الأفريقية والعربية والآسيوية ، وليس الحكم السابق سوى حكم تجريبى للغاية ،

ومن الواضح ، وأنا أكتب هذا الفصل ، أن القومية العربية قد دخلت مرحلة جديدة من الصراع ضد الشيوعية فى الداخل ، والشيوعى العربى ليس بالضرورة مقلداً أعمى للنظام السياسى السوفيتى ، أو بالتجربة الصينية مع الكوميون .

ولكن من الممكن أن نتنبأ بأن وصول حزب شيوعى عربى إلى السلطة سيفرعن أشكال بشعة (ووحشية إذا نظرنا إلى أحداث العراق) من الضغط السياسى ، بصورة لم يسبق لها مثيل حتى فى ظل الدكتاتورية العسكرية الصريحة .

والواقع أن المعركة الداخلية فى العالم العربى فى العشر سنوات القادمة ستتأثر بمدى قدرة القيادة اللاشيوعية على توفير أنظمة سياسية جديدة تنضج بسرعة ، إلى جانب التقدم الاقتصادى ، لكى تنافس بذلك المثل الصينى السوفيتى . وهذا المثل أكثر اتصالا بالظروف العربية من ظروف الغرب .

موجز القول أنه جدير بالغرب أن يدرك أن الاتحاد السوفيتى والصين يستطيعان الوقوف موقف « الصديق » الأجنبى . . . والأمر الأخير شىء لا يستطيع الغرب أن يفعله . فهو لا يستطيع أن يقدم ببساطة أنظمة عربية جاهزة ، والغرب لا يستطيع أيضاً أن يضع نفسه بسرعة موضع الصديق ، نظراً لسياسته فى الماضى ، غير أن الغرب يستطيع أن يساعد المثقفين والساسة العرب فى سعيهم وراء ايديولوجية ديموقراطية جديدة نابعة من أرضهم .

وهناك حاجة إلى البحث الأكاديمى على الأساس التالى : إن الدستور الغربى المثالى قد لا يكون الشكل الوحيد للديمقراطية .

وفى نفس الوقت ، من الواضح أن جواً من الحرية فى العالم العربى خلال فترات الانتقال، سيتوقف على اختفاء الضغط والمؤامرات الغربية فالخوف من هذه الأشياء يقف حجر عثرة أمام توفير هذا الجو، وسيظل الأمر كذلك طالما ظل الصراع مستمراً بشأن الجزائر وعدن وإمارات الخليج العربى والقواعد الغربية فى المنطقة .

وأخيراً هناك حاجة ملحة واضحه إلى رأس المال والمعونة الفنية الأجنبية . ولن يمكن التغلب بسرعة على آثار السنوات الماضية ، حين كانت مساعدات الغرب مرتبطة إلى حد كبير بظروف الحرب الباردة. وسواء أرضيت الكتلة الصينية السوفيتية أم لم ترض يجب أن تصل معونة الغرب للعالم ولبقية دول آسيا وافريقية عن طريق الأمم المتحدة .

٭ ٭ ٭

الفصل الثامن

العرب واسرائيل

سبق أن ذكرنا مدى تأثر القومية العربية ، منذ عام ١٩١٧ ، بهجرة اليهود إلى فلسطين ، وهى التى بلغت ذروتها فى ظهـــور دولة اسرائيل ، ولقد أضاف العاملان إلى القومية العربية شعوراً بالمرارة والخوف بصورة لم تعرفها أية حركة أفريقية أو أسيوية ، كما أنهما ضاعفا من عنف العداء الوطنى تجاه دول الغرب الثلاث فالحكومة البريطانية هى التى أذاعت وعد بلفور ، والهجرة تمت وفلسطين تحت الانتداب البريطانى (بالرغم من الجهود التى بذلت بعد ذلك لتخفيف حدة الهجرة). والولايات المتحدة أيدت هجرة اليهود من معسكرات النفى بعد الحرب العالمية الثانية وبعد قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ . وقد سارع الرئيس ترومان إلى الاعتراف الفعلى بدولة اسرائيل . ويشعر العرب بالكراهية تجاه فرنسا لأنها تواطأت مع إسرائيل فى معركة سيناء عام ١٩٥٦ ، إلى جانب دورها فى الحرب الجزائرية .

ولقد عجلت أحداث فلسطين بدخول الاتحاد السوفييتى إلى العالم العربى كدولة فى الشرق الأوسط ، وذلك بعد أن عدل الاتحاد السوفييتى

من سياسته عن عمد بعد أن كان يؤيد قيام دولة اسرائيل ، وأصبح الآن يتبنى ـ صراحة ـ قضية العرب ضد اسرائيل ، ونجد أيضاً أن الصراع بين العرب وإسرائيل كان سبباً فى اتفاقية الأسلحة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا (أى الكتلة السوفيتية) وذلك فى أواخر عام ١٩٥٥ وهو أول نجاح من نوعه تحرزه كتلة سوفيتية ، ومع ذلك ، ليس من شك فى أن ظهور الاتحاد السوفيتى كدولة تهتم مباشرة بمسائل الشرق الأوسط كان أمرا لابد منه . وكانت الاحتمالات تشير إلى دخولها إلى المنطقة كمصدر آخر للأسلحة، غير ان سرعة هذا الاتجاه، وطابع الحرب الباردة الذى اتسم به ، إنما ظهرا بسبب الاهتمام بمستقبل فلسطين ، ومن بين نتائج هذا التطور تلك العلاقات الدبلوماسية والسياسية الوثيقة بين وضع اليهود فى بلدان الكتلة السوفيتية وعلاقة الاتحاد السوفيتى بالعرب أن الشيوعية السوفيتية تعادى الصهيونية كحركة دولية تنادى بالولاء لدولة غير الدولة التى يجد فيها اليهودى نفسه . فاذا أضفنا إلى هذا العداء المعاداة المحلية للجنس السامى ، رأينا اليهود الموجودين فى بلدان الكتلة السوفيتية يفتقرون إلى الأمن ، بينما ترغب الحكومة الاسرائيلية فى جلبهم إلى اسرائيل ، غير أن قرارا يتخذه الاتحاد السوفيتى للسماح بهجرتهم يجب أن يأخذ فى اعتباره العلاقات بين روسيا والعرب، وذلك لأن العرب يخشون أن تتوسع دولة اسرائيل الصغيرة بعد هجرة اليهود اليها .

والدور الذى لعبته فلسطين فى السياسة السوفيتية لم يضف سوى

عوامل جديدة فى تصارع القوى ، لقد وقعت الدول الغربية فى حيرة ، ازاء سياستها تجاه الصهيونية ، ومبعث هذه الحيرة مقتضيات المصالح الاستراتيجية والتجارية لبريطانيا وفرنسا فى العالم العربى، ومصالح أمريكا البترولية .

وفى عام ١٩٥٦ لمست حكومة موليه ضرورة هجوم اسرائيل على مصر ، نظرا لأن مصر تؤيد الوطنيين الجزائريين ، وفى نفس الوقت لم ترد حكومة السير انطونى ايدن (المستعرب المدرب) أن ترتبط علانية بالهجوم الاسرائيلى . وبصفة عامة ، كانت حكومات الغرب موزعة بين ضرورة الابقاء على روابطها مع العرب ، والرضوخ لضغط الرأى العام الغربى المؤيد لهجرة اليهود إلى فلسطين . وفى المرحلة الحاسمة، بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، ظهر عامل آخر ، هو عدم ترحيب الدول الغربية باليهود المشتتين الذين تبقوا من مذابح النازى التى تعرض لها مليون يهودى وكانت المنظمات الصهيونية تعارض أيضاً مثل هذا الاجراء، حتى لا يؤثر على هدفها فى بعث دولة يهودية قوية حافلة بالسكان فى فلسطين ، وما أن أعلن قيام دولة اسرائيل، وأيدتها الولايات المتحدة حتى استعصت حيرة الغرب على الحل .

إن هذا المأزق كامن فى البيان الثلاثى لعام ١٩٥٠ (بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا) الذى يسعى إلى ضمان الوضع الراهن فى فلسطين ، أى الهدنة ، إلى أن يتم صلح نهائى، وإلى جانب ضمان التوازن بين الأسلحة التى ترسل إلى إسرائيل والأسلحة التى تتلقاها الدول العربية . غير أن

هذا البيان ظل ممكناً طالما أن الاتحاد السوفييتى لم يكن مهتما بالأمر ... ومما ضاعف من بطلانه الاجراءات التى أقدمت عليها انجلترا وفرنسا بالاشتراك مع الحكومة الاسرائيلية فى حرب سيناء والسويس .

وهناك أسباب متنوعة لذلك التأييد الدولى لحنين الصهيونين (وهو حنين اجماعى بين صفوف اليهود بأكملهم) إلى العودة إلى وطن يدعون أنه ظل يهودياً ٢٠٠٠ عام . ولقد تأثرت الآراء والآمال التى تقف وراء هذا التأييد ، تأثرت بنتيجة هذا الصراع .. وكثيرون فى العالم الغربى ومن بينهم كبار الساسة البريطانيين فى الفترة ١٩٠٠ — ١٩١٧) جعلتهم مشاعرهم الدينية يؤيدون حلم الصهيونيين فى وطن يهودى فى الأرض المقدسة . وكانت هناك دعوى صهيونية أخرى ذات نفوذ كبير فحواها أن وجود مجتمع يهودى قوى فى فلسطين يجعل من الممكن حماية الأماكن المقدسة لغير المسلمين وتزويد بريطانيا بقوات صديقة بالقرب من قناة السويس .

ومن بين أسباب التأييد الدولى الحر احتمال قيام مجتمع يهودى تقدمى حى فى فلسطين ، مجتمع ينقل آراء الغرب الديمقراطيـــة إلى عالم عربى منهار .

أما الأهداف الاشتراكية الصهيونية فقد جعلت هذا المفهوم جذاباً للاشتراكيين البريطانيين . . وأخيراً ، كان هناك تعاطف انسانى واسع النطاق إزاء ضحايا مرض المعاداة للجنس السامى ، ذلك المرض الذى وصل إلى ذروته عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة عندما أميط اللثام عن

بشاعة المذابح النازية ،كان هناك شعور لا واعى ، بالذنب بين صفوف كثير من المسيحيين إزاء اليهود وساعد هذا على نجاح الجهود الصهيونية .

وفى مقابل هذه الآراء والآمال الايجابية ،كان الغربى يجهل الكثير عن العرب وعن فلسطين ، وهو الجهل الذى تحكم فى الكثير من مواقف الغرب إزاء العالم العربى طوال هذا القرن . لقد تدخل فى هذا الأمر الكثير من الأساطير والمغالطات التى أشرنا إليها فى فصل سابق . ومما أيد دعوى الصهيونيين فى أن فلسطين كانت يهودية على الدوام ، ذلك الاعتقاد السائد بأن هذه المنطقة لم تكن جزءا من العالم العربى بكل تأكيد وأن العرب الموجودين بها من الرحل الذين لا يزرعون أو يستقرون . والواقع أن ١٠٪ فقط (بين ٦٤٠٠٠٠ عربى مسلم ومسيحى فى فلسطين) من البدو الرحل أما الباقون فان ٢/٣ منهم زراع مستقرون والثلث الباقى من سكان المدن . ولم يفهم الغرب مشاعر العرب الوطنية ، ولقد تم ابرام اتفاقيات الصلح بعد الحرب العالمية الاولى دون التعرف على مطالب سكان فلسطين أو جيرانها ، وقد أكدت هذه الاتفاقيات عزل فلسطين عن سورية الكبرى ، واعتبارها بلداً يخضع للانتداب البريطانى ليصبح بعد ذلك وطناً قومياً لليهود . والمندوبون الوحيدون الذين أرسلوا إلى المنطقة هم المندوبون الأمريكيون الذى أكد تقريرهم وجود معاداة قوية للصهيونية ، ووجود حركة قومية عربية ، غير أن الدول التى وقعت على «فرساى» لم تهتم بهذا التقرير . ولم يعلن عن هذا التقرير إلا فى وقت متأخر ، عن طريق أحد المندوبين .

وكانت النتيجة مأساة ، مأساة لا مناص منها ، تشتيت الآمال

الاستراتيجية والسياسية والاجتماعية التي تمناها مؤيدو الصهيونية في الغرب وذلك نتيجة للعداء العربي . ولم يكن من الممكن التوفيق بين مبدأ الانتداب في حق تقرير المصير للأهالي واستمرار هجرة الأعداء الذين يريد زعماؤهم دولة يتزعمها يهود ومن حين لآخر كانت بريطانيا تأمل في وجود اسرائيل موالية للبريطانيين ، وحامية للجناح الشرقي لقناة السويس. ولكن ، لم تستطع حكومة بريطانيا تعزيز هذا الأمل خوفاً من اثارة المزيد من الحق العربي خارج فلسطين ، أما الحلم السياسي والاجتماعي الذي يشترك فيه كثير من اليهود ، في ايجاد بلد يهودية تكون قدوة للعرب فخضع تماما لمسألة العلاقات الودية والتبادل الحر بين الدول العربية واسرائيل . غير أن العكس هو الذي ساد وكثير من النماذج الناجحة في الأنظمة الاسرائيلية - كاتحاد هستادروت العمالي - موصومة لأنها صهيونية ولقد تبدد الأمل في حماية الأماكن المقدسه لا بسبب تقسيم فلسطين فحسب ، وانما لأن الصهيونيين رفضوا التفكير في تدويل القدس وأخيراً فإن الدافع الانساني الذي أدى إلى هذا التأييد الدولي الكبير لاستيطان اللاجئين اليهود قد ساعد على خلق صراع أدى إلى تشريد ونفي حوالي مليون عربي .

ولكن بالرغم من هذا الفشل الذريع ، فان هناك ، في فلسطين دولة حية[1] ، تقدمية بصورة ملحوظة ، دولة يبلغ تعداد سكانها اليهود حوالي ٢ مليون في مقابل ٥٥٠٠٠ عام ١٩١٧ . والانتصارات التي حققتها إسرائيل

---

(١) ليس لاسرائيل مقومات الدولة حتى الآن .

فى الداخل تشهد بروح مواطنيها ونشاطهم. ولم تتمكن إسرائيل من تحقيق هذه الانتصارات إلا لأنها كانت تستورد رأس المال بانتظام من يهود العالم وغيرهم من المصادر، وقد بلغ مقداره ١٠٠٠ مليون جنيه منذ ١٩٤٩ . غير أن حياتهم ، وهذا الاستثمار الضخم ، معرضان باستمرار ، وبصورة متزايدة ، للخطر طالما أن العرب يخشون مما يعتبرونه توسعاً معادياً دينياً، فى أرضهم . والمأزق الذى تتعرض له إسرائيل هو أن ماضيها وايديولوجيتها الصهيونية لا يشيران إلى السلام . وإنما يمثلان خطراً كبيراً لجيرانها العرب . وإلى جانب هذا الماضى الذى يفسره العرب على أنه توسع وطرد لأصحاب البلاد، هناك ذلك المستقبل الذى تتعهد فيه إسرائيل، قانونياً، بلم شعث كافة يهود العالم الذين يربو عددهم على ١٠ مليون يهودى والأهداف القريبة لزعماء اسرائيل تتصور وجود ٤ مليون ساكن يهودى على الأقل .

عندما هاجمت إسرائيل سيناء أدعى المسئولون الاسرائيليون أن شبه جزيرة سيناء ليست جزءا من « مصر » وتحدثوا عن «تحرير الوطن» وهكذا ، بالنظر إلى الماضى ، لابد أن يصل العرب إلى استنتاجهم سواء كان صحيحاً أو مخطئاً .

كيف تستطيع إسرائيل تغيير هذه الصور المخيفة التى تثير عداء عربياً يرسم للاسرائيليين مستقبلا مخيفاً أيضاً ؟ سؤال من أضخم الاسئلة التى تواجه العالم العربى فى هذه الفترة الجديدة والنتيجة الواضحة التى نستخلصها من العشر سنوات الأخيرة المأزمة أن الخطوة الاولى يجب أن تكون من جانب إسرائيل .

الفصل التاسع

الوحدة العربية

كان موضوع الوحدة العربية، والدعوة إليها، والمناداة بـ «العروبة» يترددان كثيراً فى التاريخ الذى سردناه فى الفصول الأولى . ولقد رأينا كيف أن التراث الدائم للتعريب المشترك لغة والثقافة والعادات ، قد امتزج فى القرنين التاسع عشر والعشرين بفكرة الغرب عن وجود أمة ، ودولة تتألف من أمة .

وحتى فى العقد السادس من القرن التاسع عشر فكر قلة من المفكرين العرب فى أمة عربية تختص كافة الشعوب التى تتكلم العربية ، بصرف النظر عن العقيدة . غير أن الاستجابة الأولى العامة للآراء الغربية لم تكن منظمة واعية ، ولم ينضج اندماجها بالتراث العربى إلا فى حوالى العقد الرابع من القرن الحالى . ولقد سبق أن ذكرنا السبب فى ذلك الافتقار قديما إلى الاتصال سواء الاتصال الشخصى أو الاتصال بالكلمة المكتوبة بين أجزاء العالم العربى المختلفة ، وانشغال مصر بقومية مصرية خالصة ، وذلك بعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، واستمرار وجود حاكم مستبد آخر ، ممثلا فى الحاكم التركى . وتشتت الشرق العربى بعد فرساى إلى بلدان متعددة ذات سيادة ، لكل منها مصالحها المحلية التى تستفيد من التقسيم .

ولكن بالرغم من هذه الأحداث وآثارها ظـــل هناك احساس « بالعروبة » وأخذ هذا الاحساس ينمو . وفى مصر، وفى كافة أنحاء العالم العربى ، أصبحت العربية الوسيلة التى تستخدم فى الصحافة الآخذة فى النمو السريع ، وفى ميادين النشر والتعليم .

وفى القرن العشرين تضاعفت وسائل المواصلات ـ من كافة الأنواع ـ بين أجزاء العالم العربى . وبعد الحرب العالمية الأولى ازداد الاتجاه نحو قومية عربية ، تختفى وراء مايعتبره العالم الخارجى قومية « سورية » أو قومية « مصرية » ، ومما ساعد على هذا الاتجـاه الأحداث السياسية والتيارات الايديولوجية . ولقد رأينا الدور الذى لعبه الكفاح ضد الدول الغربية فى المنطقة كلها ، من مراكش إلى العراق، وذلك الحنق والخوف المشتركين إزاء مشكلة فلسطين (غير أنه لم يظهر بصورة قوية فى المغرب) ولكن كان هناك إلى جانب ذلك هذا البحث المستمر، من جانب المفكرين السياسيين والمثقفين وراء معادل ـ محلى حى ـ لمفهوم الغرب عن الأمة ، واحتضن البحث الآن عدداً متزايداً من الرجال والنساء الذين إزداد إتصالهم فيما بينهم . وانتشرت بينهم مؤثرات إيديولوجيه ، جديدة، قوية، قادمة من الغرب والشرق ، ومنها على الأخص فكرة الألمان الصوفيـة عن « فولك » أو « شعب » . وظهور القومية الحديثة فى الهند التى لم تـكن تـتكلم لغة واحدة وإنما ٢٠٠ لغة .

ونستطيع أن نلمس النتائج فى نفس الـكلمة العربية التى استخدمت لتصف القومية ، فالى العقد الرابع من القرن ، كانت كلمة « وطنية » هى

الكلمة السائدة ، ومعناها حب الانسان لمسقط رأسه ، أو للمكان الذى يقطن فيه. والارتباط بين هذه الكلمة والكلمة الفرنسية «ناسيونالتي» واضح فهى تجمع بين مفاهيم الوحدة القانونية (أو الاقليمية) والوحدة الاجتماعية (أو السياسية) . ولكن حدث بعد عام ١٩٣٠ أن استخدمت العربية إصطلاحا جديداً وهو القومية . والقوم هم مجتمع « الشعب » فى القبائل العربية القديمة . وهو مجتمع يدين له الفرد بالولاء ، بصرف النظر عن المكان الذى يقيم فيه . إن قوميته تتخطى حدود المكان ، سواء المكان الذى ولد فيه أو الذى يعيش فيه . ونستطيع أن نلمس فى ظهور عبارة « القومية العربية » سعى الوطنيين وراء تشابه بين كافة العرب ، دون النظر إلى كونهم مواطنين فى دولة عراقية أو أردنية . واليوم نستطيع أن نقول أن العبارة أصبحت شائعة جداً ، فهى تمثل فكرة يستطيع أن يستجيب لها كل شخص يتكلم العربية وتعيش فى ظل التراث الثقافى العربى وهى تتخطى الحدود التى يراها العالم مرسومة على الخريطة. وهى تتخطى الدين (فنى بمقدور العربى المسيحى أن يحس بنفس الاستجابة) وهى تخلق رباطا نفسيا مستمراً بين المواطن فى دولته الشرعية وهذا المجتمع العربى الكبير الذى يشعر أنه جزء منه .

غير أن تحويل هذا المفهوم الانفعالى إلى وحدة عربية دستورية ملموسة لن يكون سهلا . فقبل ثورة شباب العرب الكبرى فى العقد السادس ، كان رد القيادة القديمة على هذه المطالب قاصراً على تأليف الجامعة العربية عام ١٩٥٤ ، والجامعة العربية منظمة تربط بين الدول العربية « من أجل تقوية الروابط بينها ، والتنسيق بين برامجها السياسية بطريقة تحقق التعاون

الفعلى بينها » . ولكن « مع الاحتفاظ لكل واحدة باستقلالها وسيادتها» . فما هى الأشواط التى قطعتها القومية العربية منذ ذلك الحين ؟ نستطيع أن نجد ذلك فى الوثائق الخاصة باعلان الوحدة بين مصر وسورية ، فقد جاء فيها أن هذه الوحدة التى هى ثمرة للقومية العربية تعتبر الطريق الذى سيفضى بالعرب إلى السيادة والحرية ، ولكى تخرج هذه الوحدة من دائرة الرغبات والأمنيات إلى دائرة الحقائق يكون للجمهورية علم واحد ، وشعب واحد هو جزء من الأمة العربية .

لقد كان هذا أول تعبير ملموس لحلم العرب فى الوحدة ، ولقد أثار ذعر الحكام والزعماء الذين عاشوا فى الحقبة القديمة . وفى خلال ثلاثة أسابيع تسببت هذه الوحدة فى اعلان قيام الاتحاد الهاشمى بين أسرتى العراق والاردن ، بينما حاول الملك سعود القضاء على الوحدة بين مصر وسورية . ولقد تحدثنا ـ فى فصل سابق ـ عن مخاوف الزعماء المحافظين فى لبنان . ولقد جعلت الوحدة نورى السعيد يفكر فى غزو سورية — فى يونية ١٩٥٨ ـ لكى يعزل جارة العراق عن مصر . ولكن علينا الا نظن أن المعارضة أو العراقيل التى توضع أمام الوحدة العربية صادرة عن رجال العهد الماضى وحدهم . فما زالت هنك قوى تعرقل ، ودعاة انفصال فى داخل العالم العربى .

وفى خلال الحرب العالمية الثانية ، آمنت بريطانيا وفرنسا بأنه ليس من مصلحتهما أن تحذا أو تعمدا إلى توثيق عرى الوحدة بين الاجزاء التى يتألف منها العالم العربى وأكثر التقسيمات الحالية فى الشرق العربى

من صنع بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى. وفى المغرب العربى لم تفكر فرنسا فى تحقيق أى شكل من أشكال الوحدة بين المناطق الثلاث الكبرى: مراكش والجزائر وتونس، الا بالقدر الذى تيسر به هذه الأشياء اشراف فرنسا وحكمها. ولم تتغير هذه السياسة إلى اليوم. ومما أكدها فى الجزائر أن فرنسا فقدت مراكش وتونس بحصولها على الاستقلال.

ونظرت بريطانيا إلى مصر والسودان باعتبارهما كيانين منفصلين بالضرورة، ولم تفكر بأية حال من الأحوال فى توثيق عرى اتصالهما بأقطار الشرق العربى. ولكن، ما أن نشبت الحرب العالمية الثانية حتى بات من الواضح أن على الدول الكبرى أن تعدل من موقفها ازاء الاتجاه العام نحو الوحدة داخل اطار القومية، والنداء القوى الذى عبرت عنه دول المحور. وخلال الحرب أصدرت بريطانيا بيانين تحبذ فيهما أمل العرب فى الوحدة وبناء عليه رحبت بتأليف جامعة الدول العربية. وكثير من المستعمرين فى دوائر بريطانيا الرسمية رحبوا، بصدق، بهذه الوحدة، ورأوا أن هذا لا يتعارض مع المصالح البريطانية طالما ظلت قيادة الحركة على علاقة حسنة مع بريطانيا ولكن ما أن أصبحت القيادة فى يد حكومة مصرية مستقلة، حتى وجهت بريطانيا تأييدها إلى «الاصدقاء» ـ وبخاصة نورى السعيد والملك حسين ـ اللذين قد يستطيعان تزعم حركة مضادة للوحدة فى الشرق العربى، حركة ترتبط ببريطانيا ارتباطاً وثيقاً. غير أن انهيار هـــذه السياسة عام ١٩٥٨ (وهى السياسة التى ارتبطت بها الولايات المتحدة منذ ذلك الحين) لم تؤد إلى تعديل اتجاهات بريطانيا

أو الولايات المتحدة . غير أن الدلائل تشير إلى أن الدول الكبرى تدرك الآن أن من المستحيل معارضة حركة القومية العربية فى ظل أية زعامة.

ولقد سارت سياسة الاتحاد السوفيتى على نهج مماثل . وخلال العقد السادس من القرن الحالى ، عندما كانت حركة شباب العرب مشغولة بصراعها مع دول الغرب ، أيدت روسيا حلم الوحدة بشدة . وكانت روسيا تأمل من وراء ذلك أن يؤدى تأييدها إلى زيادة هيبتها ، أما أملها البعيد فهو أن تستغل الأحزاب الشيوعية العربية هذه الهيئة وتحقق مزيدا من النفوذ من داخل الحركة الوطنية . ولكن اتضح للاتحاد السوفيتى والشيوعيين العرب ، فى الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٥٨ أن حياد الرئيس ناصر لا يسمح بأى نشاط شيوعى .

وإذا نظرنا إلى الوحدة العربية التى ستتطور ، وجدنا أن طابع المغرب العربى يوحى - بشدة - بوجود وحدة اقليمية مستقلة داخل العالم العربى . ولهذه المنطقة - المعزولة عن الشرق بالصحراء والمسافات البعيدة - بيئة مادية موحدة . وهى تحتضن عناصر حضارية - وبخاصة العناصر البربرية - غير مستعربة تماما، إلى جانب مقاومتها التاريخية للسلطة المركزية ، مما يجعل الوحدة المغربية أكثر احتمالا من اندماج هذه الأقطار مع بقية العالم العربى ، ونستطيع أن نلمح بصيصاً من هذا الاتجاه فى قرار مؤتمر طنجة المنعقد فى أبريل عام ١٩٥٨ ، فقد تحدث عن « رغبة شعوب المغرب العربى . . فى اتحاد (فيدرالى) » .

وفى نفس الوقت ، هناك شعور متزايد للمشاركة مع بقية دول العالم

العربي ، هذا الشعور موجود فى مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وفى عام ١٩٥٨ انضمت مراكش وتونس إلى الجامعة العربية ، وفى نفس الوقت كان للوطنيين الجزائريين روابط قوية طويلة بمصر وغيرها من الحكومات الوطنية فى الشرق، وفى عام ١٩٥٩ اجتمعت الجامعة العربية فى الدار البيضاء لأول مرة .

وليبيا ، ذات التعداد الضئيل والكيان السياسى الشاب ، عضو فى الجامعة العربية ، غير أنه لا يمكن التكهن بالمجرى الحقيقى الذى تسير فيه علاقاتها بالعرب ، غير أن الملك أدريس الأول قبل قرار مؤتمر طنجة ، وليس من الغريب أن نلمس اتجاها متزايدا ناحية المغرب من جانب هذه الدولة الصغيرة التى تعتبر قنطرة ، بدلا من الاتجاه ناحية العملاق المصرى فى الشرق ..

وإن اهتمام مصر والسودان الحيوى المشترك بمياه النيل يخلق فى حد ذاته رباطاً دائماً بينهما ، بالرغم من أن الاتفاق حول توزيع هذه المياه (١٩٥٩) لم يكن سهلا . ولقد تضاءلت مخاوف مصر من ضغط أجنبى عن طريق وضع السودان عند أعالى النيل ، وتضاءلت هذه المخاوف بفضل الانقلاب العسكرى الذى تم فى عام ١٩٥٨ ، إن البلدين شريكان طبيعيان ، ومن المتوقع أن تزداد الروابط بينهما ، غير أن السودان تضم منطقة جنوبية أدى انعزالها الطويل عن نفوذ العروبة إلى حدوث توتر ، وسيزداد هذا التوتر إذا ما كان هناك اتجاه نحو الوحدة ، اتجاه يخشى إزاءه سودانيو الجنوب من السيطرة المصرية .

ولم تمض سوى فترة قصيرة على استئناف مصر لدورها الحيوى القيادى فى السياسة العربية ، ولكن المهم أنها استأنفت دورها بالفعل ، وأن هذا الدور جاء بعد فترة طويلة لعبت فيها مصر دورها فى التطور العربى فى ميادين الثقافة ، والتعليم والأعلام ، والصناعة .

ولقد تميز تاريخ مصر - بصفه مستمرة - بقلقها أزاء الأحداث التى تقع وراء حدودها الشرقية . والشرق العربى يدرك ، إلى حد كبير : أن مصر مصدر هام من مصادر قوة العالم العربى ، والواقع أنها كانت ، فى مرات عديدة ، « مفتاح » الغزو الأجنبى للمنطقة . والوطنيون العرب المحدثون لايعتبرون زعامة ناصر « تدخلا غير عربى» مثلما يفعل الغرب ، وإنما يرحبون بهذه الزعامة ويعتبرونها « عودة » جديرة بهذا الترحيب .

وتوجد فى عدد من البلدان العربية الهامة أقليات أوجماعات حضارية بارزة لايمكن إهمال موقفها من الوحدة العربية . ولقد أشرنا إلى مخاوف المسيحيين اللبنانيين ، وستظل موجودة طالما أن الغموض يكتنف الدور الذى تلعبه مشاعر المسلمين المشتركة فى القومية .

وهناك فى شمال العراق مجتمع كبير من الأكراد الذين يزيد عددهم على ٨٠٠,٠٠٠ شخص قوى ، وهم ذوو نزعة انفصالية منذ زمن طويل ولا يتكلمون لهجة عربية ، وينجذبون بصورة قوية ، لحملة كردية وطنية من أرمينيا السوفييتية (يعيش الأكراد فى إيران ، والعراق ، وسورية وتركيا ، وأرمينيا) والقبائل الموجودة فى جنوب السودان لم تستعرب وهى تميل إلى مقاومة مثل هذا الاتجاه . . إن مثل هذه العوامل ستاعب

دورها فى تطور الوحدة العربية ، وستتحكم - إلى حد ما - فى مدى اتحاد الدول التى تعيش فيها هذه الأقليات مع الدول العربية الأخرى .

إن المفهوم الخاص باستخدام المصادر إقليمياً ، والذى ازداد قوة بفضل نظام إمدادات الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، يتدخل ، بصورة متزايدة ، فى سعى العرب نحو الوحدة . وليس من الغريب أن يثير مسألة الثروة البترولية . ولهذه المسألة شكلان . وعندما يكون دخل البترول فى يد حكام أوتوقراطيين ، فإن الخوف من الوحدة معناه خوف الملوك والأمراء على نفوذهم ، يحدث هذا بالرغم من أن « القومية العربية » تستطيع أن تحرك الحكام الذين يحسون بالتراث العربى .

والوضع فى العراق يختلف عن الوضع فى الكويت . ففى الأولى يتم استغلال الدخل العائد من البترول فى الاقتصاد القومى ومشروعات التنمية التى تستفده . أما فى الكويت ، فبالرغم من الاستثمارات العامة الهائلة المتحضرة ، فإن للحاكم فائضاً سنوياً هائلا يذهب معظمه إلى لندن للاستثمار .

وهكذا كثيراً ما تشوه صورة الذين يملكون ، والذين لا يملكون فى حقل البترول العربى . ومن بين جميع الدول العربية التى تنعم بدخل البترول نجد أن الكويت وحدها ، بسكانها القليلى العدد ، تستطيع أن تساعد الدول العربية الأخرى إقتصاديا ، فى صورة تحويل الدخل . ولو حدثت ثورة تؤدى إلى اتحاد الدول العربية السعودية مع بلد عربى آخر — على سبيل المثال — فإن هذا سيفك أسار موجه من الآمال الشعبية

التى ستشعر فى النهاية بأن الدخل العائد من البترول السعودى سيجند فى خدمة شعب العربية السعودية .

وسيكون هناك رد فعل قوى عاجل إذا حولت الثروة العائدة من البترول السعودى ، إلى خزانة أخرى . وينطبق هذا أيضاً على العراق ، وبصورة أكبر ، لأن دخل العراق من البترول مخصص للتنمية الداخلية الأمر الذى له دلالته أن حزب البعث العراقى الذى نادى بالاتحاد مع الجمهورية العربيه المتحدة بالرغم من عدم ترحيب ناصر ، نادى بوجوب الاحتفاظ بالقانون الذى ينص على تخصيص ٧٠٪ من دخل العراق من البترول لمشروعات التنمية ، والاحتفاظ بهـــذا القانون حتى فى حالة تحقيق الوحدة .

ومع ذلك فإن توزيع الثروة البترولية يدخل فى الصراع من أجل تحقيق الوحدة العربية ، فالقومية العربية غير راضية عن ضخامة الأرباح التى تجنيها شركات الغرب الاستغلالية (غير أن المسئولين يدركون أن إدارة العرب وحدهم للصناعات البترولية أمر مستحيل من الناحية الفنية ومشكوك فيه من الناحية الاقتصادية ، ذلك لأن هذا النشاط يتضمن تشغيل حقول البترول ونقله ، بل وتسويقه فى الغرب أيضاً) . وهناك كثيرون يؤيدون فكرة إستغلال كافه الموارد العربية، بما فى ذلك البترول للنهوض بالعالم العربى بأكمله . والحنق موجه بصفة خاصة إلى الكويت التى تستغل فائض رأس مالها فى خارج المنطقة . وسواء فى داخل الجامعة العربية أو خارجها لقيت فكرة « بنك تنمية » عربى اهتماماً متزايداً .

وتتلخص الفكرة العامة فى أن تضع الدول المالكة للبترول والشركات المستقلة ٥٪ من دخلها فى هذا البنك ، الذى تقترض منه الدول المحتاجة ما تريد من أجل مشروعات التنمية المتفق عليها .

وأخيراً يجب أن نشير إلى أن الصراع العربى الاسرائيلى يتدخل - بصورة كبيرة - فى تطور الوحدة العربية . ويبدو أنه يميل إلى التعجيل بالوحدة. والعرب يشعرون بانزعاج مستمر إزاء الشكل المادى لاسرائيل لأنها تقسم العالم العربى عند مثلث العقب ، وليس من المحتمل أن يقبل العرب ذلك « الممر » بين مصر والأردن ، والذى تعرضه إسرائيل كجزء من اتفاق الصلح . وإلى جانب هذا نجد إسرائيل تهدد أن اليوم بالحرب إذا اتحد الأردن مع أى بلد عربى ، ذلك لأنها تخاف أى تطويق قوى منسق عسكرياً .

بالرغم من كل العقبات السابقة يحتمل أن تنمو الحركة الرامية إلى مزيد من الوحدة ، إلى أن يشهد العالم يوماً اتحاداً عربياً قوياً ، تعاونياً يشمل المنطقة العربية بأكلها . . وداخل هذا الاتحاد (الذى قد يجئ فى صورة جامعة عربيةقوية) نستطيع أن نتنبأ بعدد من « دوائر الوحدة » ستتضمن إحدى الدوائر بلدان المغرب الثلاثة — أو الأربعة إذا أضفنا ليبيا — فى شكل اتحاد فدرالى (سلطة تنفيذية فدرالية ، ومجلس فدرالى وإدارات إقليمية) . . ومن المحتمل أن يكون هناك اتحاد فدرالى آخر يضم الجمهورية العربية المتحدة ، والعراق ، والأردن ، وربما الكويت ولبنان ، والسودان..ويدور الشك حول البلدين الأخيرين،لأن طابعهما الداخلى وحساسيتهما تجعل الاحتمالات تشير إلى انضمامهما إلى دائرة اتحادية

ثالثة..وسيتم تنسيق السياسة الخارجية والدفاعية فى هذه الدائرة ،وستنضم إليها الدول الأقل تقدماً ، كالعربية السعودية ، واليمن وجنوب الجزيرة العربية ، وإمارات الخليج الفارسى بعد أن تتحرر من معاهداتها القديمة التى تربطها ببريطانيا .

إذا اتخذنا فى اعتبارنا تلك العقبات التى تعترض طريق الوحدة ، وتصميم العرب ـ مع ذلك ـ على تحقيقها ، بدا لنا خطأ النظرة الغربية التى تتسم بالتشكك الساخر . . ويجب ألا ندهش حين نرى الزعماء العرب يتكلمون عن الأخوة ثم ينقضونها فى أعمالهم . ومن المؤكد أن الأحرى بالغرب أن يتخلى عن مخاوفه القديمة لوجود عالم عربى قوى متحد ، وأن يبتعد عن السياسة التى ساهمت فى الماضى فى توتر المنطقة . . إن على العرب وحدهم أن يقرروا خطوات الوحدة ، وقيادتها واشكالها . . وأى محاولة للاملاء أو التعديل ستؤدى إلى وحدة غير طبيعية وفاشلة،وحدة لاتخدم العرب أو العالم بأكمله .

الفصل العاشر

خاتمـــــة

من حسن الحظ أن الروابط الثقافية والسياسية والاقتصادية بين العالم العربى والغرب أكبر بكثير من المشاكل التى تفصل بينهما ، غير أن دول الغرب لم تدرك هذا فى كثير من الأحيان ، واليوم ومرحلة جديدة ذات دلالة كبرى تتفتح فى العالم العربى ، نأمل أن تغيب الاخطاء ونتائجها ، فى بطون التاريخ . . لقد انطلقت من بين صفوف العرب قوى تنادى بالتغير فى كل ركن ، وستؤكد هذه القوى كذب الأفكار التقليدية عن العرب كشعب وكجماعة حضارية . . ومن المؤكد أن الغرب لن يخسر شيئاً ، وإنما سيكسب إذا شرع فى التفاهم مع هذه الكائنات البشرية ، بطريقة ايجابية ، دون انتظار .

والقضية الاولى فى هذه السياسة الجديدة أن العرب كائنات بشرية تتمتع بنواحى القوة ونواحى الضعف التى تميز الجنس البشرى . . ومن المؤكد أننا لن نخسر شيئاً إذا اعترفنا بأننا لم نكن على استعداد دائماً للاعتراف بعضوية هذه الشعوب لجنس الذى افترضنا منذ زمن طويل أننا خلاصته الحضارية والفنية . . وفى استخدامنا لكلمة « العربى » وبعض المصطلحات التى نشير بها إلى العربى ، مثل «mog» و «gypoo» نلمس تلك الاتجاهات التى أساءت إلى شعب لديه احساس كبير بالكرامة أنهم يحاولون أن يرتفعوا بأنفسهم ، فى عشرات من السنين ، إلى حال من التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، الذى شغل المدنية الغربية

عدة قرون.. وعلينا أن نركز أنظارنا على هذا المجهود الجبار، التاريخى بحق لا على الفقر، والبؤس، والعنف، الذين لم نتحرر منهم إلا منذ وقت قريب.

ومما يميز النضال العربى، سعيه وراء شخصية جماعية فى عالم من الشخصيات المتعددة.. ونظراً لأن الغرب تعرض لهذا الألم إلى حد كبير، فالبحث عن قومية يسبب ألما، يشعر بالذعر حين يلمس استمراره فى العالم العربى وفى أفريقية وآسيا.. إن القومية، فى شكلها السياسى الضيق، شئ عتيق ولا بد أن يكون عتيقاً.. ولكن من المؤكد أن دروس التاريخ الحديث - تاريخ العرب - قد أكدت أنه ليس من الممكن أن تتجاهلها مجموعة من البشر بكل بساطة، لا لشئ إلا لأن مجموعة أخرى انتهت منها بالفعل.

وسنخطئ فى الحكم بصورة خطيرة إذا ظننا أن القوميين العرب لا يدركون قدم سعيهم وراء كيان.. أنهم يؤمنون بالأهداف الكبرى للأمم المتحدة، وبالتعاون الدولى الحق، وليسوا فى هذا بأقل من غيرهم من المواطنين المعاصرين الذين تحرروا أو تخلصوا من الوصاية.. ولكن يجب تركهم يبحثون عن هذه الشخصية التى يستطيعون أن يواجهوا بها المجتمع الأكبر، وهم يشعرون بالكرامة والثقة بالنفس كاملتين.. أن مشكلتهم فريدة فى نوعها، وتتمثل فى أن التعبير الأمثل عن هـــذه الشخصية العربية لا يتلاءم بدقة مع الحدد الموجودة - أو حتى داخل نطاق الحدود الطبيعية - وإنما يمتد إلى منطقة مفتوحة، ويسعى إلى التوفيق بين الخصوصيات وقومية لم تتضح أشكالها النهائية.

وفى لحظات الانزعاج قد يطيب لنا أن نتذكر أن هذا المسعى بأكمله إنما جاء نتيجة لامتزاج بين فكرة ظهرت فى المجتمع الغربى، وتراث

وضعه العرب الأول . وحرى بنا ألا نعرقل هذا المسعى ، وإنما نساعد على تحقيقه . . فلقد مضى علينا زمن طويل ونحن عاجزون عن التعرف ، فى المجتمع العربى ، على آراء نحترمها نحن بفخر فى مجتمعنا ، لأننا صنعناها بأيدينا .. ولقد تضاءلت الفرص أمام التفاهم مع العرب فى العقد السادس من القرن . . وإذا لم تكن الفرص قد اختفت تماما ، فلأن العرب يؤمنون بمدنية الغرب التى تختلف عن سياسته .

وأذا استطعنا أن نفخر بايمان العرب هذا ، وأن نعترف بالعلاقات الوثيقة التى تربطنا بهم ، وسعينا إلى التوسع فى هذه العلاقات عن طريق التعاون المتعاطف ، والمساعدات المادية الملموسة ، فليس من المستبعد التئام الجروح التى حدثت فى السنوات الأخـــيرة ، غير أن عوامل الاحتكاك الباقية مازالت عديدة وملحة . . من الجزائر إلى عدن ، من مأساة فلسطين إلى ارتباط أمارات الخليج العربى ببريطانيا . وليست هذه المشاكل مستعصية على الحل ، إذا استطعنا أن نتناولها من جديد باعتبارها مشاكل فى ميدان العلاقات الإنسانية . . ولكن ، سيكون من المؤسف حقاً إذا أصيبت فترة جديدة من تاريخ العرب بجروح الحرب والأزمات ، فى الوقت الذى يحتاج فيه الأمر إلى التخفيف من حدة الفقر المتفاقم .

والمفروض أن التاريخ يساعد الإنسان على تجنب الأخطاء التى يميط التاريخ عنها اللثام . . ومن المؤكد أن الوقت قـــد حان للاستفادة ــ بطريقة ايجابية ــ من الدروس التى كفلها تاريخ العرب الحديث ، للغرب لا للعرب وحدهم .

فهرست

قائمة بالمراجع

ملحوظة : بلغ من ضخامة عدد الكتب التى تتناول كل بلد عربى على حدة أنه يتعذر علينا ـ للغاية ـ أن ننتق منها هنا . والقائمة الصغيرة التالية ، التى تشمل عدداً من الكتب والمرجع الأخرى ، تدور حول المنطقة العربية وشعبها ككل ، كما تتناول من المسائل الكبرى ما يساعد على الحكم على أفكار العرب واتجاهاتهم . والمؤلف مسئول بطبيعة الحال عن العبارات التى وضعها بين أقواس وعلق فيها على المراجع المذكورة .

كتب جيب

THE ARAB IN HISTORY, Professor Bernard Lewis, Grey Arrow Books, 1958.

(دراسة تاريخية شاملة للعالم العربى ، وبخاصة فى الأزمنة القديمة ، غير أنه ينتهى بنا إلى الفترة التى ظهر فيها نفوذ الغرب فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين) .

THE ARAB, Edward Atiyah, Pelican Book No. A 350, 1955.

الكتاب لمؤلف لبنانى مسيحى مشهور تعرفه بريطانيا . وهو ليس حديثاً بالطبع ولكنه يعتبر تكملة مفيدة لكتاب البروفيسير لويس)

مراجع ضخمـــة

THE MIDDLE EAST, Royal Institute of International Affairs, Oxford University Press, Third Edition, 1958.

(لاشك أنه أشمل مرجع سياسى واقتصادى عن مصر والسودان والشرق العربى . وهو ينظر إلى النزعة القوميـــة الأخيرة نظرة متزمتة محافظة) .

NORTH-WEST AFRICA (The Magrib), ed. Nevill Barbour, R.I.I.A., Oxford University Press, 1959.

(يعتبر أول مكمل للمرجع الشهير المذكور آنفاً ، وهو يدور حول المغرب العربى ، ويتناول بصفة خاصة مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا . ويعتبر مجهوداً رائعاً) .

اليقظـــة العربية

THE ARAB AWAKENING, George Antonius, Hamish Hamilton, 1955.

مؤلف ضخم وضعه أستاذ عربى ، تناول فيه ظهور القومية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، غير أنه يقف عند أوائل الثلاثينيات .

SYRIA AND LEBANON, Albert Hourani, R.I.I.A., Oxford University Press, 1946.

EGYPT, Tom Little, Benn, 1958.

REVOLUTION IN IRAQ, «Caractacus», Yollancz, 1959.

دراسة للرأى العام المقارن الذى أدى إلى الثورة العراقية عام ١٩٥٨- وما الذى كان يدور فى أذهان العراقيين . ويعتبر أول تحليل من نوعه)

ARAB UNITY, Fayez Sayegh, Devin — Adair (U.S.A.), 1958.

(تحليل منظم للجهود من أجل تحقيق الوحدة العربية ، حتى قيام الجمهورية العربية المتحدة . وهو يشملها أيضاً بالدراسة) .

مقـــالات . الخ . . .

«PHILOSOPHY OF THE REVOLUTION,» Gamal Abdel Nasser, 'The Observer,' London, October 10th et seq., 1954, or as an appendix to 'THE SPHINX AWAKES', Gerald Sparrow, Hale, 1957.

(كتيب ناصر الذى يعرض فيه لأفكاره بصورة عامة) .

«THE LESSON OF PALESTINE,» Musa el-Alami, cf. 'MIDDLE EAST JOURNAL' (Washington, D.C.), 1950.

(يعتبر من أهم الكتابات التى تعبر عن رد الفعل القومى إزاء مشكلة فلسطين، وهو يتناول ، بطريقة تفصيلية كل مظهر من مظاهر «العروبة الفتية» بالرغم من أن المؤلف محام فلسطينى من الجيل القديم) .

«COMING TO TERMS WITH THE ARABS,» Michael Ionides, 'THE LISTENER', August 7th, 1958.

حديث ألقاه فى الإذاعة البريطانية واحد من أكثر البريطانيين إدراكا وإلماماً بالشرق الأوسط نتيجة لوجوده فى المنطقة لفـــترة كبيرة . والحديث يدور حول الدروس التى تؤخذ من الثورة العراقية) .

«NASSERISM», a special issue of the regular mouthly magazine, MIDDLE EAST FORUM, April, 1959, Alumni Office, American University of Beirut, Lebanon.

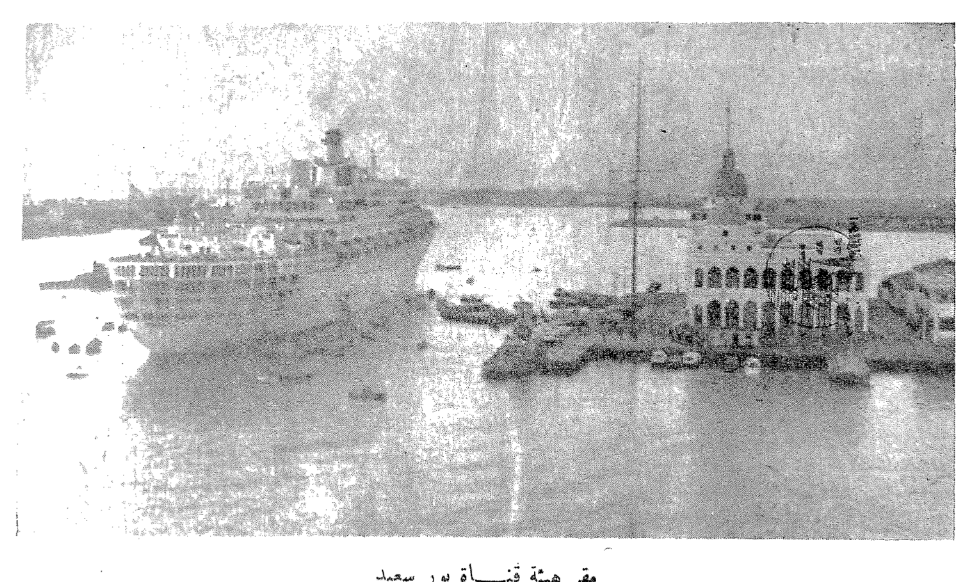
(ندوة اشترك فيها لفيف من أشهر الأساتذة والصحفيين من العالم العربى والعالم الغربى) .

دوريات

يحب المؤلف أن يشير إلى أن تتبع أنباء العالم العربى سيزود القارىء بأدق صورة من واقع البرقيات التى يبعث بها مراسلو « الجارديان » و «التايمز» و « الأوبزرفر » و « الاسبكتاتور » و « الإيكونومست » (مراسل الشرق الأوسط) .

مؤلفات أخرى

فى عدد كبير من الكتب المذكورة آنفاً ، وبصورة خاصة فى المرجعين الكبيرين عن الشرق الأوسط وشمال غربى أفريقيا ، سيجد القارىء قوائم ممتازة مفصلة تتناول كل بلد على حدة بالدراسة والتحليل ، كما سيجد كتباً عن النواحى الاقتصادية وغيرها .



مقر هيئة قنـــاة بور سعيد
تظهر أمامه احدى السفن فى طريقها إلى القناة

مجموعة

اخترنالك

تصدر

نصف شهرية باللغات العالمية

يشترك فى تحريرها وإعدادها

لجنة "اخترنالك"

المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر

٣٠ شارع منصور - ص.ب ٢٣٩٨

١٠ قروش